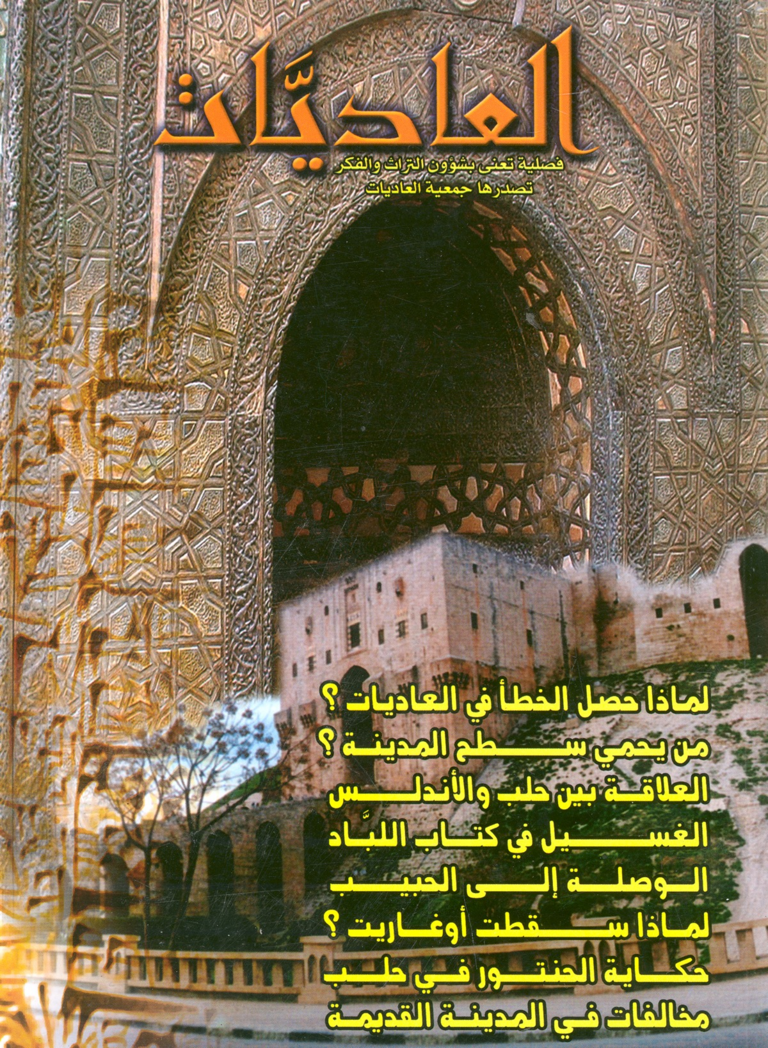

العاديَّات
فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر
تصدرها جمعية العاديات
لماذا حصل الخطأ في العاديات ؟
من يحمي سطح المدينة ؟
العلاقة بين حلب والأندلس
الغسيل في كتاب اللبَّاد
الوصلة إلى الحبيب
لماذا سقطت أوغاريت ؟
حكاية الحنتور في حلب
مخالفات في المدينة القديمة

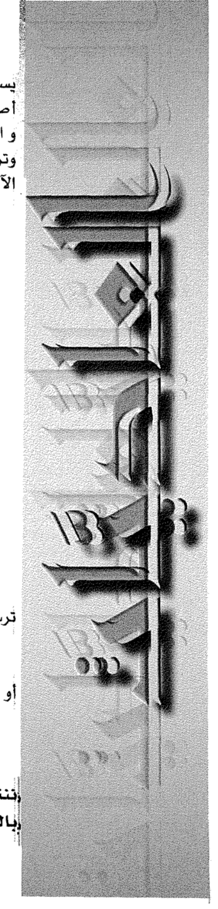
العاديات

مجلة فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر
تصدرها في حلب جمعية العاديات السورية
بموجب الترخيص رقم ٧٨٧٣ / ٢٠٠٢

الاشتراك السنوي

سورية: ٣٠٠ ل.س "بدون أجور بريد" - ٤٠٠ مع أجور البريد /
الدوائر الرسمية والمؤسسات والهيئات العامة: ١٠٠٠ ل.س /
خارج سورية: ٥٠ دولارا أمريكيا /
ثمن النسخة في سورية: ٧٥ ل.س

مجلة العاديات : ص.ب ٦٤٧٤ هاتف وفاكس : ٢٢٦٧٦٧٤ - ٢٢٨٥٧٣٠
البريد الالكتروني : Email:adyat@scs-net. org



شروط النشر في المجلة

يسرّ أسرة تحرير مجلة العاديات أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الكتاب والمثقفين والباحثين في التراث و الفكر.

وترى أسرة التحرير أن تكون المواد المرسلة وفق الشروط الآتية :

- أن تراعي المادة المرسلة قواعد البحث العلمي من حيث الموضوعية والمنهجية وذكر المصادر والمراجع.
- تراجع المواد المرسلة من قبل أسرة التحرير، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حال عدم نشرها.
- تفتح المجلة أبوابها للحوار حول الموضوعات المنشورة.
- ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية.
- ألا تتجاوز المادة المقدمة للنشر عشرين صفحة، وأن تكون مرفقة بالصور والمخططات الموضحة للموضوع.
- الآراء الواردة في المجلة تمثل وجهة نظر أصحابها، ولا تُعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.
- يحصل المساهم في المجلة على نسختين مجانيتين من العدد الذي ساهم فيه.

تُوجّه المراسلات باسم مدير التحرير

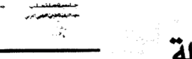
ترسل المواد إلى المجلة عن طريق بريدها الإلكتروني أو على قرص مرن مرفق بنسخة مطبوعة على الورق.

العنوان البريدي : ص. ب ٦٤٧٤ حلب – سورية.

أو تسلم باليد في جمعية العاديات – شارع اسكندرون – جانب صالة معاوية.

ننتظر مساهمتكم في تحرير هذه المجلة سواء بالكتابة فيها أو تقديم أي اقتراح يفيد في تحسين أدائها، وجعلها لائقة بجمعيتنا العريقة.

التحرير



هذه المجلة

قبل ثلاثة وسبعين عاماً. . . . أصدرت جمعية العاديات مجلتها تحت عنوان: مجلة العاديات السورية. بالعربية والفرنسية. وصدر العدد الأول في شهر محرم عام ١٣٥٠ هـ الموافق لشهر آيار ١٩٣١ م. واستمرت بالصدور حتى عام ١٩٤٠م. وتوقفت خلال الحرب العالمية الثانية.

وكان المدير المسؤول عن المجلة الشيخ كامل الغزي مؤسس الجمعية ورئيسها الأول. يساعده في تحريرها الأب جبرائيل الرباط الذي أصبح رئيس الجمعية بعد وفاة الغزي.

وقد شكلت مجلة العاديات السورية في حينه ظاهرة علمية لافتة،لأنها ملأت فراغاً في ميدان الدراسات الأثرية والتراثية والتاريخية. وكانت من أوائل المجلات العربية في هذا المجال.

وكان للمجلة مراسلون من خارج حلب منهم:

- عادل الغضبان من القاهرة.
- بولس شمّاس من اسكندرون.

وكان بدل الاشتراك السنوي مائة قرش سوري في سورية ولبنان. و١٢٥ قرشاً في بقية الجهات.

ومنذ عام ١٩٧٥م شرعت الجمعية بإصدار كتاب سنوي تحت عنوان: عاديات حلب بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب.

وقد صدر من الكتاب السنوي عشرة أعداد.

وقد حصلت الجمعية مؤخراً على ترخيص بإصدار مجلة العاديات تحت مسمى مجلة العاديات وتعنى بقضايا التراث والفكر.

صدر الترخيص عن السيد رئيس مجلس الوزراء برقم ٧٨٧٣ وتاريخ ١٦-١٠-٢٠٠٣م. وتأتي هذه المجلة تتويجاً لجهد جمعية العاديات وتوسع أنشطتها وتشعبها نوعاً وامتداداً.

ولقد كنا نسعى منذ أمد للحصول على هذا الترخيص. وكان المرحوم الدكتور إحسان الشيط نائب رئيس الجمعية من أشد المتحمسين لهذا المشروع والساعين إليه. وقد قضت مشيئة الله أن يغادر هذه الحياة قبل أن يرى ترخيص المجلة النور.

وإننا في هذه المناسبة،نهدي إلى روحه الطاهرة هذا العدد الأول من المجلة،ونقدر الجهود الكبيرة التي بذلها خلال حياته في سبيل الدفاع عن تراث الوطن وآثاره وبخاصة تراث مدينة حلب المادي وغير المادي.

إننا ومع صدور العدد الأول من هذه المجلة التي تستأنف حياتها بعد ثلاثة أرباع القرن،ندعو السادة الباحثين من أعضاء الجمعية وأصدقائها إلى المساهمة في الكتابة إلى المجلة بدراساتهم وبحوثهم ومقالاتهم،ونحن واثقون من أن ذلك سيكون إغناء للمجلة ودافعاً لها للتطور والاستمرار لتكون النافذة التي تطل على ميادين التراث كافة.

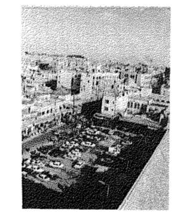
وإننا نغتنم هذه الفرصة لتقديم الشكر لكل من ساهم بأي جهد في إصدار هذه المجلة،من هيئة التحرير والهيئة الاستشارية والداعمين للمجلة بشتى أنواع الدعم.

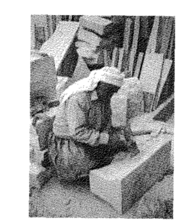
سائلين الله أن يأخذ بيدنا إلى نجاح هذا العمل والسير به نحو هدفه الوطني والعلمي والحضاري.

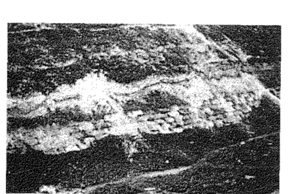
المدير المسؤول

العاديّات









الغلاف الأمامي: محراب المدرسة الحلوية -قلعة حلب - رقم إيبلا
الغلاف الخلفي: باب الحيات في قلعة حلب
تصميم الغلاف: محمود عليكاج

العمليات الفنية والتنفيذ: الأوائل للنشر والتوزيع
دمشق ص.ب: ٣٣٩٧ - تيليفاكس ٢٤٦٠٠٦٣
البريد الإلكتروني: alawael@scs-net.org

مسابقة

نتـــــائـــج
مسابقة العاديات للأبحاث التراثية
جائزة الشيخ كامل الغزي

انطلاقا من دور جمعية العاديات الرائد في مجال الحفاظ على التراث المادي وغير المادي. وانسجاماً مع الجهود المبذولة في دعم الباحثين الذين يهتمون بالحضارة السورية على مر التاريخ، أعلنت جمعية العاديات السورية عن مسابقتها الأولى لجائزة «العاديات» للدراسات التي تبحث في احدى القضايا التراثية أو الآثارية في سورية.

وقد وردت إلى أمانة سر الجمعية أبحاث عديدة من مختلف أقطار الوطن العربي، وحولت بسرية تامة مغفلة من الأسماء إلى لجنة التحكيم التي شكلها مجلس إدارة الجمعية من نخبة من المختصين لقراءة الأعمال وتقييمها وفق معايير البحث العلمي وفرزها. وهم السادة:

١ - الدكتور المهندس صخر علبي "عميد كلية العمارة بجامعة حلب".

٢ - الدكتور عبد الرحمن البيطار "رئيس قسم التاريخ بجامعة حلب".

٣ - الأستاذ المهندس تميم قاسمو "باحث في التراث والحضارة".

وقد ترأس اللجنة الباحث محمد قجة "رئيس جمعية العاديات السورية"، الذي درس الأبحاث المقدّمة إلى المسابقة ، و جمع تقارير لجنة التحكيم ونسق بينها. وبعد التداول جاءت نتائج الأبحاث الفائزة على الشكل الآتي:

١) توزع الجوائز مثالثة على الأبحاث:

- "التاريخ الأثري للأوابد الإسلامية في ادلب والذي تقدم به الباحث فايز قوصرة"
- "آثار مدينة حلب الذي تقدم به الباحث عامر رشيد مبيض".
- "الساعات الشمسية في حلب الذي تقدم به الباحث محمد صبحي صقّار".

يمنح كل فائز مبلغ "٢٥ ألف" ليرة سورية، مع درع الجمعية.

٢) تحجب باقي الجوائز لعدم توافر الشروط المنصوص عنها في المسابقة في الأبحاث المقدمة.

٣) توزع الجوائز في مهرجان الذكرى الثمانين لتأسيس جمعية العاديات خلال شهر آب القادم ، وتتم دعوة الفائزين لحضور مراسم توزيع الجوائز وتصحبهم في جولة علمية للتعرف على آثار مدينة حلب وأوابدها التاريخية ، ويرافق توزيع الجوائز مؤتمر صحفي للتعريف بالفائزين وأبحاثهم.

٤) تحتفظ جمعية العاديات بالأعمال المقدمة للمسابقة وتنشرها في مطبوعاتها وفق ما تراه مناسباً.

ومما يجدر ذكره أن الجوائز تقدم بالتعاون مع دائرة الإفتاء بحلب.

في العدد القادم ننشر شروط مسابقة العاديات لعام ٢٠٠٤م.

أمانة سر جمعية العاديات

هل يهدم؟

بناء الحموي - حي الجميلية - حلب



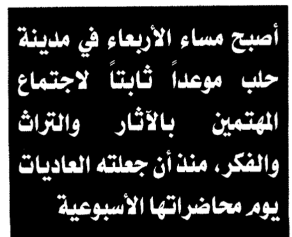
أتُتْلِفها؟ شُلَّت يمينُك، خلِّها لمعتبرٍ أو زائرٍ أو مسائلِ

منازلُ قومٍ حدَّثتنا حديثهم ولَمْ أرَ أحلى من حديثِ المنازلِ

شاهد على العاديات في مرآة الصحافة

عامر الدبك(*)

أصبح مساء الأربعاء في مدينة حلب موعداً ثابتاً لاجتماع المهتمين بالآثار والتراث والفكر، منذ أن جعلته العاديات يوم محاضراتها الأسبوعية



وعلى منبرها البسيط الذي يتصدر قاعتها المتواضعة تثار أكثر المواضيع أهمية وحساسية، ويأتي المحاضرون وقد أجهدوا أنفسهم في تحضير مادة دسمة للمستمعين الذواقين، وقلما تنتهي محاضرة دون أن يعقبها مداخلات وتعليقات لا تقل عن المحاضرة أهمية وفائدة، وقد يشتد النقاش ويستعر لكن الجميع يترك القاعة في النهاية بمصافحة وموعد يتجدد. يجول أبو فؤاد بوجهه الودود قبيل انتهاء المحاضرة ليوزع على الحاضرين رزمة من الأوراق والبطاقات الصغيرة تحدد لهم مواعيد محاضرات أخرى في العاديات وندوة الشهباء والمركز الثقافي ونقابة المهندسين ومعهد التراث وغيرها من المنابر الثقافية العديدة التي تجعل من حلب أكثر المدن السورية نشاطاً في هذا المجال.

وفي بداية عام ٢٠٠٤ اختار الدكتور محمد جمال طحان أن يحاضر متحدثاً عن جمعية العاديات في مرآة الصحافة عام ٢٠٠٣ وكانت فرصة لأن يستعرض المحاضر والمستمعون معاً صورة شاملة لسنة ثقافية حافلة بالجهد والنشاط المتنوع كما انعكست في وسائل الإعلام المحلية والعربية. وقدعرض للأصداء التي أحدثها هذا المنجز في الصحافة

(*) أديب، عضو اتحاد الكتاب العرب.

المحلية والعربية كجريدة الجماهير والثقافة الأسبوعية والأسبوع الأدبي وأخبار الأدب ومجلة العالم وغيرها.

واتبع المحاضر في عرضه الترتيب الزمني للمحاضرات وما رافقها من تغطية إعلامية فنقل المستمعين من ذكرى محاضرة إلى أخرى، ولم يفوت الفرصة فأعادهم بلمسات قصصية سريعة إلى الأجواء الطريفة التي ميزت بعض المحاضرات واستخدم في عرضه الصوت والصورة مما أخرج العرض من الجو السردي الممل إلى جو مسل محبب.

وكان العرض فرصة لكي يتعرف الحاضرون إلى أمرين رئيسين : الأول هو اتساع المجال الثقافي الذي غطته المحاضرات بحيث استجاب لاهتمامات جمهور الجمعية المتعدد الأطياف، فقد تناولت المحاضرات الشأن الأثري بشكل رئيسي، لكنها شملت جوانب ثقافية عديدة تتصل بالتراث بمفهومه الواسع. كما أنها تفاعلت مع الفكر العالمي والهم الوطني تفاعلاً واضحاً. والأمر الثاني هو أن الصحافة المحلية والعربية قدرت للجمعية سعة أفقها وتعدد نشاطاتها فاهتمت بأن تنقل ذلك إلى قرائها باعتباره أمراً يستحق أن يظهر ويقدر ويشكر.

ولكي لا تكون كتابتي نوعا من التسجيل لما قيل في المحاضرة أشير إلى بعض النشاطات المتميزة التي سجل المحاضر ما أثارته من حوارات أو نقاشات وأصداء في الصحف ومن هذه المحاضرات محاضرة للأستاذ إحسان كيالي بعنوان الموت الرحيم تحدث فيها عن القانون الذي أصدرته هولندا بهذا الخصوص وقد أثارت حوارا ساخنا وإشكاليا وجريئا من الحاضرين. وكذلك لقاء الأديب وليد إخلاصي مع جمهوره في حلب وحديثه عن مدينة حلب التي يعشق وكذلك الندوة التي أقيمت حول الشاعر العربي الكبير عمر أبو ريشة. ومحاضرة حول كتاب برنار لويس " أين حدث الخطأ " للباحث د. شيخوني الذي أكد أن الكتاب ليس هاماً بقدر ما هو خطير، أثارت هذه المحاضرة جدلا وحوارا مفيدين ، وقد كتب عنها الدكتور جمال طحان للصحافة مقارنا بين آراء لويس وآراء نعوم تشومسكي حول السياسة الأمريكية في المنطقة.

ومن اللقاءات التي كانت أكثر تميُزاً لقاء الأديب العربي المصري جمال الغيطاني بجمهور حلب، الذي أثبت أنه لا يتذوق الطرب فحسب، بل يتذوق الإبداع المتميز في كل المجالات أيضاً. وإذ قام الروائي جمال الغيطاني بزيارة حلب والتعرف على معالم تلك المدينة التي أفرد لها في بستان جريدة «أخبار الأدب» المصرية صفحات عدة للإشادة بهذه المدينة والحديث عن تاريخها وحضارتها، وتحدث في زاويته الأسبوعية أيضاً عن الأثر الجميل الذي تركته هذه الزيارة في نفسه. ونوَّه المحاضر بما كتبته سعاد جروس في الكفاح العربي تبارك الجهود المبذولة في العاديات التي يعمل أعضاؤها ليكونوا حراساً أوفياء على معالم المدينة القديمة وعلى التراث الفكري العريق.

وبمتابعتها في مجلة العربي عدد كانون الثاني ٢٠٠٤ نجد إشادة بجهود جمعية العاديات بفروعها المختلفة في الحفاظ على الآثار وصيانتها.

وقد عرض المحاضر للمحاضرات الأخرى عرضاً سريعاً دون أن يغفل الإشارة إلى بعض المحاضرات الطريفة كمفهوم السقّاطات عبر التاريخ وحديث المربية عائشة دباغ عن مسيرتها التربوية الطويلة.

ولا بد أن نشير في النهاية إلى أهمية هذه الالتفاتة التي تم فيها قراءة ما أنجز ، والأصداء التي أحدثها والعثرات التي مر بها لتكون الخطوات القادمة دائماً هي الخطوات الأكثر صواباً وعسى هذا التقليد ينشر غبار جمراته الطيبة بين المنابر الأخرى فتصاب بعدواه وتعمل على تصحيح مسيرتها ونشاطاتها في نهاية كل عام كي تتقدم وتنجز ما هو مهم ومفيد■

«لماذا حصل الخطأ؟» .. في عاديات حلب

عامر شيخوني يُفنّد مزاعم برنار لويس

محمد جمال طحان (*)

كثيرة هي الكتابات التي تتناول العالمين العربي والإسلامي. ولكن المؤسف أن من يقوم بتلك الدراسات هم المستشرقون الذين لاتخلو كتابات كثير منهم من أغراض تخدم مصالح الدول التي ينتمون إليها. وقد بدا ذلك واضحاً منذ قيام المستشرقين الأوائل ببناء الأساس الفكري الذي عرّف بطبيعة المنطقة العربية والدول الإسلامية تمهيداً لجحافل الاستعمار التي تتالت على اقتسام الدولة، ثم جاء المستشرقون الأحفاد، كما أشار إلى ذلك د. عبود العسكري، وبدؤوا يمهدون لغزو المنطقة بالشكل الذي نراه الآن من خلال افتعال حروب بينية تفتت العالمين العربي والإسلامي، ومن خلال ضرب الدول التي تشكل قوى للتصدي الاستعماري بحجة أنّها دول إرهابية، أو تؤوي إرهابيين. وذلك كله يتم بعد دراسات يقوم بها منظرون تنفيذاً لمخطط امبريالي محكم.

من تلك الدراسات التي تساهم في الخراب، كتاب صدر مؤخراً تحت عنوان: WHAT WENT WRONG؟ "أين يكمن الخطأ"، للمستشرق البريطاني برنار لويس وله عنوان فرعي "في التحدي الغربي واستجابة الشرق الأوسط" صدر عام "٢٠٠٢" عن دار جامعة أوكسفورد للطباعة، ويقع في "١٦٠" صفحة من القطع المتوسط، ويتألف من مقدمة وسبعة فصول. يحاول فيه استكشاف تدهور الحضارة الإسلامية لمعرفة الأسباب التي أدت إلى تأخّر المسلمين بعد آن كانوا يصدّرون الثقافة للغرب الذي كان يرزح تحت وطأة التخلّف والخلافات والمعارك الأهلية الطاحنة.

وهو كتاب صدر بعد فترة وجيزة من أحداث "١١" ايلول التي اتُّهم المسلمون فيها بتفجير مركز التجارة العالمي في قلب أمريكا.

وقبل أن نعرض للكتاب بحسب وجهة نظر الدكتور عامر شيخوني التي بسطها في محاضرته التي ألقاها بجمعية العاديات بحلب تحت عنوان أين حدث الخطأ وأثارت كثيراً من التساؤلات

نقول قبل ذلك لابد من التعريف بصاحب الكتاب، برنار لويس، الذي يُقدّم تارة على أنه بريطاني، وأخرى على أنه أمريكي يقدّم العلم للقاطنين في الشرق الأوسط على طبق من فضة ليعرفوا ما يجهلونه عن أنفسهم.

من هو برنار لويس

يتحدث برنار عن نفسه في إحدى صفحات الانترنيت قائلاً :

(*) باحث في الفكر العربي.

لقد تعلمت في جامعة لندن، قسم الدراسات الشرقية والإفريقية، فدرست تاريخ الشرق الأوسط، وأكملت جزءاً من دراساتي العليا في باريس.

ثم عملت مدرّساً للتاريخ الإسلامي في القسم الذي تخرّجت فيه بالجامعة البريطانية. باستثناء السنوات "١٩٤٠- ١٩٤٥" حيث كنت مشغولاً "متورّطاً Engaged" في بعض الأمور، عدت بعد ذلك إلى التدريس في جامعة لندن، ثم في برنستون.

اهتماماتي كانت منصبّة على التاريخ الإسلامي في القرون الوسطى وبخاصة الحركات الدينية. ثم بدأت أهتم بالشرق الأوسط الحديث.

الآن أحاول توحيد الاهتمامات بدراسة تاريخ العلاقات بين أوروبا والإسلام منذ القديم حتى العصور الحديثة مروراً بالفترة العثمانية.

وكتب لويس برنار مايسميه "دستتين" من الكتب نذكر منها:

العرب في التاريخ - ظهور تركيا الحديثة - القتلة - المسلمون يكتشفون أوربا - لغة الإسلام السياسية - الإسلام والغرب - الإسلام في التاريخ - تشكيل الشرق الأوسط - صراع الثقافات.

برنار لويس
مستشرق يهودي عمل في المخابرات البريطانية

وما يهمنا هنا هو اكتشاف تلك السنوات "١٩٤٠- ١٩٤٥" التي كان "عالقاً" خلالها في أمر ما. وبالأحرى كان متورّطاً.

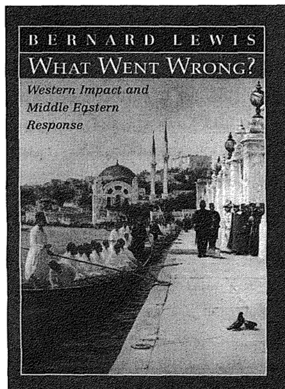
يشير إلى ذلك د. شيخوني في ختام محاضرته قائلاً: من خلال ملخص ماكتبه برنار لويس عن نفسه، يذكر من أين جاء ولا يتحدث عن نشأته وعن ديانته، والمصدر الوحيد الذي ذكر فيه أنه "يهودي" هو حوار أجري معه في الأرض المحتلة من قِبَل الصهاينة. وهي حقيقة يغفلها دائماً ويتجنّب ذكرها في التعريف بنفسه.

ويذكر أيضاً أنه بين عامي ١٩٤٠- ١٩٤٥ كان مستغرقاً أو عالقاً بأمر ما وهو في الحقيقة كان يعمل بالمخابرات البريطانية أثناء الحرب. ويضيف د. عامر شيخوني: ولابنه أيضاً "مايكل لويس" لقب هام هو رئيس لجنة دراسة أبحاث المعارضة في اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للعلاقات العامة.

أين حدث الخطأ؟

يحاول برنار لويس في كتابه "What went wrong؟" أن يستكشف أسباب تدهور الثقافة الإسلامية، مدّعياً أن أحداثاً حالية في كثير من البلدان الإسلامية أشعلت الرغبة في الانتقام من العالم الغربي الذي بدا مسؤولاً عن ذلك التخلف الذي يعانيه المسلمون. وهو يسجل بدءاً أنه بينما كانت أوروبا غارقة في العصور المظلمة، كان العالم الإسلامي مزدهراً على صعد الفن والعلم والموسيقى والفنون الحربية.

لكن أوروبا بدأت تزدهر تدريجياً وبخاصة في الفنون. وهذا الازدهار-كما يقول- يعود في جانب منه إلى ماتعلّمته من العالم الإسلامي. في أثناء صعود أوروبا بدأ نجم البلاد الإسلامية



يخبو، وبدأ انحسارها عسكرياً وسياسيا واقتصادياً.

وبعد إشارته إلى أن الكتاب يأتي مباشرة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، يقول: إذا استمر الناس في الشرق الأوسط على مسارهم الحالي، فإن المنطقة ستغرق كلها في دوامة العنف والإرهاب، وستصبح عرضة للهيمنة الأجنبية، ربما من أوروبا التي ستعود إلى الاحتلال على الطريقة القديمة، أو من روسيا أو من بعض القوى العظمى التي يلاحظ أنها تكبر في الشرق.

وفي حوار أجري معه مؤخرا بمناسبة صدور كتابه يقول: في القرن العشرين أصبح واضحا في كل البلاد الإسلامية أن الأشياء قد أصبحت خاطئة، وأن العالم الإسلامي بات فقيراً وضعيفا وجاهلا فالمسلمون يعانون من البطالة ومن مستوى المعيشة المتدني، وليس لديهم مزروعات، ولا حتى صناعة واحدة تنافس الأسواق الدولية. وهم يعتمدون بقدر كبير على البترول الذي اكتشف واستخرج واستغلّ بفضل الآلات التي ابتكرها العالم الغربي. أما مستوى التعليم فهو متدن بشكل خطير.

ويقول ردّاً على سؤال آخر:الإسلام تقدّم بسرعة في أوروبا وغزا جزءاً كبيراً منها وصار لسان حال المسلمين المعاصرين يقول: لقد هزمنا الكفار دائماً، والآن الكفار يهزموننا. كان المسلمون قوى عسكرية كبيرة، ولديهم سلطة اقتصادية متطورة، ويملكون نظاماً معقداً للتجارة، لم تكن أوروبا تحلم بمثله لأنها كانت غارقة في التخلف والبدائية، وحتى الآن تستعمل أوروبا كثيراً من المصطلحات المصرفية الإسلامية والعربية.

الدين والدولة في الإسلام

وحول السؤال عن العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام، أجاب:

أصبح محمد، مؤسس الدولة الإسلامية، رئيس دولة، حيث أعلن القوانين وأقام العدل وجمع الضرائب وخاض الحروب وصنع السلام. الدولة في الإسلام كانت جزءا من الدين، والدين كان جزءاً من الدولة.

غزا العرب أوروبا لمدة "٨٠٠" سنة، وفجأة استطاع الأوروبيون أن يقلبوا المائدة ويقوموا بالغزو المعاكس. لكن هذا الغزو لم يدم سوى فترة قصيرة. فما الذي أحدث الخطأ الذي نجده الآن في البلاد الإسلامية؟

وإذا سألنا برنار لويس عمّا فعله المسلمون في البلاد التي فتحوها مما جعل الدول الأوروبية تزدهر، وعمّا فعله الأوربيون في بلادنا من فساد، فإنه لن يجيب، يقول إنها فترة احتلال قصيرة.

تشومسكي : نحن دعمنا الطغاة

لكن مستشرقا آخر هو نعوم تشومسكي سيكون أكثر جرأة منه ليقول: كنا ندعم بقوة النظم القمعية التي خلقناها في المنطقة، كان لدينا الامبريالية البريطانية التي دمرت الصناعات القومية في مصر، كان لدينا الدعم الأمريكي للنظم القمعية، وكنا دائماً نقوّي سلطة الشاه والخليفة والسلطان الذي يعادي التحديث والتطور. لقد خلقنا الحدود الصناعية في المستعمرات القديمة وفي افريقيا، وخلّفنا مشكلات لايمكن أن تُحلّ، هذا ما يقوله تشومسكي، أما برنار فإنه يشير بخجل إلى أن الامبريالية غير بريئة، لقد ساهمت في صنع الخطأ، لكنها ليست هي سبب الخطأ. إن الخطأ حدث أساساً مما مكّنهم من احتلال البلاد العربية والإسلامية. السلطة الامبريالية قامت بما ساهم في إحداث الخطأ، ولكنها أيضاً قامت ببعض الأشياء الجيدة، كما يقول. والمستعمرون صاغوا البنية التحتية، وقدّموا التعليم الحديث، وأنشؤوا المدارس والجامعات التي لم يكن لها وجود، وحاولوا أيضاً تقديم الدولة الحديثة التي

تتمتع بمؤسسات دستورية وبرلمان.

وفي ردّه عن سؤال حول دعم الغرب للنظم القمعية، يجيب برنار لويس: لدينا تجارة في داخل تلك البلاد، لنترك الناس في أيدي طغاة، ماداموا طغاة ودودين، بدلاً من تسليمهم إلى طغاة عدائيين.

ومن الواضح هنا أن العالم الغربي حريص على تجارته وحسب، ولا يهمه أي شيء من أمر الناس في البلاد الإسلامية، مادام الحكام الذين يخلفّونهم "ودودين" في تسيير مطامع الغرب الاستعماري في الشرق الأوسط.

كان لابد من تلك الإضاءة للتعريف بالمؤلف وأفكاره قبل الخوض في غمار تحليل كتابه ومعرفة فصوله ونتائجه.

د. شيخوني والبحث عن الخطأ

يلخّص د. عامر شيخوني كتاب "أين حدث الخطأ؟ في التحدي الغربي واستجابة الشرق الأوسط".

مبتدئاً بالمقدمة حيث كانت الحضارة الإسلامية في الشرق الأوسط منارة العلم والتطور والتجارة والرفاهية ومنبع الفكر والفلسفة والعلوم في العالم منذ القرن السابع وحتى القرن السادس عشر الميلادي، في حين كانت أوروبا وأفريقيا في جهالة القرون الوسطى، وأمريكا - العالم الجديد - لم تكتشف بعد وراء بحر الظلمات، وحضارة الصين المتقدمة هادئة على أطراف العالم في أقصى الشرق



دون أن تلعب دوراً هاماً في أحداثه.

استطاعت الحضارة الإسلامية أن تتجاوز الخطر المغولي والغزو الصليبي وأن توحد قواها في منطقة إيران وفي تركيا وأن تفتح القسطنطينية وتحتل البلقان وتهدد أسوار فيينا ١٥٢٩.

ولكن... في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حدثت بدايات لنهضة أوروبية لم يتنبه لها المسلمون:

١) الخروج من الأندلس ١٤٩٢.

٢) طرد التتار المسلمين من جنوب روسيا واندحارهم حتى شواطئ قزوين ١٥٥٤.

٣) معركة Lepauto البحرية ١٥٧١ قرب اليونان، كانت نتيجتها خسارة عثمانية فادحة. هنا حوّل الغرب الحرب إلى علم ولم تعد قاصرة على القادة العسكريين.

٤) اكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح.

٥) اكتشاف آمريكا - العالم الجديد وما فيه من أبعاد اقتصادية هامة.

٦) الصراع مع روسيا، ثم بداية الانحسار الذي لم تنجح الحضارة الإسلامية بعده في مواجهة التحدي الغربي.

ثم بدأت محاولة التعلم من الأوربيين الكفار، ونشأت المدارس العسكرية والتكنولوجيا العسكرية، وبدأ قبول الخبراء الأجانب، وإرسال السفراء إلى أوروبا بشكل بعثات قصيرة ثم دائمة.

وجاءت حملة نابليون على مصر والشام: قوة أوروبية احتلت مصر وتجولت فيها وسيطرت عليها ولم تخرج منها إلا بسبب تهديد قوة أوروبية أخرى "نلسون".

في الفترة نفسها كان الصفويون يخسرون أمام روسيا.

ويلخص المحاضر ماجاء في الفصول الثلاثة الأولى من الكتاب الذي يصوّر انهزام الحضارة الإسلامية

أمام التفوق والتحدي الغربي في المجالات الثلاثة الرئيسية : العسكرية والاقتصادية والسياسية أمام العالم الجديد بثورته الصناعية ونشوء الاستشراق.

وكانت النتائج :

- **احتلال الغرب للدول الإسلامية في النصف الأول من القرن العشرين.**
- **تفكك الدولة العثمانية وزوال الخلافة الإسلامية.**

ولم يبق إلا أفغانستان والأجزاء الداخلية من شبه الجزيرة العربية، حيث شكّل الانتداب الفرنسي جمهوريات دستورية على شاكلته.

وشكّل الانتداب البريطاني ملكيات دستورية على شاكلته، وأحكمت روسيا سيطرتها السوفيتية على شاكلتها في المناطق المسلمة في آسيا الوسطى والقوقاز.

ثم تطرق المؤلف في الفصلين الرابع والخامس إلى بعض الفوارق الاجتماعية الهامة بين الحضارة الإسلامية في فترة انحدارها والغرب المتقدم، وبخاصة حول المرأة والرق وأهل الذمة.

ورأى أن الأرقاء تحرروا بفضل الضغط الغربي والاهتمام بذلك.

أما عن الموقف من العلم فيقول: إنه لما يثير الدهشة مدى تباطؤ المسلمين في قبول العلوم الأوروبية برغم تاريخهم العريق في نقل العلوم وتطويرها في عهودهم الزاهرة. ولم يكونوا مجرد ناقلين للعلوم القديمة بل سجلوا إضافاتهم الهامة في المجالات كافة وخاصة بالمنهج التجريبي في العلوم. ولكن حدث جمود هام حوالي القرن الرابع عشر حين بدأت النهضة الأوروبية ، ويقدم مثالين هامين:

١) اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى - في القرن ١٣ ، أهمل ولم يؤد إلى تطوير الطب في حين أدى إعادة اكتشافها من قبل وليام هارفي في القرن ١٦ إلى ثورة في الطب.

٢) بناء مرصد Galata في اسطنبول ١٥٧٧ في نفس الفترة التي بني فيها مرصد Brahe في هولندا.

وفي عرضه الفصل السادس يركز د. عامر شيخوني على فكرة طريفة هامة عن أهمية تقدير الدقة في المجتمع في قياس الزمن والمقاييس والأوزان والأبعاد.

وأهمية ذلك في تنسيق أي عمل جماعي سواء كان ذلك في الفنون أو العلوم.

حيث غدا التركيز في : الرسم على البورتريه، وفي الموسيقى على الهارموني، وفي الرياضة على الفرق الجماعية، وفي الصناعة على خط الإنتاج، وفي السياسة على المجلس النيابي وتعدد الأحزاب والاجتماعات، وفي العلوم على البحث العلمي الجماعي الحديث، وفي الحرب على تحديد خط الجبهة وخطة القتال.

وفي الفصل السابع يبين علامات الغزو الثقافي الغربي للعالم الإسلامي: العمارة، النقود، الطوابع، فن البورتريه بدلاً من المنمنمات، التصوير الضوئي، اللباس اليومي، المسرح، القصة والرواية، الطباعة والصحافة والراديو والتلفزيون والاتصالات الحديثة، الرياضة الجماعية، اللغة.

ثم يقدم المحاضر خاتمة الكتاب حيث:

بدا واضحاً في القرن العشرين أن الأمور لا تسير على مايرام في الشرق الأوسط بل وفي الدول الإسلامية بشكل عام. هذه الدول أصبحت أكثر فقراً وضعفاً وجهلاً في حين أصبح واضحاً أن الحضارة الغربية قد غزت بلاد الشام عسكرياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وحتى ثقافياً.

- كانت هناك محاولات للتحديث والتطوير في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية، ولكن النتائج كانت حتى الآن مخيبة للآمال بشكل عام.
- خسارة عسكرية متكررة، وخسارة اقتصادية وزيادة في الفقر والديون والاعتماد على

المساعدات الخارجية. وعلى البترول... وحتى هذا يُعتمد فيه على الشركات والتكنولوجيا الغربية.

- فشل سياسي إذ لم يؤد النضال الطويل في سبيل الحرية إلا إلى دول متعددة متفرقة مستبدة إما بشكل ممالك وإمارات أو بشكل دول استبدادية، حديثة - فقط - في أجهزة السيطرة والاستبداد التي تستعملها.
- استخدمت وسائل إصلاح عديدة في الأسلحة والمعامل والمدارس والمجالس النيابية دون أن تصل إلى حلول ناجحة في الوصول إلى مواجهة ناجحة أمام تحديات الغرب.
- لعل الأسوأ أنه لم يكن كافياً أن يشعر المسلمون بالهزيمة أمام الغرب القوي ولكن ظهر لهم في النصف الثاني من القرن العشرين أنهم يتخلفون حتى عن بعض الأمم التي كانت خلفهم مثل دول آسيا الشرقية: اليابان وكوريا.

وفي ختام المحاضرة يرى د. شيخوني أن السؤال المطروح هو : من الذي فعل هذا بنا ؟

- المغول - الاستعمار العثماني - الاستعمار الأوربي والامبريالية؟
- اليهود والصهيونية ونظرية المؤامرة العالمية - الامبرياية الامريكية؟
- التفوق الغربي العلمي والاقتصادي والعسكري "قوة التحدي التي تواجهنا"؟
- الدين الإسلامي؟ ...!

ثم يجيب: إذا كان الدين هو السبب فكيف سمح هذا الدين نفسه وفي فترة أكثر قرباً من نشأته أن يطور العلوم والنظم الإدارية والاقتصادية. . !

إنه ليس تخلّف الإسلام ولكن تخلف المسلمين وهنا تبدو وجهات نظر مختلفة حين يرى الأصوليون أن سبب الهزيمة هو التخلي عن أصول الإسلام الصحيح السليم وتحويله إلى الصوفية والغيبية.

أما المعتدلون فيرون أن سبب الهزيمة ليس ترك أصول الإسلام الصحيح وإنما الجمود والتعصب للمذاهب وإغلاق باب الاجتهاد. ويرى آخرون السبب في عدم اتباع المذهب العلماني وفصل الدين عن الدولة. أو في تخلف المرأة واضطهادها الذي يشل نصف المجتمع ويضعف النشء.

أما الأسباب الاقتصادية فهي تركّز - الثروة في العالم الجديد، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة، والتصحر وضعف الزراعة.

حلول فاشلة

ثم يبسط بعض الحلول التي جربت في القرن العشرين:

- الاشتراكية والقومية وما نتج عنهما من نظم فشلت في كل جوانب التحدي اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً. وهي فيما عدا قدرتها على الاستمرار والصمود، لم تستطع أن تتوصل إلى تحقيق آمال شعوبها في الحرية والتقدم.

ويبين الحلين المطروحين بقوة في أوائل القرن الحادي والعشرين وهما في اتجاهين:

١) يرجع سبب الهزيمة إلى التخلي عن التراث الإسلامي المقدس ويدعو للعودة إلى الأصول السلفية: إيران والحركات الإسلامية الأصولية.

٢) ضرورة تحديث المجتمعات الإسلامية على طريق العلمانية والديمقراطية، وهو النهج الذي اتبعته تركيا. لكنّ المحاضر يعيد صياغة السؤال قائلاً : بدلاً من أن يُطرح السؤال: من فعل هذا بنا؟ وإلقاء اللوم على جهات مختلفة كالمغول والترك والأوربيين والأمريكان والصهيونية... مما لايساعد سوى على تحويل الانتباه عن قصور الحكومات في تحقيق التطور والرخاء في مجتمعاتها، من الأجدر أن يطرح السؤال: ماهو الخطأ الذي ارتكبناه ؟ وكيف يمكننا إصلاحه؟

ويتابع قائلاً: إن ماحدث في أفغانستان يجب أن يثير الانتباه إلى مايمكن أن يتحول إلى أفول حضارة عظيمة كانت سيدة الدنيا ذات يوم هي الحضارة الإسلامية.

❖ من وجهة النظر الغربية: إن غياب الحرية هو السبب. وقد بدأ الكواكبي بإثارة هذه التساؤلات منذ قرن، وتساءل عن: حرية الفكر من القيود والغيبيات التي لا تمس. وعن حرية التعبير وحرية طرح الأسئلة وطلب الإجابة. وحرية الاقتصاد من الفساد وسوء الإدارة. وحرية المرأة من اضطهاد الرجال، وحرية المواطن من استبداد الدولة.

إن غياب الحرية هو السبب الأساسي لهزيمة العالم الإسلامي.

ولكن الطريق إلى الديموقراطية كما يعلم الغربيون هو طريق صعب طويل محفوف بالمخاطر والعقبات.

الكتاب ليس هاماً بقدر ما هو خطير

وفي آخر المحاضرة يقدم د. شيخوني بعض الملاحظات على الكتاب، يذكر في طليعتها أن المؤلف لم يشر إلى دور الصهيونية ووجود إسرائيل في تخلف المنطقة. ولم يكن محايداً في توضيح دور الغرب في إعاقة التقدم الإسلامي بشكل مباشر وغير مباشر. بل ركز على اتهام ضعف الاستجابة الإسلامية أمام قوة التحدي الغربي.

أما السؤال المطروح في آخر الكتاب فهو السؤال الخطير: هل هو حقاً اختيارنا نحن أن نتحد وأن نتجاوز الخلافات ونوجه إمكاناتنا لتطوير مجتمعاتنا؟

هل سيتركنا الغرب نفعل ذلك؟

إنه يضعنا أمام خيارين:

❖ الإسلام الأصولي الذي مصيره طالبان.

❖ الشرق أوسطية العلمانية الديموقراطية التي تشمل إسرائيل طبعاً، ويصور الغرب أن هذه هي الطريق الوحيد للنجاة.

العلم والحرية توأمان لاينفصلان

في نهاية المحاضرة جرى حوار طويل بين المحاضر والحاضرين تم التركيز فيه على تلازم العلم والحرية بوصفهما توأمان لاينفصلان، وبأن الخلاص لا يكون إلاّ من خلال الاهتمام بهما، وذلك من خلال تأكيد الأساتذة: تميم قاسمو، وبشير الكاتب، وعبدالوهاب أوبري.

وبأنه لابد من الانتباه إلى فكر المستشرقين الذي يحرص على وضع السم بالدسم، كما أشار إلى ذلك الباحث محمد قجة. وقد أضاف المهندس تميم قاسمو إلى أننا لا نهتم بالعلوم الإنسانية، وإن أصحاب المجاميع العالية يُدفعون لدراسة الطب والهندسة. أما في الغرب فإنهم يهتمون بالعلوم الإنسانية لأنها تخطط للأطباء والمهندسين. ولفهم مثل هذا المستشرق الذي يخدم مخططات الغرب في تقسيم المنطقة إلى دويلات.

عقب الحوار عاد المحاضر إلى الكلام قائلاً: أريد أن أركّز على ثلاث نقاط:

١) أهمية العلم والحرية، فلا بد من تضافر العلم والحرية في الفكر وفي السياسة على مستويي التنظير والتطبيق.

٢) التأكيد على أن برنار لويس يهودي كان يعمل في المخابرات البريطانية، وكتابه ليس هاماً بقدر ما هو خطير.

٣) إننا نلوم الجميع، كلّ له دور في سبب الخطأ الذي نعانيه، ويجب أن نردّد دائماً الآية الكريمة، إن (**الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم**). ■

لماذا سقطت أوغاريت؟

قراءة في الوثائق الأثرية

أحمد الياسين (*)

شغل الساحل السوري حيزاً هاماً في تاريخ دول المنطقة عبر مختلف العصور. فقد كان المعبر الرئيس الممتد من الأناضول شمالاً مروراً بسوريا حتى جنوب فلسطين إلى إفريقيا. مما دعا إلى نشوء عدد من المدن الصغيرة التي كانت بدورها حافزاً لحركة التجارة والنقل، كما إنها كانت صلة الوصل بين البر والبحر.

لابد من التذكير بأن الموقع الجغرافي الهام لهذه الدويلات أدى إلى تطور تجارتها الداخلية والخارجية على حد سواء، إلا أن تضارب المصالح الاقتصادية كان أيضاً سبباً في التناحر والاقتتال فيما بينها.

وكانت تجد نفسها مضطرة لإقامة عدد من التحالفات مع الدول الكبرى.

على بعد ١٠ كم تقريباً شمال مدينة اللاذقية وتحت أطلال موقع يسمى رأس الشمرة تقع مدينة أوغاريت التاريخية. ولئن لعبت المصادفة دوراً في الكشف عن هذا الموقع الحضاري، فإن علماء الآثار تأكدوا سريعاً من أن هذا الموقع يعود إلى مملكة أوغاريت، تلك المدينة التاريخية التي ذكرتها

(*) دكتوراه في تاريخ الشرق الأدنى القديم وآثاره

وثائق مصر وأرض الرافدين والحثيين مراراً[1]. وأحاط بأوغاريت سهل خصب يدر عليها الرزق من الإنتاج الزراعي، كما توفرت لديها الأخشاب من المناطق الجبلية المجاورة مما ساعدها في صناعة السفن، كذلك استخرجت الأصداف من البحر لصناعة الأصباغ الأرجوانية الهامة في ذلك العصر. كل هذه الأسباب جعلت من أوغاريت مركزاً تجارياً نشطاً وهاماً في المنطقة.

إن عدم وجود نظام سياسي واقتصادي موحد في الشمال السوري، أدى إلى تقسيمه إلى دويلات صغيرة يتبعها في بعض الأحيان ممالك أقل صغراً مجاورة لها. لكن ذلك لم يمنع أية دولة من هذه الدول من إقامة نظام تجاري متميز وعلاقات سياسية مستقلة.

يذكر الدكتور توفيق سليمان في كتابه دراسات في حضارات غرب آسيا ص355، أن أوغاريت- خلال عصر مملكة ماري كانت ترتبط بعلاقات ودية ومتينة مع الملك البابلي حمورابي، كما أنها أقامت علاقات دبلوماسية مع عدد آخر من ملوك سورية القديمة على شكل مراسلات يقوم بها عمال بريد[2]. لقد استطاعت أوغاريت عبر تاريخها الغني أن تثبت نفسها على الساحة الدولية والمعترك السياسي في حينه، وقد دلت اللقى الأثرية المكتشفة فيها على أنها سكنت منذ الألف الخامسة ق.م[3]. وتوالت عليها الأجيال وتعاقبت الحضارات إلى أن دمرت.

تدل الوثائق الأثرية على أن أوغاريت لم تكن ذات قوة كبيرة، ويرى بعض الباحثين أن عاصمتها لم تكن مزدهرة كماري وايبلا مثلاً؛ بدليل أن حمورابي الأول ملك يمحاض- حلب حالياً- نقل لزمري ليم ملك ماري، رغبة شيخ "أو كبير" أوغاريت بزيارة قصر ماري الذائع الصيت. ويدل هذا على أن مملكة أوغاريت لم تكن تملك قصوراً فخمة في ذلك العصر، إلا أنه ومنذ نهاية القرن السادس عشر ق. م، أصبحت مدينة أوغاريت المركز الحضاري الهام في المنطقة[4].

وقد لعبت أوغاريت دوراً سياسياً متميّزاً بين القوتين العظيمتين المصرية والحثية. وارتبطت بعلاقات مهمة معهما، وقد تراوحت تلك العلاقات من ناحية القوة والضعف بين مد وجزر، وذلك بحسب طبيعة مصالحها وطبيعة ظروفها الداخلية والخارجية على حدّ سواءْ.

ولمعرفة الأسباب التي جعلت القوى العظمى تسيطرعليها ولمعرفة أسباب سقوطها أخيراً، لابد لنا من معرفة علاقات أوغاريت بهذه الدول وذلك من خلال النصوص التي تحدثت عن هذا الموضوع:

١ـ العلاقات المصرية الأوغاريتية:

تدلنا لوحات تل العمارنة ووثائق بوغازكوي الحثية التي تم الكشف عنها مؤخراً، أنه في بدء الألف الثانية قبل الميلاد، بدأ يظهر ما يعرف بـ أجرت كمدينة مزدهرة وذات شأن كبير، كما تردد اسمها منقوشاً على النصب المصرية[5]. مما يدل على اهتمام الدولة المصرية بأوغاريت، وفي الواقع إنّ شيئاً من الغموض كان يلف تلك الفترة التي تمت فيها سيطرة الأسرة الحاكمة المصرية على أوغاريت. ويستدل على هذه السيطرة من خلال اللّقى الأثرية والهدايا المتبادلة بين الجانبين. كذلك من خلال الوثائق والرسائل الدبلوماسية فيما بينهما فاستقبال معبد

---

١ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١١٧
٢ - سليمان، ١٩٨٥، ص٣٥٥.
٣ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١١٨.
٤ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١١٨
٥ - وهيبة الخازن، ١٩٦١، ص٦٢.

الرب دجن Dagan، على سبيل المثال، في أوغاريت لعدد من النذور المصرية، مثل تمثال أبي الهول الخاص بأمنحات الثالث، ودمية الوزير سنوسرت عنغ مع والدته وأخته، أيضاً تمثال نصفي لملكة غير معروفة من السلالة الثانية عشرة.

كل هذه الاكتشافات تؤكد بشكل لا ريب فيه على وجود علاقة قوية لمصر بالشمال السوري.

ويرى الأستاذ وليام وورد، في دراسة بهذا الشأن، أن هذه الهدايا كانت رموزاً للصداقة المصرية مع الشيوخ المحليين، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها لا تشير بالضرورة إلى احتلال عسكري، أو إلى سيادة سياسية على الشؤون المحلية. ولم تكن المدن التي عثر فيها على هدايا مصرية جميلة مدناً خاملة الشأن، فأوغاريت - مثلاً- كانت مركزاً تجارياً كبيراً كما كانت قطنا وحلب.

وهذا ما أعطى لهذه المدن أهمية عند المصريين. إن وجود الهدايا الملكية المصرية وهدايا كبار الضباط والرسميين في أوغاريت، يدل على أن أوغاريت كانت على علاقة طيبة مع مصر في زمن المملكة المتوسطة.

ولا أجد نفسي بين معارضي الدكتور "وورد" فمن مصلحة الدول الكبرى استقطاب هذه الدويلات الصغيرة التي كانت تمثل من الناحية العملية البعد الاستراتيجي لها والامتداد الطبيعي لمصالحها على المدى الطويل نظراً لأهمية هذه الدويلات كمراكز تجارية نشطة، وليس من المستبعد أن تكون الهدايا أو التودد بالرسائل أو المصاهرة بالزواج من أقرب الطرق وأمتنها لضمان ولائها وبناء علاقات ودية على المدى البعيد.

ومن بين اللقى الأثرية التي عثر عليها ضمن هدايا معبد بعل كثير من الآثار المصرية التي كتب عليها أسماء فراعنة مصريين كـ سيسوستريس الأول وسيسوستريس الثاني وأمنحات الثالث. وكان هؤلاء قد حكموا في الفترة الواقعة بين ١٩٩٠ - ١٩٧٠ق. م. وهذا يدل على دبلوماسية واسعة اتبعها فراعنة من الأسرة المصرية الثانية عشرة، لتشكيل فريق من الحلفاء التابعين إلى مصر. وفي الموسم السابع عشر من الحفريات التي أجريت في أوغاريت عام ١٩٥٣ تم العثور على آوان عديدة يحمل بعضها رموز الفراعنة الذين حالفوا أوغاريت.

كما وجدت كتابة هيروغليفية على بطن إحدى الأواني تحمل اسم الملك نقمادو على الشكل الآتي «كبير بلاد أوغاريت» وتمثل الرسوم عليه مشهد زواج الملك نقمادو بإحدى الأميرات المصريات، مما يدل على رغبة الملك الفرعوني المصري بتعزيز العلاقات مع أوغاريت[1]. وعلى الأرجح لم تكن تلك السيدة أميرة، لأنه حتى ذلك الوقت لم تكن القاعدة التي تقضي بأن لا تتزوج الأميرات المصريات من أجانب قد نقضت بعد، ويمكن الحكم بأنها وصيفة من سيدات المجتمع الراقي المصري، وليست أميرة كما يدل غطاء الرأس الذي تلبسه[2].

ويبدو أن ملوك أوغاريت كانت لهم حظوة لدى الفراعنة، فنجد آن نقمادو لا يستقبل الهدايا فحسب بل يطلب من الفرعون أن يرسل إليه شابيْن نوبيين ليخدما في قصره، كما يسأله إرسال طبيب. ويبدو أن الظروف التي أصبحت فيها أوغاريت تحت السيطرة المصرية غير معروفة ولكنها كما يبدو كانت سليمة[3].

ولم تكن مصر وحدها قد تنبهت

---

١ - شيفر، ١٩٦٣، ص٢١٧ أستور، ص٩
٢ - شيفر، ١٩٦٣، ص٢٣٥.
٣ - أستور، ميحاتيل، مملكة أوغاريت والقوى العظمى. تر: د. شوقي شعت، ص١٧.

إلى أهمية أوغاريت جغرافياً فقد سبقها الأكاديون إلى هذا الموقع، فخلال الفترة ١٣٠٠-١٢٠٠ ق.م، حصلت هجرات أكادية من بلاد ما بين النهرين وتأسست إمبراطورية ضمت تحت صولجان سرجون الأول شمالي سورية الساحلية حتى سومر وكذلك استخدم سرجون مرفأ أوغاريت كقاعدة بحرية له[١].

٢ـ العلاقات الحثية الأوغاريتية:

تفيد الوثائق التاريخية، أنه بدءاً من الربع الثاني من القرن السادس عشر قبل الميلاد شهدت الساحة الشمالية لسوريا تحولاً سياسياً ملحوظاً، نتج عنه ظهور قوتين، ساهمتا إلى حد بعيد في تغيير مجرى السياسة العامة في أوغاريت؛ وهما القوة الحثية في الشمال والحورية في الشرق وقد قامت بينهما تناحرات عديدة من جهة، وبين القوة العظمى المصرية من جهة أخرى.

وقد حرص الحثييون والمصريون على استمالة ملوك الممالك الصغيرة المنتشرة من الشمال السوري حتى الجنوب والواقعة على الشريط الساحلي. وكان ذلك عن طريق الرسائل التي يلتزم فيها الملك الحثي بالدفاع عن هذه الممالك، عبر التزامات معنوية ومادية واسعة. وقد نال أوغاريت نصيب كبير من الاهتمام لأنها أصبحت، منذ نهاية القرن السادس عشر، مركزاً حضارياً هاماً[٢].

ففي رسالة وجهها الملك الحثي شوبيلوليوما إلى الملك نقمادو ملك أوغاريت نحو عام ١٣٦٦ ق.م يذكره بالماضي قائلاً: إن أجدادك كانوا أصدقاء وليسوا أعداء لحثي، فكن أنت الآن يا نقمادو في نفس الطريق، عدو أعدائي وصديق أصدقائي[٣].

ويستدل من هذه الرسالة على مدى أهمية مملكة أوغاريت بالنسبة إلى الفاتح الحثي الجديد. ونلاحظ أن أوغاريت بدأت تميل إلى الحثيين، وبدأت تغيرعلاقاتها مع مصر، لاسيما في عهد أمينوفيتس الثالث وفي عهد أخناتون أيضاً وذلك تبعاً لبعض المصالح أو بتأثير الضغوط التي تلقتها من الحثيين مما حدا بها إلى الانضمام إلى التحالف الحثي المعادي لمصر[٤]. لاسيما أن السيادة المصرية قد انتكست حين خضعت مصر نفسها لحكم الهكسوس، وذلك حوالي سنة ١٦٧٠ - ١٥٧٠ق.م[٥]. إلى أن سدّد تحوتمس الثالث ضرباته القوية ضدهم. وحقق النصر عام ١٤٦٨ ق.م[٦]. لا شك في آن هذا الحادث قد أدى إلى زعزعة مكانة السيادة المصرية في المحميات التابعة لها، مما دفع بعض هذه المحميات إلى التحالف مع الدول الأقوى والمتواجدة على الساحة.

ففي عصر البرونز الوسيط المعاصر للإمبراطورية المصرية الوسطى، قامت أوغاريت بما يشبه الثورة على الوصاية المصرية، فخربت التماثيل التي وجدت داخل المدينة في معبد بعل، وحلّت مكان سياسة التبعية للتحالف المصري، سياسة مستقلة، ولم يعد للنفوذ المصري أي دور كبير، إلى أن جاء الفراعنة الأقوياء في الإمبراطورية الحديثة، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر ق.م[٧].

و بعد الانتصارات التي حققها شوبيلوليوما في الحرب السورية وبعد إرساله رسالة الصداقة إلى نقمادو، قرر هذا الأخير الوقوف إلى جانب الحثيين، على الرغم مما عرف عنه

---

١ - أستور، ميخائيل.. مملكة أوغاريت والقوى العظمى، تر: د شوقي شعث، ص١٦
٢ - د. شوقي شعث، ص١٦
٣ - شيفر، ١٩٦٣، ص٢٢٣
٤ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١١٨.
٥ - شيفر، ١٩٥٣، ص١٣٥.
٦ - داوود، ١٩٨٦، ص٧٤٩
٧ - شيفر، ١٩٧٠، ص١٠٩.

من ميل كبير إلى سياسة التوازن، وعندما دخل الملك الحثي إلى آلالاخ حضر نقمادو وقدم له خضوعاً سياسياً رسمياً[١]. وهكذا بدأت أوغاريت حياتها تحت النفوذ الحثي، إذ فرض شوبيلوليوما الجزية عليها.

و تفيد الوثائق بأن حكم الحثيين كان أخف وطأة من الحكم المصري- في الشكل على الأقل- فالدول المحلية الصغيرة التي كانت تدور في فلك الحثيين كان لها وضع الحلفاء التي تربطها بهم معاهدات ثنائية، وتحتفظ باستقلالها الكامل في ظاهر الأمر[٢]. وقد تمرّس ملوك أوغاريت بالسياسة ولعبوا نوعاً من التوازن في هذه الفترة.

يقول الباحث الفرنسي كلود شيفر المختص بالأوغاريتيات:وتبين لنا أيضاً من وثائق أوغاريت أنّ سياسة التوازن المؤقت تطلّبت من خلفاء نقمادو أن يتابعوا اللعب السياسي المزدوج بمهارة، وأن يعززوا ذلك بخطط الزواج السياسي"[٣].

ولعل هذا النوع من اللعب السياسي المزدوج قد أتاح لأوغاريت فرصةً أطول للاستمرار في حياتها، فقد احتفظت بنشاط تجاري واسع دون ضغوط، إذ إنها كانت تكتفي بدفع الجزية سواء للمصريين أو للحثيين مقابل الاستقلال والحماية. كما أنها استطاعت نتيجة لهذه السياسة أن توسع حدودها تحت النفوذ الحثي، مما زاد في غلتها وسهّل عليها دفع الجزية المفروضة عليها. وتتجلى هذه الفعالية السياسية والدبلوماسية التي اتبعتها أوغاريت في زمن شوبيلوليوما وخلفائه. إذ إنه لم يكن ملوك أوغاريت يشعرون بكبير حرج من جرّاء دفع الجزية لأنهم كانوا يحصلون على حماية الدولة العظمى لهم، مع لفت الانتباه إلى أنه لم يكن هناك احتلال رسمي. وهذا ما أكده الباحث شيفر بقوله: وقد تأكد لنا بعد عشرين عاماً من التحريات في رأس الشمرة وعلى إثر سلسلة من مواسم التنقيبات في الأناضول والتي سمحت لنا بالتمرس بالآثار والوثائق التاريخية الحثية، أن أوغاريت لم تحتل عسكرياً خلال تاريخها المتحرك والصعب، ولم تفتقر سياستها على أيدي جيرانها الشماليين"[٤]. ولعل هذا ما يفسر قلة الآثار الحثية في أوغاريت، إذ إن مواسم الحفر التي أجريت في أوغاريت لم تعط أيّ أثر يستدل منه على احتلال الحثيين لها.

و هذا يدعم الرأي القائل بأن ملوك أوغاريت كانوا يقدّمون الجزية، إلا أنهم كانوا مستقلين في بلادهم.

ومن آثار الحثيين في أوغاريت، بعض الأختام التي عثر عليها في ألواح المحفوظات الجنوبية للحفريات، والتي تلقي الضوء على التقاليد الحثية في استخدام الأختام، ومقارنتها بالتقاليد المتبعة في دواوين قصر أوغاريت. فقد وجد على الألواح الحثية من عصر شوبيلوليوما في محفوظات أوغاريت، شكل ختم كبير باسم الملك وشريكه بالحكم "توانانا"[٥].

وبما أن مصالح أوغاريت كانت تسير بالشكل المطلوب، فلم يكن ضرورياً أن تظهر العداء لأي طرف. وقد استفادت أوغاريت من هذه السياسة فعلياً، فبعد معركة "قادش" التي أدت إلى التصالح المصري - الحثي أدركت أن كفة الميزان لن ترجح لطرف على حساب آخر فحافظت على الأغلب على سياسة التوازنَ بين القوتين المتعاديتين حسب مصالحها ودون أن تظهر العداء لأي منهما[٦]. إلا أن هاتين القوتين لم تستقرا طويلاً دون حروب وبقيت أوغاريت مخلصةً للحثيين حتى نهايتها المحزنة.

١ - استور، ص٢١.
٢ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١٢٤.
٣ - شيفر، ١٩٥٣، ص١٣٥.
٤ - شيفر، ١٩٥٣، ص١٣٦.
٥ - شيفر، ٥٥ - ١٩٥٤، ص١٧٠-١٦٩
٦ - الحوليات الأثرية السورية، ١٩٧٥، ص١١٤.

٢ـ السـقوط:

حوالي عام ١٢٠٠ ق. م جاءت شعوب البحر من البلقان والبحر الأسود، لتضع حدا لسوء الأوضاع الاجتماعية والفساد العام في دول المدن السورية القديمة والتناحر المستمر فيما بينها، وبعد مناوشات تمهيدية مختلفة قضى هؤلاء الغزاة على الإمبراطورية الحثية، واضطرت مصر إلى التراجع عن سوريا وفلسطين[٢]. ودمرت مملكة أوغاريت على أيديهم وغطتها الرمال مئات السنين، إلى أن تسنى لها أن تتنشق نسمة الحياة من جديد عام ١٩٢٩م على أيدي علماء الآثار.

ومما لا شك فيه أن هذه الصراعات والتناحرات المستمرة قد هيأت الظروف المناسبة والطريق السالكة للغزاة القادمين من البحر، ولم يكن هذا الصراع بين الطرفين الأقوى فحسب، بل كان بين القوى المختلفة على الساحة، فقد كان تصارعاً بين المصريين والحثيين من أجل السيطرة على مناطق النفوذ الاستراتيجية من جهة، وبين الممالك التابعة لهما من جهة ثانية. أضف إلى ذلك ما وصلت إليه البلاد من حالة متردية نتيجة الفساد الاجتماعي، انعكست سلباً على قوتها واستعداداتها العسكرية لصد أي اعتداء خارجي.

ومهما كانت حالة أوغاريت قبيل السقوط غامضة فإنه لابد من وجود أسباب أدت إلى هذا الانهيار، وتنطبق هذه الأسباب بالطبع على باقي الدويلات المنتشرة على الساحل السوري، ومنها عدم امتلاك الأوغاريتيين لقوة عسكرية ذات شأن يذكر يؤهلها للدفاع عن نفسها، واعتمادها المفرط على حماية الدول العظمى، وكذلك انصرافها وانشغالها التام بالتجارة، والاكتفاء بدفع الجزية مقابل حماية لم تستطع الدول العظمى القيام بها.

ومما لا شك فيه أن تقهقر الإمبراطورية الحثية وانفراط عقدها أمام هذا السيل العارم، قد أدى إلى سقوط هذه الدويلات دونما صعوبة، وقد تكون المفاجأة قد باغتتها تماماً فأصيبت بالذهول لهول ما حدث. ولم تستطع أن تفكر في رد هذا العدوان.

ولعل التنقيبات الأثرية التي ما زالت مستمرة في أوغاريت، تساهم في الكشف عن تلك الفترة من تاريخ المنطقة وتزيح الستار عن غموض شعوب البحر الذين أنهوا بهمجية ووحشية مرحلة زاهية من حضارة الساحل السوري.

المصادر والمراجع:

استور، ميخاتيل- مملكة أوغاريت والقوى العظمى- تر. شوقي شعت، حلب-" قيد النشر"

- الحوليات الأثرية السورية مجموعة من الباحثين- تقرير أولي لحفريات أوغاريت- رأس شمرا. عدنان الجندي، م٢٥، ١٩٧٠.

ـ داوود، احمد . - ١٩٨٦تاريخ سوريا القديم . دار المستقبل . دمشق.

ـ سليمان، توفيق . ١٩٨٥. دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة . دمشق.

ـ شيفر، كلود ١٩٥٣. حفريات رأس شمرا . أوغاريت . تر: س ع . م"، ٣

ـ شيفر، كلود . - ١٩٥٥-٥٤ نتائج الموسم الثامن عشر لحفريات رأس شمرا . أوغاريت١ . تر . جورج حداد . م". ٥-٤

ـ وهيبة الخازن، نسيب . ١٩٦١. أوغاريت . دار الطليعة . بيروت.

ـ شيمر، كلود -١٩٦٣- موسم الحفائر الرابع والعشرون في رأس شمرا- أوغاريت لعام١٩٦١. تر . بشير زهدي- م" ١٣.

ـ شيفر، كلود . ١٩٧٠ . تقرير أولي عن حفريات رأس شمرا- أوغاريت- تر: عدنان الجندي، م". -٢٠

ـ موسكاتي، سبتينو . ١٩٨٦. الحضارات السامية القديمة . تر: السيد يعقوب بكر، دار الرقي . بيروت.

٢ - موسكاتي، ١٩٨٦، ص١٢٤: الخازن، ١٩٦١، ص٦٢

صور من التأثير العلمي بين الأندلس وحلب في القرون ٦-٧-٨ للهجرة

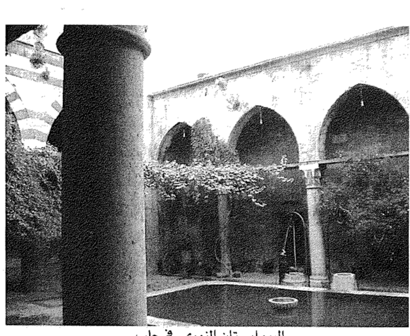
محمد قجة(*)

تمهيد:

يرتبط كل من الأندلس و الشام بروابط تاريخية عميقة تعود جذورها إلى الألف الأول ق. م حين كانت شبه جزيرة ايبيريا مستوطنة فينيقية تتبع العاصمة الفينيقية الغربية قرطاجة.

وبهزيمة قرطاجة أمام روما عام ١٤٦ ق. م أصبح حوض المتوسط منطقة نفوذ رومانية ومنه شبه الجزيرة الايبيرية. وغدا هذا النفوذ الروماني إشارة إلى سيادة شمال المتوسط على شرقه وجنوبه.

ومع الفتوحات العربية الإسلامية خلال النصف الأول من القرن السابع للميلاد بدا وكأن الأمور تعود إلى توازنها وطبيعتها، فقد تخلص شرق المتوسط وجنوبه من الهيمنة الرومانية- البيزنطية الأوربية، وأمسك بزمام المبادرة السياسية والعسكرية والثقافية. وكان فتح المسلمين لشبه جزيرة ايبيرية عام ٩٢ هـ- ٧١١م شكلاً من عملية إعادة الاعتبار لجنوب المتوسط وحضاراته العريقة التي



البيمارستان النوري في حلب

(*) باحث في الفكر والتراث.


مسجد قرطبة

استوعبتها الحضارة الإسلامية في إطارها المتزن المتسامح.

وخلال الفترة التي نتحدث عنها في هذا البحث يكون قد مضى أربعة قرون على الفتح الإسلامي للأندلس، عرف فيها الأندلس فترات متقلبة من الاستقرار والفوضى. ومن الازدهار والتراجع، ومن القوة والضعف، ولكن وهج الحضارة بقي خلال ذلك كله يبسط ضياءه على البشرية من منائر قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها.

ومع بدايات القرن الهجري السادس/الثاني عشر الميلادي كانت الإمارات الصليبية قد أرست قواعدها في المشرق: الرها- انطاكية- بيت المقدس- طرابلس. بينما كانت هذه الحروب على أشدها في الجناح الغربي للعالم الإسلامي، بدءاً من سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ-١٠٨٥م بيد الأسبان. ولم تتوقف بعدها تلك الحروب بين كرّ وفرّ ومدّ وجزر: معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ- ١٠٨٦ م المظفرة. ومعركة الأرك ٥٩١ هـ- ١١٩٣م المظفرة أيضاً. ثم معركة العقاب ٦٠٩هـ- ١٢١٢م التي تحطم فيها جيش الموحدين، وكانت أثقل هزيمة للمسلمين في العصور الوسطى. وتساقطت بعدها الحواضر الأندلسية الكبرى: ماردة- ميورقة- قرطبة- شاطبة -بلنسية -مرسية- اشبيلية- طلبيرة ...وانحصر المسلمون في الزاوية الجنوبية الشرقية في مملكة غرناطة الصغيرة.

إن التركيب الجغرافي للأندلس وكذلك طبيعته السكانية- يرتبط بأوجه شبه كثيرة مع بلاد الشام في أقصى شرق المتوسط. وقد أضيف إلى ذلك العامل النفسي الإنساني، وهو إحساس السكان بارتباطهم الروحي ببلاد الشام لأن الفتح جاء منها، وخلال عقود قليلة كانت العربية قد أصبحت لغة جميع السكان مسلمين وغير مسلمين ودخلت أعداد كبرى من سكان البلاد في الإسلام. وأصبح المجتمع الأندلسي يتألف من: عرب وبربر ومولدين ومستعربين.

وبعد الفتح الإسلامي بدأت هجرة القبائل العربية، وهجرة قبائل البربر المسلمة تتدفق عبر الأندلس.

ولكن ومنذ وقت مبكر بدأت هجرة معاكسة من الأندلس صوب شرق المتوسط وجنوبه بفعل عوامل الاضطرابات والفتن والصراعات، ومن أبرزها هجرة أهل الربض أيام الحكم بن هشام١٨٠-٢٠٦هـ "١".

وبصورة عامة يمكننا تلخيص عوامل الهجرة من الأندلس على مر العصور بما يلي:

١ - عامل فردي يتعلق بأداء فريضة الحج أو السعي لطلب العلم في حواضره المشرقية: مصر - دمشق- بغداد- حلب- أصفهان- بخارى... الخ.

٢ - عامل اقتصادي بحثاً عن تحسين موارد الرزق أو العمل في ميدان التجارة.

٣ - عامل سياسي، وهذا ما نلاحظه في الهجرات الجماعية التي كانت نوعاً من التهجير القسري بعد سقوط المدن العربية بيد الأسبان مثل طليطلة وماردة وقرطبة وإشبيلية. . وغيرها.

وبعد سقوط غرناطة ٨٩٨هـ- ١٤٩٢م اتخذ التهجير شكل الطرد الجماعي بموجب قرارات حكومية منظمة. واستمر ذلك حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي.

وخلال الفترة التي نتحدث عنها في بحثنا في القرون الثلاثة: السادس والسابع والثامن للهجرة فإن الحروب الصليبية في شقيها المشرقي والمغربي كانت على أشدها. وكان المسلمون النازحون من الأندلس بعد سقوط مدنهم- وبخاصة بعد معركة العقاب- يجدون الترحاب والمتسع في جنوب المتوسط وشرقه. ونجد مدناً كثيرة تستقطب الأندلسيين وتتأثر بعمارتهم وحضارتهم وأسلوب حياتهم، من أمثال: فاس- الرباط- تطوان- تلمسان- تونس- الإسكندرية- القدس- دمشق - حلب.

وتركزت هجرات الأندلسيين إلى بلاد الشام على هذه المدن الثلاث لأسباب شتى:

آ-فالقدس تتمتع بمكانة دينية روحية سامية تجعلها قبلة النازحين، ولا يزال فيها إلى اليوم حي المغاربة.

ب-ودمشق ترتبط بالأندلس برباط نفسي وثيق لأن جيوش الفتح خرجت منها وطبعت الأندلس بطابعها.

ج-وحلب كانت مركزاً تجارياً عالمياً على طريق الحرير والتوابل والعطور وشتى السلع التجارية.

ومنذ الفترة الزنكية فالأيوبية فالمملوكية تتصدر مدينة حلب النشاط التجاري والاقتصادي في المنطقة وتصبح مقصد الباحثين عن الرزق والعمل الميسور.

❖ ❖ ❖

بدأ الظهور الأندلسي الجماعي في المشرق جلياً خلال العهد الزنكي. وكانت موانئ الشرق التي تستقبل الأندلسيين هي: عكا- عسقلان- صور- اللاذقية. وبلغ من اهتمام نور الدين بالأندلسيين أن شكل منهم فيلقاً مغربياً يقاتل مع جيشه ضد العدوان الصليبي. وكان يعاملهم معاملة خاصة متميزة ويعفيهم من كثير من الالتزامات والضرائب. "٢"

وأمام هذا التدفق البشري الأندلسي كان لا بد أن تظهر السمات والخصائص الفردية لبعض هؤلاء النازحين أو الوافدين أو القادمين بسبب الحج أو طلب العلم...فكان فيهم الفقيه والمحدث والشاعر والأديب والفيلسوف والطبيب والنباتي والفلكي والمهندس والفني وكان لا بد لهؤلاء أن يتركوا بصماتهم في الحياة الفكرية والإدارية والتعليمية والعامة، في سائر البلاد التي حلّوا فيها وأصبحوا جزءاً من نسيجها السكاني، بل أصبحوا الجزء الهام والأبرز في هذا النسيج كما هو

الحال في فاس "٣". أو جزئياً في الاسكندرية التي قصدتها هجرة أهل الريض"٤". ولا يزال جامع "مرسي أبو العباس" معلماً بارزاً في هذه المدينة. والأمر نفسه نجده في تونس وتلمسان والرباط وغيرها من المدن. حيث كان الأثر الأندلسي حاسماً في العمارة والثقافة والفن والحياة اليومية.

❖ ❖ ❖

ونعود إلى مدينة حلب لنرى قوافل الأندلسيين تتدفق إليها وفيهم العلماء والأطباء والشعراء والأدباء والرحالة والمحدثون والمقرئون والفقهاء والمتصوفة والمؤرخون والجغرافيون. ويستمر هذا التدفق- وبخاصة في العهدين الزنكي والأيوبي- ونرى ملامحه في الحركة العلمية والثقافية في هذه المدينة العريقة التي تشير التنقيبات الأثرية إلى أن الحياة عُرفت فيها منذ الألف التاسع ق. م.

وتبسيطاً للبحث وحرصاً على منهجيته: نكتفي بثلاثة مجالات نوجز من خلالها الأثر الأندلسي في الحركة العلمية في مدينة حلب خلال القرون الثلاثة المذكورة.

أولاً: في مجال العلوم التطبيقية:

وسوف يتركز حديثنا على أبرز التأثيرات التي كانت للأندلسيين. ونعني بها علم الطب وعلم النبات.

فمن المعروف أن فريقاً طبياً أندلسياً كبيراً كان يرافق نور الدين الزنكي. ومن بعده صلاح الدين الأيوبي ثم أبناء صلاح الدين من بعده.

ومن هؤلاء الأطباء: عمر بن علي البذوخ القلعي المتوفى ٥٧٦هـ "٥" وعبد المنعم الجلياني"٦" وابن سمعون "٧" وأبو الحجاج يوسف"٨" وابن البيطار"٩".

وهؤلاء كانوا يمضون في ركاب السلطان الأيوبي في حروبه وسلمه. ومن أبرز الذين عرفتهم مدينة حلب منهم:

آ-أبو الحجاج يوسف الاسرائيلي. وأصله من مدينة فاس. واعتبرناه أندلسياً لأن أكثر سكانها من أصول أندلسية، ولأن المؤرخين العرب لم يكونوا يفرقون بين الأندلس والمغرب.

وفي بداية حياته هاجر إلى مصر حيث التقى بموسى بن ميمون المفكر والطبيب الأندلسي القرطبي وتلميذ ابن رشد.

ومن مصر انتقل إلى حلب فأصبح أحد أطباء بلاط الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي ملك حلب في تلك الفترة. وعمل في حلب في تدريس الطب والتأليف. ومن مؤلفاته :ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة. "١٠"

ب-ابن سمعون: وأصله من مدينة سبتة، واسمه يوسف بن يحيى السبتي. وهو كسابقه، جاء إلى مصر فمكث فيها ثم انتقل إلى حلب في عهد ملكها الظاهر الأيوبي.

ومن حلب اتجه ابن سمعون شرقاً حيث عمل في ميدان التجارة فأثرى بعد جولة في العراق والهند. وعاد بعد ذلك إلى حلب حيث قام بتنفيذ مشروع كبير طموح هو بناء معهد طبي في مدينة حلب. وقد اشترى أرضاً وشيد عليها البناء وبدأ يستقبل الطلاب الراغبين في دراسة الطب. وهو في كل ذلك طبيب السلطان الظاهر ومن بعده ابنه محمد العزيز وبقية الأسرة الأيوبية في حلب. وهكذا كان ابن سمعون رجلاً أكاديمياً اجتمع له الطب ممارسة وتدريساً فكان من أكفأ أبناء زمانه في هذا الميدان، إضافة إلى إحاطته بأطراف من العلوم الأخرى كالفلك والرياضيات. وقد توفي في مدينة حلب ودفن فيها سنة ٦٢٣هـ "١١".

ج-ابن الرومية: أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموي الاشبيلي النباتي المعروف بابن الرومية. كان عارفاً بالعشب والنبات. صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة في الحشائش، ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم، ورحل إلى البلاد ، ودخل حلب، وسمع الحديث بالأندلس وبغيرها.. وقال بعضهم: اجتمعت به وتفاوضت معه في ذكر الحشائش فقلت له: قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب. وذكروا أنه يستعمل منه شيء كثير، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً ، وأما الآن فلا يوجد ، ولا يخبر عنه مخبر. فقال: هو موجود وإنما لا يعلمون أين يطلبونه. فقلت له: وأين هو؟ فقال: بالأهواز منه شيء كثير. وكان يعرف بالنباتي لمعرفته بالنبات. وله كتب في الحديث. وكان ظاهري المذهب من تلاميذ ابن حزم الأندلسي.

وبعد جولة طويلة في المشرق عاد إلى اشبيلية حيث توفي فيها سنة ٦٣٧هـ وكانت ولادته ٥٦٧هـ. ومن كتبه:تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ومقالة في تركيب الأدوية "١٢".

ثانياً: في مجال العلوم النظرية:

وهذا الباب واسع جداً لا يسمح به المقام هنا. ولذا سوف نتوقف عند ابرز علماء اللغة والنحو والكلام ممن تركوا بصمات ظاهرة من تراثهم الأندلسي خلال إقامتهم في مدينة حلب. ويأتي في طليعة هؤلاء:

آ-علي بن محمد أبو الحسن بن خروف النحوي الاشبيلي نزيل حلب. وهو غير ابن خروف القرطبي الشاعر نزيل حلب كذلك. وقد عاش أبو الحسن بن خروف أعزب وسكن الخانات واختل عقله آخر حياته. توفي عام ٦٠٩هـ خلال الحكم الأيوبي لمدينة حلب. وقد الفشرح سيبويه وشرح الجمل "١٣".

ب-أبو بكر جمال الدين الوائلي، محمد بن أحمد بن سُجمان الشريشي المالكي. ولد في شريش بالأندلس ٦٠١هـ. ودرس في الإسكندرية ودمشق قبل ان ينزل حلب ويتتلمذ في النحو على ابن يعيش الحلبي. وللوائليكتاب الاشتقاق و شرح ألفية ابن معطي وكان لغوياً نحوياً فقيهاً مفسراً"١٤".

ج-ابن مالك النحوي، محمد بن عبد الله. ولد في مدينة جيّان في الأندلس ٦٠٠هـ وكنيته جمال الدين ونسبه طائي، كان مالكياً في الأندلس، وغدا شافعياً في المشرق. عاصر في حلب ابن يعيش وابن عمرون وجالسهما وقرأ معهما النحو واللغة. وهو من أشهر النحويين العرب. عاش أكثر حياته في حلب، وجزءاً منها في حماه. وكانت وفاته في دمشق ٦٧٢هـ.

كان إماماً في القراءات واللغة والنحو. وتصدر في حلب لإقراء العربية ودرّس في المدرسة العادلية، وأمّ في المدرسة السلطانية. وكان عالماً موسوعياً وحافظاً للشعر وأيام العرب.

له اكثر من عشرين مؤلفاً من أبرزها:

-الخلاصة الألفية :المعروفة بألفية ابن مالك.

-الكافية الشافية.

-الموصل في نظم المفصل.

-سبك المنظوم وفك المختوم.

-إعراب مشكل البخاري.

وقد شرحت ألفيته وعورضت غير مرة. "١٥"

د- ابن جابر أبو عبد الله محمد بن جابر الضرير من المرية في الأندلس، كان شاعراً ونحوياً. استوطن حلب مع زميله أبي جعفر. شرح ألفية ابن مالك، وله عدة كتب في النحو والمدائح النبوية والبلاغة توفي ٧٥٠ هـ"١٦".

هـ- أبو عبد الله المارني القيسي الغرناطي. نزيل حلب. من كتبه :كفاية المتحفظ و تحفة الألباب.

وهؤلاء ليسوا سوى أمثلة لعدد كبير من العلماء الذين قصدوا حلب فأقاموا فيها وتركوا من آثارهم العلمية الشيء الكثير، ومن هؤلاء محمد بن حسن الفاسي، وابن الزقّاق الاشبيلي، وأبو الوليد الشاطبي تلميذ ابن العديم، وكمال الدين الغرناطي. وقد مارسوا النحو واللغة والأدب دراسة وتدريساً في حلب.

ثالثاً :في مجال الفلسفة والتصوف:

كان المسرح الفكري خلال القرن السادس الهجري مزدحماً بالتيارات المختلفة التي نضجت خلال القرون السابقة.

ففي المشرق كانت أفكار الفارابي والكندي وابن سينا والحلاج وابن والفارض قد تلاقحت مع أفكار ابن مسرة وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن سبعين وابن عربي في المغرب. فغدت لدينا ثروة فكرية من الفلسفة بشقيها: المشائي العملي متمثلة بابن رشد الأندلسي، والأفلاطوني المتصوف متمثلة بابن عربي الأندلسي كذلك.

وانسجاماً مع خط بحثنا نكتفي بتسليط بعض الضوء على جانب التصوف

الفلسفي الوافد من الأندلس، وما تركه من اثر في المشرق، وفي التصوف الإسلامي على مدى العصور.

وقد كانت لدينا في حلب أسماء مثل أبي الحسن شعيب توفي ٥٩٦هـ الذي جاء إلى حلب أيام نور الدين فعينه مدرساً في مدرسة أصبحت تحمل اسمه المدرسة الشعيبية وهي أول جامع بناه المسلمون في حلب عام ١٦هـ فور فتحهم المدينة صلحاً على يد أبي عبيدة بن الجراح ودخولهم إياها من باب انطاكية. وبناء الجامع على مقربة من هذا الباب.

ومن أمثال محمد بن حسان المغربي المتوفي ٥٨٧. وأبي زكريا المغربي في الفترة نفسها.

ونحن نعلم أن مدينة حلب كانت قد شهدت مجيء السهروردي المتصوف المشهور، وما جرى من خلافات بينه وبين فقهاء المدينة المتشددين أدت إلى الحكم عليه بالموت من قبل السلطان الأيوبي الظاهر غازي ابن صلاح الدين.

وكأن السلطان كان غير مقتنع كثيراً بهذا الحكم. ولذا فإنه عند مجيء الشيخ محي الدين ابن عربي إلى حلب بعد اقل من عقدين من مصرع السهروردي، لقي إكراماً كبيراً لدى الظاهر غازي ولم يصغ إلى أقوال الفقهاء المتشددين. وكأنه أراد أن يعوض عما فعل بالسهروردي.

ومكث الشيخ ابن عربي في حلب قرابة خمسة عشر عاماً. ثم غادرها إلى دمشق وأقام فيها بقية حياته حتى توفي ٦٣٨هـ ودفن في دمشق وكانت ولادته في مرسية ٥٦٠هـ. والحديث عن ابن عربي طويل ومتشعب. ونكتفي بالحديث عنه خلال وجوده في حلب، والخطوط الكبرى لفكره الفلسفي الصوفي وأثره الممتد حتى يومنا هذا.

كتب الشيخ في حلب شرحاً لديوانهترجمان الأشواق وأراد بهذا الشرح أن يزيل الالتباس العالق ببعض الأذهان حول تفسير قصائد الديوان. وهو يقول: وكان سبب شرحي لهذه الأبيات أن الولد بدر الحبشي والولد إسماعيل بن سودكين سألاني في ذلك، وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكرون هذا من الأسرار الربانية والتنزيلات الإلهية. فشرعت في شرح ذلك "وقرأت بعضه على القاضي ابن العديم بحضرة جماعة من الفقهاء" "١٧".

كما كتب في حلب التجليات والحكمة الإلهية وغير ذلك مما لا مجال لإحصائه.

وقد أحصى د. عثمان يحيى ٩٩٤ كتاباً ورسالة، ويوجد منها ٢١ كتاباً مخطوطاً في حلب.

ولا شك أن الفتوحات المكية، وفصوص الحكم أشهر كتبه وأكثرها تعبيراً عن فكره وآرائه.

يقوم الفكر الصوفي عند ابن عربي على قواعد بارزة يمكن تلخيصها فيما يلي:"١٨"

-القول بوحدة الوجود.

-الشك الصوفي والحيرة.

-الزهد الصوفي.

-العلاقة بين الحق والخلق.
-الذات الإلهية.
-الله والإنسان.

وهو يرى أن العلوم على ثلاثة منازل: منزلة علم العقل ومنزلة علم الأحوال، ومنزلة علم الأسرار. والأخيرة أشرف العلوم وهي فوق طور العقل لأنها محيطة بكل المعلومات وتخص الأنبياء والأولياء.

ويرى ابن عربي أن كتاباته تصدر عن النور الإلهي، وأن لا شيء يشفي من الحيرة إلا طريق المتصوفة في مجاهدة النفس، فالعقل الفلسفي يقود إلى الشك، والطريق المؤدي إلى الإيمان وراحة النفس هو الاتصال المباشر بالله واستمداد المعرفة عنه. وهذه المعرفة هي الاتحاد بالخالق.

وتتوزع مؤلفاته في التصوف والتفسير والحديث والإلهيات وعلم الكلام وعلم الأخلاق والفقه والتاريخ والشعر.

ولاشك أن محيي الدين بن عربي كان موسوعة عصره في شتى معارفه وهو ظاهرة إعجازية في فكره ومؤلفاته وحياته. وقد ترك بصماته على كل الباحثين في الفلسفة الإشراقية. وفي سائر الطرق الصوفية "١٩":

كل ما أذكره من طلل	أو ربوع أو مقام، كلما
وكذا إن قلت: هو أو قلت: هي	أو همو، أو هنّ جمعاً أو هما
وكذا إن قلت قد أنجد بي	قدر في شعرنا أوأتهما
أو بدور أو خدور أفلت	أو شموس أو نبات أو سما
أو نساء أو جوار خرد	طالعات كشموس أو دمى
صفة قدسية علوية	أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلما

لقد كانت فترة إقامة الشيخ محي الدين بن عربي في حلب ذات تأثير كبير في المدارس الصوفية التي جاءت بعده والتي تبنى أكثرها طريقته في التفكير والأداء الصوفي المتمثل بالأذكار والزوايا. ولا تزال الزاوية الهلالية في حلب تعمل وفق الطريقة القادرية التي هي فرع من الطريقة الأكبرية المنسوبة إلى الشيخ الأكبر.

إن موقع حلب المتوسط في العالم الإسلامي قد جعل منها نقطة الوصل بين أطرافه المختلفة، فيها تصبُّ التأثيرات ومنها تنطلق. وكما ظهر في هذه الدراسة الموجزة التأثير العلمي المتبادل

بين الأندلس وحلب، فإنه بالإمكان ان تكتب دراسات عديدة عن تبادل التأثير بين حلب وسائر أنحاء العالم الإسلامي، وقد يكون ذلك موضوعاً لأبحاث قادمة.

هوامش

١ -ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٤/٢
٢ -ابن جبير، الرحلة ، ص ٢٨٠
٣ -ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٨
٤ -عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية، ص١٣٤
٥ -ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١٥٥/٢
٦ -ابن سعيد، الغصون اليانعة، ١٠٤
٧ -القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ٢٥٧-٢٥٨
٨ -ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٢١٣/٢
٩ - المصدر نفسه
١٠ - المصدر نفسه
١١ -القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ٢٥٧ وما بعدها
١٢ -المقري، نفح الطيب، ٥٩٧/٢
- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٥٣٢
- بالنيثا، تاريخ الفكر الأندلسي، ٢٣٨
١٣ -السيوطي، بغية الوعاة، ٣٤٦وما بعدها
١٤ -المقري، نفح الطيب، ٢١٧/٢
١٥ - المصدر نفسه
١٦ - المصدر نفسه
١٧ -ابن عربي، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق ص١١
١٨ -محمد قجة، تقديم ديوان ابن عربي، ص٤
١٩ -ابن عربي، ذخائر الأعلاق، ص١٧٧-١٧٨■

يضيق فضاء الصورة.....
وتتسع حلب!

احسان شيط[*]

حين كان أبو صالح يعمل في ورشة بناء مجاور لمنزلي ، وهو حجار كان من عادتي أن أزوره أحيانا. قلت له مداعباً:

- هل تقبلني تلميذاً في ورشتك أتعلم منك الصنعة؟

يومها، أجاب أبو صالح وهو يثبت طرفي الخيط القطني على ضلعي الحجر:

- يلزمك العمر كله!

وأشار إلى حجر كان قد فرغ من نحته. حجر تشكل من تقاطع أربعة عقود، له ستة عشر سطح ارتكاز شكلت معجزة فراغية يصعب تصورها.. وأكمل:

لن تستطيع نحت مثل هذا الحجر إذا لم يعطك الله شيئا من عنده..

ليس لحلب عمارة صرحية كما الأهرامات لمصر والأكربولوس لليونان، بل لها أبنية صممت على مقاييس البشر، وبتعبير أدق، على مقاييس أهلها، توفق بين حاجاتهم وهاجس جمالي هم أنفسهم لا يعرفون مصدره، وبلا إفراط أو تفريط. هذه العمارة التي أخذت الهواجس والحاجات باعتبارها ونفذت ما أخذته بهذا الاعتبار بشيء من عند الله وأشياء من عند العبد، دفعني إعجازها البسيط وغير المعلن، إلى حمل الكاميرا لأثبت على ورق التصوير ربما حسباناً ليوم آت تضيع فيه خطوط الأشياء وتهن الذاكرة.

في أول الأمر، كنت أختلس وقت التصوير من وقت العيادة، ليتطور الأمر إلى ما لم أكن أتوقعه، فصارت العيادة تختلس وقتها من وقت التصوير لأن الصورة تحتاج إلى ما هو أكثر من التحضير التقني تحتاج إلى موقف واضح مما تصوره، تحبه أو تكرهه، وهو ما يحتاج إلى المعرفة، لا معرفة الأرقام والتواريخ ونتائج المعارك وشكل خوذة سيف الدولة وقماش عباءة المتنبي فقط، بل أيضا الاهتداء إلى الخيط الممتد ما بين قلعة حلب ومقهى العطار الذي يقابلها بين خيول الحمدانيين ودواب المقالع المحملة بحجر بعادين إلى حلب، بلا رسن أو لجام بين مضافة الفرافرة التي بنتها الأميرة ضيفة خاتون لعابري سبيل حلب وبين ضياعهم هذه الأيام، في زحام باب الفرج وذراع التجارة الطويل الذي طال

(*) طبيب وباحث، نائب رئيس جمعية العاديات (سابقاً)، توفي عام ٢٠٠٢.

أرصفة العابرين وصولاً إلى الحدائق، ملاذ الغريب ومكان التقاط أنفاسه وتنقل نظراته المرتبكة بين أشجارها ومصاطبها المتداعية وحلقات الأطفال التي غالبا ما يكون قوامها أربعة أو خمسة أطفال أربعة أو خمسة صناديق بويه آحذية، وسيجارة واحدة.

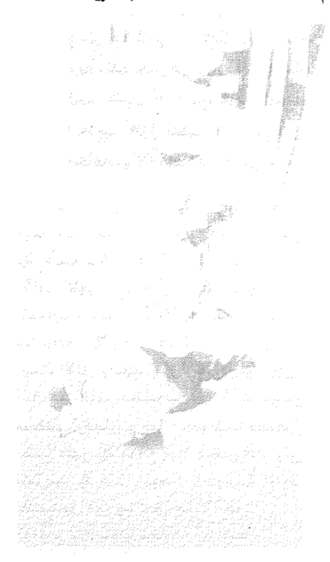
مثلما دجلة لبغداد والنيل لمصر الحجر الكلسي لحلب، فهو سجلها غير القابل للمحو أو التحريف،فيه بصمات رجالها العظام وغير العظام وحافظ إبداع معمارييها الذي قاوم الريح والمطر والمخططين المستوردين وبلدوزرات ذوي القربى لتبقى هذه المدينة هي الأغنى في العالم العربي بالآثار الزنكية والأيوبية والمملوكية والعثمانية.

مئذنة الجامع الأموي مثلاً، قامت في عام ١٠٩٠م، أي في نفس القرن الذي اجتاحت فيه حلب الكوارث واستبيحت فيها المدينة مرتين وحوصرت اثنتين وعشرين مرة. في تلك الفترة ارتفعت المئذنة والصليبيون يعيثون فساداً خارج الأسوار والمدينة تدفع ضريبة الجهاد دماً أحمر صبغ حجر الأزقة حتى أن سهلاً شمال حلب يعرف حتى اليوم باسم السهل القاني ليستمر النزيف قرنين من الزمن.

هذه المئذنة.. لا أدري لماذا أحس وأنا أقف أمامها بأنها لم تقم من الأرض بل هبطت من السماء!

خمسة وعشرون عاما وأنا أصور حلب، حاولت أن أظهر في صوري البعد المقدس في شخصية المدينة،هذا البعد الذي جعل ملوكاً مثل رعمسيس الثاني وشلمناصر الثالث يحجون إلى المدينة للصلاة فيها، ويختارها صلاح الدين الأيوبي مكاناً لصلاة شكره بعد أن حرر بيت المقدس. حاولت أن أظهر في صوري روح خير الدين الأسدي التي ترفرف في كل مكان من هذه المدينة التي كتب حولها الأسدي موسوعة عمل فيها أكثر من خمسين عاماً، بيد واحدة وروح أعمق من أن يدركها من لم يعرف قيمة الرجل حتى بعد موته، حاولت أن أستحضر بركة منبج أيام كان يخرجون أسماكها الذهبية ليلبسوها أقراطاً من الفيروز ثم يعيدوها إلى الماء متأملين.. حاولت ولكني مع كل يوم أمضيه يضيق فضاء الصورة وتتسع حلب!■

حلب"خريف ١٩٩٤



التجمّع المديني الأوّل في حلب وعلاقاته الخارجية

محمود حريتاني*

"١"

" الألف الثالث قبل الميلاد "

لم تجر أية أبحاث علمية أنتروبولوجية، في مدينة حلب، لمعرفة وجود بقايا الإنسان القديم، قبل ملايين أو مئات الألوف من السنين، وإن تكن مثل هذه الأبحاث قد جرت بالقرب من حلب، في وادي نهر عفرين، حيث تم الكشف عن توطن إنسان نياندرتال قبل مئة ألف عام في مغارة الدودرية.

لقد ظهرت التجمعات المدينية الأولى، في حضارات الشرق القديم، حول المعبد "١" الذي كان مركزاً دينياً، كما كان مركز الحياة العامة، والاقتصادية بشكل خاص.

وفي حلب وعلى مرتفع عالٍ، شكل فيما بعد قلعة حلب تبين أن معبداً قد بني في الألف الثالث قبل الميلاد، واستمر حتى الألف الأول مع بعض التبدلات في بنيته المعمارية، وتقوم بعثة أثرية سورية ألمانية مشتركة الآن بالكشف عنه، ويعتقد علماء الآثار ومنهم البروفسور باولو ماتييه أنه قد يظهر بالقرب من المعبد تجمع سكني وقصر وربما محفوظات كتابية كما ظهر في موقع إبلا المعروف، ولن نتعرض في هذا البحث لدراسة المعبد بالتفصيل فهو يستحق مقالاً آخر.

لقد أصبح من الواضح أن المعبد المكتشف، كرّس لإله الطقس والعاصفة والرعد، المعروف باسم حدا ثم حدو، ولا بد هذا الاسم جاء في الكتابات العمورية، وقد بقي يعرف بهذا الاسم حتى الفترة الآرامية إذ عُرف باسم حدد. أما في الفترة الميتانية، فقد أخذ اسم تيشوب ثم تاهونا، وبعد العصر الحثي لم يكن حدد وحده إله العاصفة، فقد عرفت سبعة أرباب بهذا الاسم، ولكن فيما يتعلق بأهم مدن العصر القديم، فقد ساد اسم حدد الحلبي.

لقد اختير معبد الإله، وبشكل استثنائي

(*) مدير آثار ومتاحف المنطقة الشمالية الأسبق.

على هضبة طبيعية عالية، تشرف على سهل مجاور، ويمكن منها رؤية عدة مواقع من بعيد، فيها معابد آلهة أيضاً، مثال ذلك معبد إله العاصفة على جبل الشيخ بركات المشرف على بلدة دار تعزة ومن هذا المكان يمكن رؤية جبال طوروس البعيدة عنه، وربما السهول القريبة من نهر الفرات.

وهكذا يعتقد الباحثون الأخصائيون، أن مدينة حلب الأقدم قامت حول المعبد.

أما علاقات هذا التجمع المديني الأول الخارجية فقد تم الاتفاق على أن موقع حلب كان يتوسط مدناً كثيرة وكان سكانها يأتون إلى حلب لتقديم الأضاحي والاعتناء بترميم المعبد، مثال ذلك تبين لدى قراءة محفوظات مدينة إبلا الملكية أن ملك إبلا أو ولي عهده، كانا يقدمان الأضاحي للإله حدّا على دفعتين في كل عام وفي معبده بحلب يقدم صولجان مزخرف بالفضة يصل وزنه إلى ١٢٠ غراما و كانت قبضته من الذهب وتزن ٥٠ غراما.

كما كان يقدم إلى المعبد زوجان من قرون الثور مكسوان بورقة من الفضة. وقد كان تقديم هذه الطقوس يجري في الشهر الثالث، والشهر الثامن باستمرار من السنة، وهذا يعني الاحتفال في الربيع بقوة الإله الذي يحيي الطبيعة بأمطاره، بينما في الخريف، يبتهل إلى الإله لجلب المطر الذي سينهي فصل الجفاف.

يصحب تقديم الصولجان تضحية عشرات من الخراف بحضور ملك إبلا أو ابنه الأكبر أي الأمير ولي العهد كما نوهنا سابقاً، وإن إهداء الصولجان لا يعني إن الإله إله حرب فقط، بل إن النصوص الدينية تعطى الإله حدّا وزوجته حالا بوجتو "أي الحلبية"، السيطرة على العوارض الطبيعية والانتصار على أعدائه عن طريق الأفاعي. وقد عرفت مثل هذه الطقوس في إبلا في الفترة بين ٢٤٠٠و ٢٣٥٠ ق. م. وبعد ألف عام عرفت في أوغاريت، وتحدثت عنها النصوص الدينية في هذه المدينة الساحلية، فقد جاء في الرقم المسمارية إن الإله بعل وهو يماثل الإله حدد ينتصر على الإله يمّو أي اليم = البحر الممثل بأفعوان البحر.

بعد سقوط إبلا، جاء الآموريون وجعلوا الإله حدّا أحد أهم آلهتهم، وهكذا أصبح الإله حدّا الإله الحامي لملوك يمحاض و ماري، في الألف الثاني قبل الميلاد. وهنا لا بد أن ننوه بالعلاقات الوثيقة بين حلب وماري آنذاك، وقد ورد ذكر مدينة حلب في محفوظات القصر الملكي، كما ورد في نفس الوقت في محفوظات القصر الملكي في اوغاريت.

إن الحفريات الأثرية التي تجري في قلعة حلب قد أثبتت هذا التجمع المديني وصلاته الخارجية، ولو جرت حفريات مماثلة في تلة السودة بالقرب من باب المقام لربما ظهر تجمع مديني آخر في نفس الفترة أي في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد يكون أقدم من ذلك فقد جمعتُ كسراً فخارية من فوق سطح التل الأثري، أي تلة السودة حين بنيت فوق هذا المرتفع مدرسة ابتدائية قبل أكثر من عشرين سنة، وقد رفضت حينئذ الموافقة على البناء عندما كنت مفتشاً لآثار ومتاحف



المنطقة الشمالية لأن الموقع هو تل اصطناعي وليس طبيعياً.

وقد جمعت من حفريات أساس البناء جرناً صغيراً من البازلت وكسراً فخارية تثبت استيطاناً بشرياً لم يكشف النقاب عنه وقد أثبتت الأيام مقولتي هذه، إذ سرعان ما تشققت جدران المدرسة وأصبح ارتيادها خطراً ماثلاً، فهدمت وأعيدت أرضا فارغة، واليوم تعمل مديرية إحياء حلب القديمة على تشجيرها، ولربما جاء يوم وقامت بعثة أثرية بالكشف عنها وإثبات قدمها التاريخي.

"٢"

"الألف الثاني قبل الميلاد"

في الألف الثاني قبل الميلاد وجد تجمع مديني آخر لا نعرف إلا القليل عنه، فقد ذكرت وثائق مدينة ماري المزدهرة في الألفين الثاني والثالث قبل الميلاد مملكة يمحاض في الشمال وعاصمتها حلب.

ونصت إحدى الوثائق على أن ملك ماري أرسل تمثال الربة عشتار إلى ملك حلب لينصبه داخل معبد الإله حدد في كلاسو وكلاسو هو حي الكلاسة الحالي. وكما تحدثنا عن تلة السودة فالأمر نفسه هنا إذ قام حي الكلاسة الحالي فوق منطقة أثرية لا يمكن التنقيب فيها. وأذكر خلال عملي في مديرية الآثار بحلب أني كنت أرى طبقات متعددة خلال حفريات أساسات الأبنية العالية في الحي المذكور، ولم تكن المعرفة الأثرية آنئذ قد تطورت كما هي اليوم، وقد نقلت بعض القطع الفخارية والزجاجية وأودعتها متحف حلب الوطني.

وثيقة أخرى هامة عن التجمع المديني بحلب لا تزال قائمة إلى اليوم مبنية في الجدار الجنوبي لجامع القيقان بالقرب من باب أنطاكية الأثري، وهي حجر بازلتي نقش عليه اسم الملك الحثي تالمي شاروما عام ١٢٠٠ ق. م.

ومن المعروف أن إمبراطوريتي ذلك الوقت الحثية والآشورية كانتا تسعيان إلى السيطرة على مدينة حلب منذ أواخر القرن الخامس عشر ق. م، إذا استولى الحثيون على حلب بصعوبة فقد غزاها ودمرها الامبراطور الحثي مورسيل الأول ونقل قسماً من أهلها إلى خطي بوغازكوي حاليا قرب أنقرة في تركية عاصمة الحثيين.

كما حكمها الميتانيون بين عامي ١٦٥٠ ق. م و ١٤٧٣ ق. م، ثم جاءها المصريون، وعاد الحثيون إلى حكم حلب في عهد شوبيلليوما، ووضع ابنه تلبينو حاكماً عليها، ثم حكمها تالمي شاروما بن تلبينو حتى عام ١٢٠٠ ق. م حين انهارت الامبراطورية الحثية تحت ضربات شعوب البحر. بعد الحثيين جاء الآشوريون في فترة الألف الأول قبل الميلاد، كما سنتحدث بعد قليل.

لقد ترجم حجر العقبة، من قبل المختصين بالكتابات القديمة، أمثال: بوسّار وم. لاروش وهـ. كلينغل، وجاءت الترجمات مختلفة بعض الشيء إلا أنها تفيد المعنى نفسه. إن ترجمة لاروش تقول: هذا معبد هيباشاروما، تالمي شاروما ملك حلب بن تلبينو الكاهن قد بنى أما ترجمة كلينغل فتقول: بنى هذا المعبد للإله هيباشاروما، تالمي شاروما ملك حلب بن تلبينو الكاهن الكبير.

وكما ذكرنا في حديثنا عن تلة السودة والكلاسة، فإن الأمر نفسه في حي العقبة، إذ لا بد يوماً من أن تجرى فيه حفريات لتكشف عن معبد كما كشف عن معبد قلعة حلب. وأعتقد أن حلب نشأت في مرتفع العقبة، لوجودها على مرتفع يقيها شر فيضان نهر قويق – السابق – ويمكّن من الدفاع عنها.

مصادر البحث:

١ - قلعة حلب وجوارها، بلوا دوروترو بالفرنسية، منشورات ألتردي ١٩٣٠.
٢ - معبد قلعة حلب، كاي كولماير بالالمانية، منشورات ريما ٢٠٠٠.
٣ - من الذكريات، محمود حريتاني، مخطوطة لم تنشر.
٤ - حلب في التاريخ، وحيد خياطة، لم تنشر■



صخر علبي (*)

تمهيد

يتضمن حوض حلب المدينة ذاتها إضافة إلى ما يحيط بها من مناطق تعود في جذورها إلى الحضارات المبكرة التي قامت في الشرق القديم. ونتيجة لموقع حلب على شبكة طرق تجارية إقليمية وعالمية وعلى أطراف محيط زراعي خصيب فقد تم استيطانها منذ الألف الخامسة قبل الميلاد ، وبفضل ذلك أيضا تسنى لها أن تستمر حية أكثر من المدن التي تفوقت عليها لقرون عديدة مثل قنسرين إلى الجنوب منها وأكثر من التي تبعتها لفترات طويلة مثل انطاكية إلى الغرب منها.

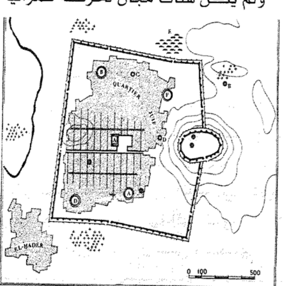
تقع حلب المدينة على ضفاف نهر تم استغلال حوضه على نحو مكثف فيما مضى كحدائق وحقول زراعية، ثم تحول منذ انقطاع موارده قبل عقود إلى مجرد قناة تصريف للمياه المالحة تمت تغطية بعضها ولا تزال تروي بمياهها هذه ما تبقى من حقول زراعية في جنوب المدينة تقوم على الزراعات العمرانية وتغطي بعض احتياجات المدينة، وعلى أطراف المدينة امتدت حتى عقود خلت حقول الفستق والتين والزيتون، لم يبق منها إلى اليوم إلا ما ندر فقد أتى العمران على معظمها.

(*) عميد كلية الهندسة المعمارية بجامعة حلب.

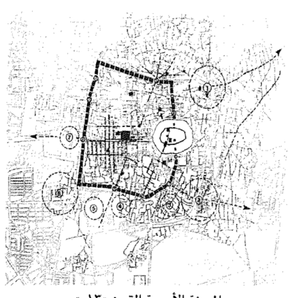
١ - التطور التاريخي والعمراني والبيئي :

لقد تمركز الاستيطان الأول للمدينة في غربها داخل الأسوار، وفي ظل حكم السلوقيين القرن الثالث ق. م تم توسيع حلب بإنشاء مدينة هلنستية إلى الشرق من ذلك. وفي عام ٥٤٠ م دمرت حلب على يد الساسانيين ثم أعيد بناؤها. وعندما جاء الحكم الإسلامي "٦٣٦ م" لم يجلب معه للمدينة أية تغييرات حاسمة كتلك التي جلبها إلى دمشق عاصمة الخلافة، وبعد انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد " ٧٥٠ م " تحولت حلب إلى مدينة حدودية تتنافس عليها القوى السائدة إلى أن احتلها البيزنطيون ثانية وقاموا بتدميرها، ثم تعرضت بعد ذلك إلى غزوات أخرى خلفت مزيداً من الدمار وقد عاد الطابع الشرقي للمدينة من جرّاء الخطر الجاثم حيث ازداد الارتباط العشائري بين السكان وانغلقت المحلات السكنية نحو الداخل.

ولم يكن هناك مجال لحركة عمرانية جديدة إلا في فترات سلام طويلة ترافقت مع ازدهار اقتصادي تبلورت أولاها في ظل السلاجقة الذين قدّموا المدينة هدية إلى الزنكيين "١١٢٩م" الذين توطد الأمن في ظلهم وازدهر الاقتصاد وتشكلت بنية المدينة ومرافقها واعتمدت تقنيات وأنماط بناء جديدة وجدت ذروتها في ظل الأيوبيين "١١٨٣ م" الذين ابتدأت معهم فترة ازدهار أخرى وتشكلت مدينة مسورة انتصبت قلعتها في شرقي محيطها واحتلت الأسواق فيها مساحة شاسعة وانتشرت الضواحي خارج أسوارها. واستمر ذلك إلى أن تم تدمير المدينة على يد هولاكو "١٢٦٠ م" الذي لم يتمكن من إيقافه سوى المماليك، ولكن على الرغم من ذلك ومن وباء الطاعون "١٣٤٨ م" ومن غارات تيمورلنك المدمرة "١٤٠٠ م" فقد انخرطت المدينة يوماً بعد يوم في شبكة التجارة العالمية وشهدت في منتصف القرن الخامس عشر انتعاشاً اقتصادياً هائلاً.



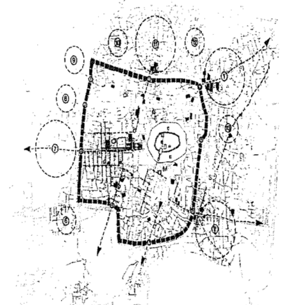
المدينة البيزنطية «١ق.م»



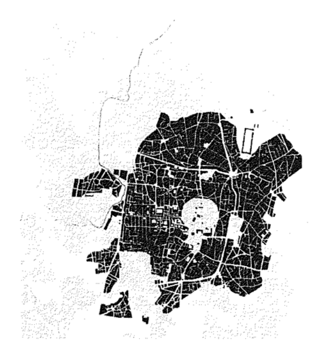
المدينة الأيوبية القرن «١٣م»

ومع إنشاء السور الخارجي على طول خندق الروم تم ضم الضواحي الشرقية إلى المدينة المسورة، بيد أن الضواحي استمرت بالامتداد نحو الشرق وإن كان التوسع الأكبر للمدينة في هذه الفترة قد تركز في الجهة الشمالية ومع تشكل الامبراطورية العثمانية "١٤٥٣م" لم ينحسر الازدهار الاقتصادي لحلب التي توضعت بشكل مركزي في المنظومة الاقتصادية العثمانية، وبدأت المدينة تشهد تحولاً وظيفياً في الداخل ظهر في الملكيات الوقفية الكبيرة إلا أنه لم يغير من ملامح المدينة إلا فيما ندر، وبقي الانتشار الأفقي محدوداً. ولكن مع انتقال الحرف إلى الأطراف الذي ترافق مع توسيع الأسواق الممتدة عند الأبواب فقد أنيط بالضواحي خدمات لكامل المدينة وتداعت الأسوار، ثم انكفأ التطور الاقتصادي لحلب من جراء الأزمات السياسية داخل الامبراطورية العثمانية "١٧٩٠ - ١٨٤٠م" ونتيجة زلزال عام ١٨٢٢ م، وطاعون عام ١٨٣٧ م إلى أن أصبحت العلاقات التجارية مع أوروبا تتم من جديد عبر حلب، عن طريق ميناء اسكندرون الذي برزت أهميته بعد فتح قناة السويس "١٨٦١ م" فازدهر الاقتصاد وفاق النشاط العمراني ما بين عامي "١٨٥٠ - ١٩٢٠ م" ما تم إبان العصر الذهبي في القرن السادس عشر.

وفي تلك الفترة ابتدأت شريحة من علية القوم بنقل مساكنها إلى ضفاف قويق "العزيزية" لتبدأ بذلك عملية إضفاء طابع غربي على المدينة، بدأ معها الشعور بالانتماء إلى الجماعة بالتلاشي واتخذت الحياة العامة من المدينة القديمة لاحقاً مركزاً لها وارتبطت عبر محور باب الفرج بالمناطق السكنية الحديثة و تحول شارع الخندق أيضاً إلى عنصر اتصال وازدادت سرعة التحول، بيد



المدينة المملوكية «١٥م»



المدينة في عام ١٨٨٠م.

أن التحول الجذري لا يمكن تلمسه بوضوح إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وخلال ذلك لم تنشأ في حلب مدينة حديثة إطلاقاً، وإنما تطورت المدينة الجديدة التي كانت قائمة على اتصال بالمدينة القديمة. وقد استمر العمران الجديد بالتوسع أيام الانتداب وفق مخططات دانجيه وايكوشار، وتبلورت معه عملية إضفاء الطابع الغربي وازدادت حدة التغيرات والاحتياجات الاجتماعية وبدأ مركز المدينة بالانتقال رويداً رويداً إلى شمال غرب الأسوار، في غضون ذلك بقيت بنية المدينة القديمة العمرانية والاجتماعية سليمة حتى نهاية فترة الانتداب الفرنسي.

بعد ذلك طرأت على المدينة تحولات كبيرة بلغت ذروتها في الثمانينات وتمخضت في فترة قصيرة نسبياً عن تبدل في معالم المدينة وتغير في تركيبتها، وقد طالت هذه التحولات عدة مناح في وقت واحد فقد



المدينة في عام ١٩٣٠م.



المدينة في عام ١٩٨٠م.

استمرت المدينة بالتوسع يوما بعد يوم وشهدت ثورة عمرانية أسفرت عن اتساع رقعة المدينة آضعافاً مضاعفة "فحتى عام ١٩٤٠ لم تكن رقعة المدينة تزيد عن ٥٠٠ هكتار - تشكل مساحة المدينة القديمة ٤٢٠ هكتاراً منها، في حين تغلف اليوم الحدود الإدارية للمخطط التنظيمي مساحة ١٦٠٠٠ هكتار تشغل المناطق السكنية منها حوالي ٤٨٠٠ هكتار أي حوالي ٣٨٪ فقط" وقد ترسخ مع هذا التوسع ما كان قد تبلور سابقاً من إضفاء للطابع الغربي على المدينة وترافق معه فتح شوارع عريضة في النسيج العمراني التقليدي وإزالة مناطق كاملة جاءت نتيجة تطبيق اقتراحات أ.غوتون و ج. بانشويا لتحديث المدينة وأسفرت عن تخريب البنية العمرانية وهتك التركيبة الاجتماعية للمدينة القديمة



موقف سيارات بجانب الجامع الأموي الكبير بحلب - صورة مأخوذة عام ١٩٩٨

وفقدان ٢٥٪ من مكوناتها.

وتبدل سكان حلب كمعالم مدينتهم وتغيرت احتياجاتهم بسرعة نسبية أيضاً ولم تعد المدينة القديمة تلبي متطلباتهم فعمدوا إلى الهجرة إلى خارجها، الأمر الذي تمخض عن سلسلة مشاكل يصعب التنبؤ بنتائجها.

إلى جانب هذه الهجرة من داخل المدينة القديمة تفاقمت حدة الهجرة من الريف إلى المدينة وأسفرت عن تصحر المناطق الريفية المجاورة وعن نشوء تجمعات للسكن المخالف على أطراف المدينة، امتدت خلال العقود الأخيرة لتحتل مساحة ٤٠٠٠ هكتار، ٣٢٠٠ هكتار منها داخل حدود المخطط التنظيمي، وتضم حوالي ٥٠٠ ألف نسمة «٣٠٪ من عدد السكان» يعيشون في ظروف سكنية سيئة ويفتقرون إلى أدنى حد من الخدمات.

وكان لهذه التحولات آثار سلبية على بيئة المدينة فقد زحف العمران إلى البساتين المغلفة للمدينة وتحول النهر إلى قناة تصريف للمياه المالحة بعد أن انقطعت موارده وتحولت المدينة القديمة إلى بؤرة مشاكل تتفاقم باستمرار وتصعد من مشاكل البيئة بعد أن كانت مضرب مثل في التكيف مع البيئة، ليس بفضل الشروط الصحية المثلى التي تؤمنها للسكان وحسب وإنما أيضاً بفضل التوازن الحراري وتلطيف الجو المحيط وتأمين حد الراحة الفيزيولوجية والنفسية، الذي يفرضه النسيج المتراص والانغلاق نحو الداخل والتكيف الطبيعي.

أما العمران الحديث الذي يشكل معظم رقعة المدينة اليوم ويعتمد الأبنية المنفصلة والانفتاح نحو الخارج والتكيف الاصطناعي أساساً فإنه لا يؤمن الشروط الصحية والراحة النفسية إلا نادراً ولا يجسد إطلاقاً أي تأقلم مع الظروف المناخية بل تتسبب عملية إفراز الأراضي التي تسبقه والأنظمة العمرانية التي تحكمه في تسخين الجو المحيط وازدياد الجفاف وعدم تحقيق التوازن البيئي المأمول.

٢ - التراث الحضاري لمدينة حلب :

تعاقبت الحضارات المختلفة على حلب كما بينا، وتركت في المدينة بصماتها المختلفة، إلا أنه توالت عليها أيضاً غزوات عديدة خلفت وراءها دماراً، الأمر الذي يفسر عدم بقاء أية أدلة تعود إلى فترات معينة. ولكن على الرغم من التدمير الذي كانت تتعرض له المدينة وعلى الرغم من الكوارث التي كانت تلم بها ومن المتغيرات التي كانت تفقدها أهميتها إلى حين، كانت حلب على مقدرة دوماً بفضل مقوماتها لأن تنهض بعد وقت قصير لتنتعش من جديد وليزدهر اقتصادها ثانية ولتشهد نشاطاً عمرانياً محموماً مرة أخرى.

وإذا كانت العصور القديمة تعتبر فترة تأسيس لحلب فإن الحكم الإسلامي قد أعطى المدينة هويتها، فقد بدأت معه عملية إعادة إضفاء للطابع الشرقي على المدينة ثم تعاقبت العصور الإسلامية لتترك لنا شواهد مادية تحمل بصماتها المختلفة، ثم تكلل ذلك كله بالأوقاف العثمانية الكبيرة التي تتركز جنوب محور سوق المدينة، والتي لا تزال

تعطي صورة مدينة شرقية إسلامية تقليدية يستطيع المرء أيضاً أن يتلمسها في أسوار المدينة وأبوابها وفي قلعتها وفي أسواقها وفي جامعها الكبير. ومع أن أسوار المدينة وأبوابها تلقى عناية متواضعة من حين لآخر إلا أنها تتداعى مع الزمن لسوء استخدامها أو لإهمالها ، وأما أسواق المدينة فهي إن كانت لا تزال تعج حيوية ونشاطاً إلا أنها تشهد منذ فترة تحولات يصعب على الزائر العابر تلمسها ويصعب على الباحث المقيم التنبؤ بما سوف يتمخض عنها ،وإلى جانب الجامع الكبير الذي خضع إلى عدة تعديلات، كان آخرها في القسم الشمالي أواسط الخمسينات ، والذي نال عناية خاصة بترميمه وتدعيمه في مشروع متميز. لا يزال يوجد في حلب عدد كبير من الجوامع والأبنية الدينية الأخرى وعدد كبير أيضاً من المنشآت الخدمية المختلفة يفوق عددها " ٧٠٠ " مبنى أثري تعود لفترات مختلفة وتتباين عن بعضها في حالتها الإنشائية وفي استخدامها وفي مشاكلها، وبما أنه لا يمكن تعداد كل هذه الأوابد فمن المفيد ذكر أهمها تبعاً للعصور التي أنشئت فيها:

العهد الزنكي: حمام السلطان، البيمارستان النوري.

العهد الأيوبي: جامع الدباغة، المدرسة الظاهرية، خانقاه الفرافرة، المدرسة الشاذبختية.

العهد المملوكي: جامع الأطروش، المدرسة القرناصية، زاوية النسيمي، حمام اللبابيدية، البيمارستان الكاملي، خان الصابون، مصبغة الزنابيلي، قبو النجارين.

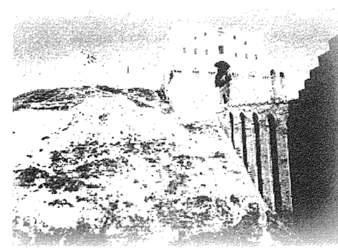
العهد العثماني: جامع العادلية، المدرسة الخسروية، الزاوية الهلالية، التكية المولوية، حمام الأمله جي، قسطل الزيتون، خان العلبية، خان الوزير، بيت رجب باشا، بيت قطار أغاسي، حمام النحاسين.

وهذه المباني بمجملها لا تحتاج إلى ترميم فقط وإنما إلى أكثر من ذلك بكثير فلا توجد أية استراتيجيات للارتقاء بها والحفاظ عليها. وتشترك معها في هذه الحاجة المنطقة السكنية التي تغلفها والتي تشكل معها نسيجاً عمرانياً متناسقاً يكون ما يعرف اليوم بالمدينة القديمة التي تتوزع على حوالي "١٠٠" محلة سكنية ضمت أوائل هذا القرن حوالي "١٠" آلاف بيت سكني عاش فيها حوالي "١٠٠" ألف نسمة، و تشكل تراثاً حضارياً رائعاً ينبغي الحفاظ عليه. وحتى يتسنى ذلك لا بد من التعرف على المشاكل التي تفرزها المتغيرات وتفرضها عوامل تتضافر لتدفع الناس إلى الهجرة من المدينة القديمة وبالتالي إلى تداعيها.■

سفوح قلعة حلب وخندقها بين الحقيقة والتصورات

محمد مروان حمزة(*)

أليس من الروعة أن يأخذ تل قلعة حلب هذا الشكل البيضوي المنتظم؟
أليس من الروعة أيضاً أن يتحدب التل في كل نقاطه وأن تغطي أجزاء منه سطوح مستمرة من الحجارة؟
وما أبهى هذا السطح الحجري يزيد القلعة هيبة ومنعة ؟ وَلِمَ لا نراه يغطي كامل سطحها بل لِمَ لا نعيده إلى سابق عهده إن كان قد عبث به الدهر والعابثون؟
وما أجمل أن ينساب الماء في خندقها المحيط متعة للناظرين ومجلى للذكريات.
تُرى أكل ما سبق وهم شاعر وخيال حالم، أم هو حقيقة غائبة وواقع ملموس؟
هذا ما يتناوله هذا البحث الهندسي الأثري ضمن محاور ثلاثة تشمل: الشكل الهندسي، الخندق والمياه، السطح الحجري المرصوف. وقد تمت معالجة هذه المواضيع من خلال بحث منهجي وتحريات حقلية وتحليل هندسي وتوثيق أثري.

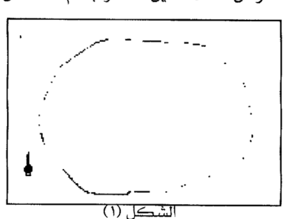


(*) أستاذ في كلية الهندسة المدنية بحلب

الشكل الهندسي لتل القلعة

إن هذا الشكل الذي يأخذ الناظر بانتظامه وانسيابيته، وكأنه رسم فنان وتنفيذ مهندس حريف ما هو - على امتداده الكبير، طولاً وعرضاً وارتفاعاً - إلا تل طبيعي، حبته الطبيعة هذا الشكل الهندسي المتميز. ولأن الطبيعة تستهجن المسطرة والمدور، فقد تركت بصماتها التي لا يخطئها المدققون. ويكفي أن نلقي نظرة على مخطط مسطح القلعة كما تم تحديده من الصور الجوية ومن القياس الشكل ١ لنرى أن هذا الشكل الذي يبدو للوهلة الأولى منتظماً بمقياس الدقة الهندسية. هو شكل منتظم فعلاً، ولكن بمقياس الطبيعة، فهو قريب من البيضوي سواءً في المجسم الفراغي للمنحدرات أو في المسقط المستوي للقلعة وسورها العلوي. وهذا يشكل بحد ذاته دليلاً على أن تل القلعة طبيعي وليس اصطناعياً، إذن لأمكن رسمه بدقة هندسية متناهية، ولتم تنفيذه وفقاً لذلك.

ولعل اختلاف ميل منحدر جسم القلعة من



الشكل (١)

موقع لآخر حول محيطها وبقيم تتراوح بين ٣٣ درجة إلى ٤٤ درجة مع الأفق يشكل بصمة أخرى من بصمات الطبيعة التي شكلته.

ولدى الكشف عن بنية جسم تل القلعة المحدب دوماً تبين أن التوضع الحواري هو التوضع الأم الذي يشكل النواة إن لم نقل كامل الجسد، فمعظم أساسات السور العلوي تستند إليه، ومعظم السبور التي نفذت في الخندق بلغته، ومعظم الحفر الاستكشافية في المنحدر أكدت وجوده، إما قريباً من السطح ظاهراً للعيان، أو بعيداً تحت سماكة من الردميات الترابية، الغضارية والحوارية.

وقد تجاوزت سماكة الردميات على المنحدرات خمسة أمتار أحياناً مما يعني أن هذه الردميات تغطي التقعرات الموجودة في سطح التوضع الحواري الأم، وتستكمل بذلك تحدبه الظاهر في كل نقطة، مما يسمح برصف الحجارة على السطح ويساهم في إضفاء هذه الانسيابية الهندسية الجميلة على كامل امتداد هذه السطوح.

الخندق والمياه:

كم وقف المتأملون على الرصيف المحيط بالقلعة يرقبون خندقها الرحب وقد تداخلت فيه آكوام التراب وبقايا الحجارة ومعالم ملاعب هواة الكرة، وكم تخيل الكثيرون هذا الخندق مترعاً بالماء العذب رقراقاً يتحدر على مدارجه وسفوحه لترفأ القوارب الصغيرة منسابة على متنه بنعومة وجمال وتنعكس على صفحته أنوار المساء وينسج النسيم الهادىء على سطحه أمواجاً متلاحقة، ويسمر عشاق الجمال على ضفافه، ليتجسد بالماء والمنحدر والأسوار سحر القلعة وهيبتها ومناعتها. ليت هذا الخيال يغدو واقعاً، لكن الواقع تقيده وتحكمه أرقام وحقائق، إذ دلت القياسات أن وضع الخندق لا يسمح بأن يتجمع فيه

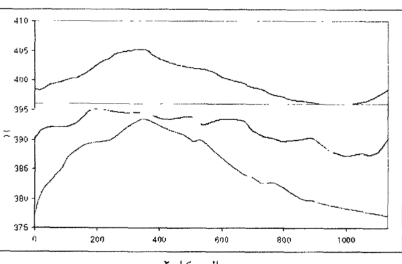
الماء- على الأقل بالشكل الذي تخيلناه- إلا ضمن ترتيبات معينة. فموقع القلعة ليس أفقياً وإنما يميل من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية وبما ينسجم مع ميل تلٍ مرتفع ينحدر إلى مجرى نهرٍ غير بعيد. وينسحب هذا الميل على الحدود الخارجية للخندق كما ينسحب على قاعه، ويترسخ هذا الميل من خلال القياسات الحقلية في القاع، فمنسوب قاع الخندق شرقاً يعلو منسوب قاعه غرباً بمقدار ٧.٨٤م.

كما أن منسوب الرصيف الغربي للشارع المحيط يعلو منسوب قاع الخندق شرقاً بمقدار لا يتجاوز ٨٤ سم. وهذا يعني أنه إذا تم ملء الخندق بالماء وهو بوضعه الحالي فإن الماء سيبلغ حافة الخندق العلوية غرباً بينما لن يتجاوز ارتفاعه متراً واحداً في الجهة الشرقية (الشكل ٢). وتبقى هذه المشكلة قائمة حتى لو تمت إزالة الردميات من الجهة الشرقية لقاع الخندق. فقد بينت التحريات الحقلية أن سماكة هذه الردميات لا تزيد عن متر تحت القاع الشرقي الحالي حيث تظهر طبقة الحوار الصخرية المستمرة. على حين تزيد سماكة هذه الردميات الترابية على عشرة أمتار في الجهة الغربية من الخندق مما يعمق المشكلة أكثر.

إن ما سبق يستدعي إعادة النظر بإمكانية ملء الخندق بالماء وبظروف ملئه، سواءً في الماضي أم في المستقبل. ثم أليس من الصعوبة بمكان أن نقبل فكرة وجود خندق بدون ماء ! وهل تم التحقيق بمصدر الماء الذي يمكن أن يصل إلى الخندق؟ وبطريقة ملئه وصرفه؟ وما هو دور فوهات الأنفاق "التي لم يكتشف امتدادها بعد" الواقعة في حائط الخندق الجنوبي بين المدخل والبرج المتقدم الجنوبي؟ أسئلة تحتاج إلى مزيد من التحريات والتحليل ضمن رؤية شمولية وقبل إجراء أي تدخل.

السطح الحجري المرصوف :

لعل أكثر ما يشد المراقب للقلعة وهو يتأملها من خارجها تلك المنعة في مدخلها وأبراجها وذلك السطح الحجري الذي يغطي أجزاء من منحدرها. فعند طرف المدخل يرتفع السطح المرصوف ليقترب من حدود الأسوار العلوية للقلعة، ثم ما يفتأ ينحدر ويتناقص ارتفاعه كلما ابتعدنا شرقاً وغرباً. هذا التناقص التدريجي في ارتفاع السطح الحجري الذي يكسو منحدر القلعة يأخذ شكلاً هندسياً منتظماً في الطرف الممتد غرباً بينما لا يظهر هذا التدرج الهندسي على الطرف الممتد شرقاً لأن يد الزمن، وغيرها، قد امتدت إليه. ويختفي هذا السطح بعد ذلك بدءاً من يمين البرج المتقدم الجنوبي المقابل لدار الحكومة



الشكل ٢

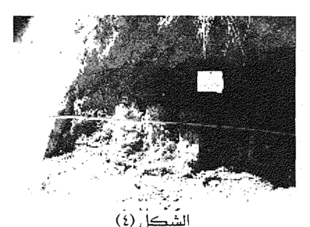


الشكل (٣)

فالطرف الشرقي والشمالي كله وجزء من الطرف الغربي لمنحدر القلعة إلى أن يظهر ثانية مقابل المشفى الوطني قبل الوصول إلى مدخل القلعة. على أن أجزاء محدودة من مداميك حجرية تنتمي لهذا السفح تظهر قريباً من قاع الخندق في قسمه الشرقي فتلفت الأنظار وتترك مجالاً لافتراضات، لها ما يبررها، بأن منحدر القلعة كان كله مرصوفاً بالحجر. ولعل عظمة بناء القلعة وجمال القسم المرصوف منها بالحجارة لا يجعل هذا الافتراض مستحيلاً أو مستبعداً. وكان لا بد من تحري ذلك قبل التفكير بترميم المنحدر الذي شوهته الأخاديد، وقبل اتخاذ قرار باستكمال رصف المنحدر الذي يرى فيه بعضهم عملاً مستحسناً. ولتحقيق ذلك تم القيام بتحريات حقلية مدروسة تراعي الهدف والطبيعة الأثرية، وتحقق الشمولية والدقة، فتم إجراء ما يقارب مئة حفرة وزعت لتغطي أهدافاً متعددة وفي مقدمتها معرفة بنية هذا الرصف الحجري وبيان ما إذا كان في الماضي يغطي فعلاً سطح منحدر القلعة بكامله أم أجزاء منه فحسب.

لقد بينت التحريات أن بقايا الرصف الحجري ما تزال موجودة كحزام يحيط بالجزء السفلي فقط من منحدر القلعة، إلا أنه مغطىً بكليته تقريباً بسماكات من الردميات. وقد تم كشف أجزاء منه على كامل محيط القلعة "باستثناء منطقة في الجهة الشمالية الغربية حالت ظروف صعبة دون التحقق من وجوده فيها (الشكل ٣).

وتمتد مداميك الحجر في هذا الحزام متحلقة حول أسفل التل ومتحدرة باتجاه الأسفل في صفوف متعددة تتزايد من بضعة صفوف إلى ما يزيد على عشرين صفاً يتوقف عددها على المنسوب الذي يتواجد فيه الحوار الذي تستند إليه هذه المداميك.



الشكل (٤)

أما عند الحواف العلوية للبلاط سواءً منه المكون للحزام السفلي أو المتوضع على المنحدر حول المدخل فقد بينت التحريات وجود مستوٍ أفقي يحد هذه الحواف ويتكون من صفوفٍ متتالية من الحجر المبني بشكل فني منتظم ولأعماق تمتد ضمن جسم منحدر التل متجاوزة الثلاثة أمتار، وتعلو هذا المستوي الأفقي طبقات من الردميات لا تحوي أي أثر لبقايا حجارة مشابهة يمكن أن يستدل منها على احتمال كون السطح الحجري مستمراً للأعلى.

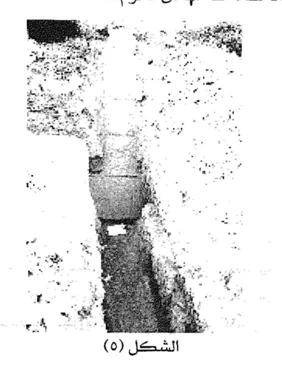
وقد تكرر ظهور هذا الوضع في كل المواقع التي تم كشفها على حدود تواجد البلاط. مما يؤكد أن حواف البلاط العلوية هي حدود نهائية للسطوح الحجرية. وينفي احتمال كون منحدر التل قد بُلِّط بكامله في وقتٍ من الأوقات، (الشكل ٤).

كما بينت الحفر والشرائح التي نفذت عند أسفل المنحدر وامتدت أحياناً تحت قاع الخندق استمرار البلاط المرصوف صوب الأسفل لأعماق مختلفة دون أن يمتد البلاط أفقياً على أرضية الخندق. وقد تبين ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في الشريحة رقم ٣٠٤ حيث انتهى صف الحجارة المائل الأخير في حفرة ضمن التوضع الحواري المستمر، ومن الطبيعي أنه لا يمكن استمرار البلاط أفقياً ضمن الحوار أو تحت سطحه، (الشكل ٥).

على أنه لا بأس من الإشارة إلى احتمال كون أرضية الخندق مرصوفة أفقياً بالحجارة في الجزء المجاور للمدخل فقط وتحديداً في جهته الشرقية وعلى عمق كبير يقارب ١٣ م. لكن طبيعة التحريات لم تسمح بالتأكد من وجوده بشكل قطعي.

وأخيراً فإن التحريات الحقلية السابقة والحقائق الناجمة عنها لم تبقيا خياراً لتبني التخيلات التي رفت وتزاحمت حول ماضي هذا الصرح الأثري السامق، كما قطع المنهج العلمي في البحث الطريق على أي تصور وإن كان خيالاً شاعرياً حلواً.

لقد توصل المهتمون بالآثار إلى أن احترام الأثر وعدم التدخل به – إلا بهدف حمايته – هو الأصل في التعامل معه، وتمشياً مع النهج الحضاري في احترام القوانين الناظمة للآثار، سنوطن أنفسنا على أن الحقيقة هي الأجمل، لأنها الأصل، ولنطلق بعد ذلك خيالاتنا لتحوم ضمن إطار الحقيقة ما شاء الله لها أن تحوم■



الشكل (٥)

الزخرفة

لمياء الجاسر*

ببلاطات القيشاني في مدينة حلب

القيشاني (wall – tiles) - **لمحة عامة:**

هو أفخر أنواع الخزف الصيني الملون. ترجع بداية صناعته في مصر إلى عصر قديم جدا. كما انتشرت صناعته في بداية الألف الأول ق. م في بلاد مابين الرافدين لتزين به قصور آشور وبابل[١]. وقد استعملت مثل هذه اللوحات أيضاً في بلاد فارس بقصر الملك دارا في السوس[٢] حوالي (٥٠٠) ق. م وكانت غاية في الإبداع والجمال. وقد ظل هذا الفن في مصر والشرق الأدنى يتدهور حتى الفتح العربي وحينئذ بدأ يزدهر تحت لواء الإسلام[٣].

إن أرقى أنواع بلاطات الخزف يعود نسبها إلى مدينة قاشان الإيرانية[٤] التي اشتهرت بصناعتها التي تتميز بدقة الرسوم الزخرفية عليها وتعدد ألوانها ومنها أخذت هذه البلاطات تسميتها بالقاشاني (القيشاني)[٥].

انتشرت صناعة القيشاني في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي إلا أنها بدأت في إيران في العهد السلجوقي وبلغت غاية الإتقان في العهد التيموري. ثم تطورت في تركيا في ظل الحكم العثماني نتيجة لإنشاء هذه الصناعة في ازنك على يد السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠م) ثم في استنبول وقد استعمل في زخرفتها السنبل والخزامى والقرنفل والورد وعرانيس الكرم والرمان وزينت بها جدران أهم الجوامع والقصور هناك. كما استعمل القيشاني لزخرفة المحاريب والجدران الداخلية والخارجية للمباني والمآذن والقباب ومواقد المنازل[٦].

القيشاني في سورية:

ظهرت صناعة القيشاني في الرقة منذ القرن الحادي عشر الميلادي في العهد السلجوقي وكانت ذات طلاء مختلف الألوان استعمل فيها خاصة اللون الأخضر الفيروزي الشفاف المصحوب برسم أسود.

ازدهرت صناعة القيشاني في آسية الوسطى وسورية في بداية القرن السادس عشر وترعرعت بعد ذلك حتى وصلت إلى درجة

(*) مهندسة معمارية

١ - مريود، آمال في الحياة التشكيلية العدد ٦٥ - ٦٦ ص١٧٢

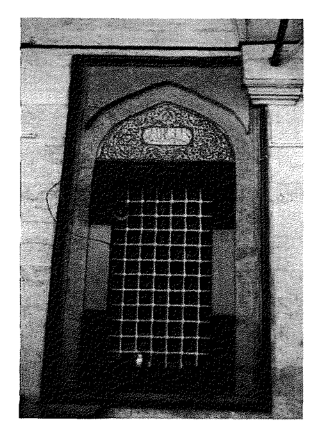
٢ - سوزا من إقليم خوزستان بإيران. ظلت زمناً طويلاً مقر ملوك فارس.

٣ - بريجيز كريستي أرنولد، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة ص٢٨.

٤ - على مسير ثلاثة أيام من أصفهان.

٥ - الأسدي، خير الدين، الموسوعة، م٦، ص٢٩٦.

٦ - أرنست كونل، الفن الإسلامي ص١٧١؛ وكحالة عمر، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية ص٢٣١.

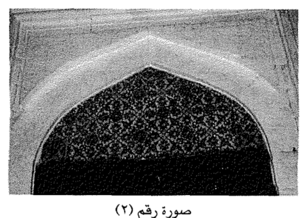


صورة رقم (١)

كبيرة من الروعة والإبداع.

والقيشاني خزف مغطى بقشرة رقيقة بيضاء عليها طلاء أبيض شفاف براق تحته رسوم حدودها سوداء أما ألوانها فإما خضراء براقة أو زرقاء أو حمراء قاتمة وكثيراً ما يضاف إلى هذه الألوان لون آخر أحمر براق يشبه لون البندورة. . . .

والقيشاني على شكل بلاطات مربعة على الأغلب قد تكون مستطيلة أو سداسية



صورة رقم (٢)

أومثلثية. . . تنقش على كل بلاطة منها موضوعات زخرفية متكررة، أو أجزاء متقطعة يكون مجموعها موضوعاً زخرفياً كبيراً متناسقاً.

يعود ازدهار صناعة القيشاني في سوريا إلى العهد المملوكي ثم العثماني ومن المعتقد أن القاشاني القديم الذي تزدان به البيوت والحمامات السورية عامة من إنتاج ممارسي صناعة الخزف في سورية. فمن المؤكد أن هذه الصناعة وجدت في دمشق منذ العهد المملوكيً وأن زخرفة جامع وتربة التوريزي (١٤٢٣م) من ذلك العهد هناك يؤكد ذلك[١]. وربما وجدت في حلب أيضاً ولكنها اندثرت[٢].

ويقول كرد علي إن صناعة القيشاني كانت من الصناعات التي تجود بها دمشق وحلب من دون سائر البلدان ولكنها دثرت. وقد كانت مورد ربح وعنوان فخر ومباهاة ترصف بها الجدران والمحاريب والفساقي والسلسبيلات والبادهنجات والقماقم والزهريات والقلل. وكان يصنع من الرمل الأبيض والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث أو أشعار أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ويذر عليها مسحوق الزجاج أو تطلى به ممدوداً بسائل غروي وتشوى في تنور معد لذلك فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل والمؤثرات زمناً طويلاً[٣].

استعمل القيشاني بكثرة في الجوامع الدمشقية التي بنيت في العهد العثماني وفي بعض البيوت القديمة. ومن القاشاني الثمين في الآثار السورية قاشاني قصر الطيارة الحمراء في حماه وهو خزف مصنوع في سورية في القرن الثامن عشر وتكثر ألواحه في أنحاء هذا القصر على الجدران وفوق المداخل والمسطبات والأقواس وللزخارف النباتية نصيب وافر في هذه الألواح بالإضافة إلى الزخارف الهندسية.

١ - بهنسي عفيف، الشام الحضارة، ص٢٦٩.
٢ - الغزي، نهر الذهب، م ١، ص٩٩.
٣ - كرد علي محمد، خطط الشام، م ٤ ص٢٢٠

استعمل اللون الأزرق الداكن والأخضر الحشيشي والباذنجاني والأحمر الفاتح[١].

وقد استعمل الصناع السوريون والأتراك في صناعة القاشاني التي استعملوها لتغطية الجدران نفس الأساليب الفنية التي استعملوها في صناعة الأواني الخزفية[٢].

القاشاني في مدينة حلب:

يعود القاشاني الموجود في مدينة حلب إلى العهد العثماني ويوجد في مواقع عديدة منها جامع التكية الخسروية وجامعا العادلية والبهرمية وفي بيت جنبلاط وفي سلسبيل المدرسة الكواكبية الموجود حالياً في حديقة المتحف الوطني وفي غرفة ضريح النبي زكريا في الجامع الأموي الكبير وبعض السبلان . . .

الخسروية:

على كل من طرفي مدخل القبلية نافذتان مستطيلتان يعلو كلا منهما نجفة سوداء يعلوها قوس مدبب ذو مراكز أربعة عاتق وأصم (صورة ١). وفي المساحة بين القوس والنجفة بلاطات من القيشاني المزخرف برسوم نباتية زرقاء على أرضية بيضاء تشكل بمجموعها موضوعاً زخرفياً واحداً يحيط بنص ديني في الوسط. يلي النافذتين نافذتان تضمان أيضاً بلاطات من القيشاني يقسم الشكل الزخرفي فيها على بلاطات أربع متجمعة حول بعضها.

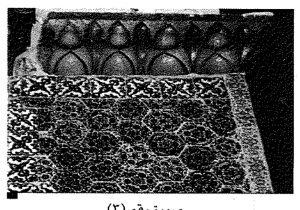
وهذا الشكل من القيشاني سنصادفه كثيراً في آثار مدينة حلب ولذلك سأطلق عليه نموذج الخسروية (صورة رقم٢). وقد زخرف به شريط أسفل شرفة المئذنة في هذه التكية أيضاً والمخروط فوق مكان جلوس الشيخ في المنبر. وهناك فوق النوافذ داخل القبلية بلاطات قيشاني من نوعين مختلفين وقد ضمت إحدى النوافذ كلا النوعين مما يدل على تلف بعض البلاطات واستبدالها بالنوع الآخر وهي بلون داكن.

العادلية:

أيضاً هناك على كل من طرفي مدخل الجامع نافذتان مستطيلتان يعلو كلا منهما نجفة سوداء وقوس عاتق مدبب ذومراكز أربعة وفي الفراغ بين القوس والنجفة بلاطات قيشاني بالألوان الأزرق الداكن والأزرق السماوي والباذنجاني فوق أرضية بيضاء وهناك نص ديني في الوسط فوق بلاطتين. ونرى نفس الشكل في النوافذ داخل القبلية. ونجد مثالاًمشابهاً لها أيضاً في البهرمية فوق نوافذ إيوان المحراب والنوافذ على كلا طرفي القبلية.

غرفة الضريح في الجامع الأموي[٣]:

تحوي قبلية الجامع أربعة صفوف من الركائز يضم كل صف (٢٠) ركيزة وفي الجدار الجنوبي بين الركيزة العاشرة والحادية عشرة غرفة صغيرة تضم ضريح النبي يحيى (يقال زكريا). وعلى كل من طرفي الغرفة عمود له تاج مقرنص مع حلزون



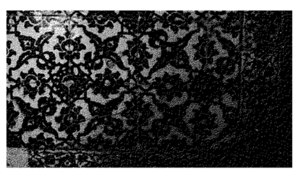
صورة رقم (٣)

صورة رقم (٤)

١ - أبو تراب عبد المجيد، أسرار المهن تاريخاً وحاضراً، ص٢٣٢

٢ - بريجيز كريستي أرنولد، ص٥١.

٣ - يعود القيشاني إلى عام ١١٢٠هـ، كما هو مسجل فوق بابه.


صورة رقم (٥)

يليه عضادة كبيرة تنتهي في الأعلى بصفين من المقرنصات مغطاة ببلاطات من القيشاني سداسية الشكل (صورة ٣) يضم كل منها (٦) وحدات نباتية متماثلة بالألوان (الأزرق والريشي والباذنجاني) والموضوع في هذه البلاطات إفرادي وهي محاطة ببلاطات مربعة (نموذج الخسروية) وهناك شريط شاقولي وشريط في أسفل الدعامة اليمنى مكون من بلاطات مستطيلة الشكل باللونين الأخضر الفاتح والأبيض استبدلت بمحاذاة العمود الأيسر بقيشاني باللونين الأزرق الفيروزي والكحلي وغيرها يبدو أنها أضيفت في عملية ترميم (صورة رقم٤).

بينما يغطي الركيزة اليسرى بلاطات (مماثلة لبلاطات الخسروية) لها أرضية بيضاء وتضم (٤) وحدات مثلثية من الزخارف النباتية باللون الأزرق تتجمع كل أربع بلاطات لتشكل الموضوع الزخرفي الذي يتكرر بشكل قطري على كامل السطح وفي الإطار بلاطات مربعة باللون الأخضر الفاتح على أرضية بيضاء يكون العنصر الزخرفي فيها نباتيا موزعا على عدة بلاطات (صورة رقم٥).

و كذلك الجدران الداخلية الثلاثة للضريح مغطاة ببلاطات القيشاني تكون سداسية على الطرفين ومربعة في الصدرلها نفس الأشكال.

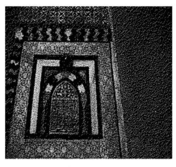
بيت جنبلاط

الإيوان: هناك في وسط الجدار الجنوبي إطار من الرخام حفر عليه بخطوط رفيعة أشكال نجمية وقوس مزرر ولوحة من القيشاني وفي الوسط رخام أبيض محفور عليه نقوش نباتية بارزة ، ثم إطار من المزررات يليها صف من بلاطات القيشاني باللونين الأزرق والأسود(صورة ٦ و٧).

وهناك لوحة في الأعلى. وفي الوسط على كامل سطح الواجهة قيشاني أزرق وأبيض كما في نموذج الخسروية.


صورة رقم (٦)

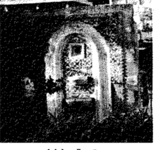
وفي الحقيقة إن هذا النموذج قد وجد في العديد من الأبنية ونراه أيضاً في **السلسبيل العائد للمدرسة الكواكبية** الموجود الآن في حديقة المتحف الوطني الشمالية(صورة رقم٨).

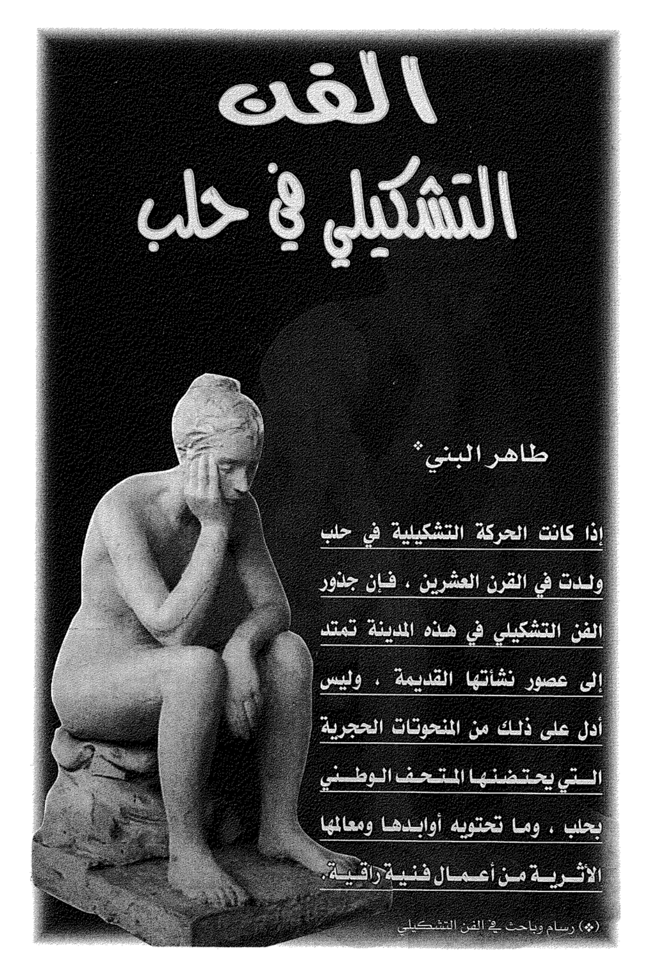

صورة رقم (٧)

وفي **التكية الوفائية** تذكر المراجع وجود بلاطات قيشاني في صالة السماعخانة لكنها نهبت.

أما السلسبيل في **التكية المولوية** فقد ضم أيضاً بلاطات مشابهة لنموذج الخسروية يعلوها بلاطة تشكل أصيصاً من الزهور.

جرى مؤخراً ترميم للقيشاني في المدرسة الخسروية وأضيف شريط منه إلى المنطقة أسفل الشرفة. وكذلك للقيشاني في الجامع الأموي الكبير وذلك بصناعة بلاطات من القيشاني مماثلة للأصل قامت بصناعتها أيد ماهرة من حلب تحاول أن تعيد لهذه الصناعة سابق عهدها■


صورة رقم (٨)



الفن التشكيلي في حلب

طاهر البني*

إذا كانت الحركة التشكيلية في حلب ولدت في القرن العشرين ، فإن جذور الفن التشكيلي في هذه المدينة تمتد إلى عصور نشأتها القديمة ، وليس أدل على ذلك من المنحوتات الحجرية التي يحتضنها المتحف الوطني بحلب ، وما تحتويه أوابدها ومعالمها الأثرية من أعمال فنية راقية.

(*) رسام وباحث في الفن التشكيلي

وقد ظهرت في حلب منذ منتصف القرن السادس عشر أبرز مدرسة للتصوير الأيقوني على يد الأب يوسف المصور وابنه نعمة وحفيديه حنانيا وجرجس. وترافق ذلك مع وجود عدد من المصورين الحلبيين من أمثال : أحمد بن يوسف بن هلال الحلبي، وأبي بكر محمد الجلومي.

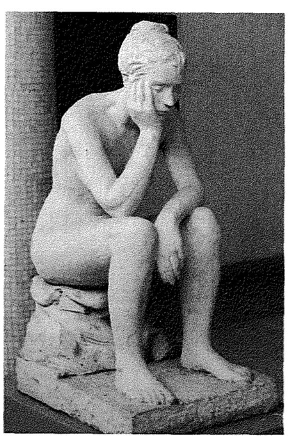
بيد أن الحركة التشكيلية المعاصرة، نشأت مع بداية القرن العشرين على يد عدد من الهواة الذين تتلمذوا على بعض الفنانين الغربيين الذين وفدوا إلى حلب، وكان في طليعة هؤلاء الفنان الرائد منيب النقشبندي الذي عين أول مدرس للفنون في المكتب السلطاني "ثانوية المأمون " بحلب، وكان من تلاميذه "غالب سالم –وهبي الحريري– إسماعيل حسني ". واشتهرت في العشرينات أعمال الفنانين : "نديم بخاش – عبد الحميد قمري – علي رضا معين".

وفي عام ١٩٣٦ عاد من روما "غالب سالم" كأول خريج من أكاديمية الفنون الجميلة، وتبعه في العام التالي "وهبي الحريري" الذي أسس أول محترف للفنون بحلب، وكان من مريديه الفنان "فتحي محمد قباوة" الذي قدّم تجارب نحتية متميزة قبل سفره للدراسة في القاهرة وروما في منتصف الأربعينيات، في الوقت الذي تألق فيه اسم الفنان "الفريد بخاش" في نهاية الأربعينيات حين أقام أول معرض للفن التشكيلي في هذه المدينة مع مجموعة من الفنانين الهواة عام ١٩٤٨ في دار الحمصي بالعزيزية.

وفي مطلع الخمسينيات تأسست أول جمعية فنية بحلب برعاية المهندس "زارا كابلان " الذي أشرف على تأسيس أكاديمية "ضاريان " للفنون عام ١٩٥٠، وكان من معاضديه الفنان "حزقيال طوروس " والفنانة "ليلى جانجي"

وقد برزت مساهمات الفنانين الحلبيين في المعارض الرسمية السورية التي تقيمها وزارة المعارف ومديرية الآثار والمتاحف بدمشق. كان ذلك في مطلع الخمسينيات بمساهمة الفنانين: "غالب سالم –إسماعيل حسني– نوبار صباغ – حزقيال طوروس– الفريد بخاش " و"فاتح المدرس " الذي نال الجائزة الأولى في التصوير عام ١٩٥٢.

وفي أوائل الستينيات تأسس مركز الفنون التشكيلية بحلب، وعين إسماعيل حسني أول مدير له بعد تخرجه في روما عام



فتحي محمد

١٩٥٧، فكان هذا المركز بمثابة أكاديمية صغيرة تخرّج فيها عدد من الفنانين المتميزين الذين رفدوا الحركة التشكيلية السورية.

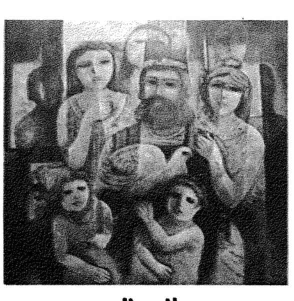
وفي تلك المرحلة عاد من روما عدد من الدارسين للفنون من أمثال: "فاتح المدرس- لؤي كيّالي - رولان خوري - طالب يازجي "مشكلين بذلك القاعدة الراسخة للإنتاج التشكيلي الإبداعي من خلال معارضهم وتدريسهم للفنون. وترافق ذلك مع ظهور عدد من الهواة المبدعين من أمثال: وحيد مغاربة- محمد اعزازي - أسعد المدرس- وحيد استانبولي - برهان نعساني- وسامي برهان الذي أقام أول معرض له في دمشق عام ١٩٦١.

وفي منتصف الستينيات عاد من فيينا "وحيد استانبولي" الذي درس النحت وتبعه "فواز نصري" الذي درس الديكور في روما، وكذلك عاد من القاهرة "وجيه ستوت " و"أحمد جزماتي " و"محمد عساني" الذي أتمّ دراسته في دمشق. كانت الحركة التشكيلية بحلب في الستينيات تمور بشتى الفعاليات والأنشطة الفنية، حيث تقام المعارض، وتعقد الندوات وتدار الحوارات، وكان معرض الربيع يزهو بمعظم نتاج الفنانين الدارسين والهواة وخريجي مركز الفنون التشكيلية من خلال المعارض الجماعية والفردية التي كانوا يقيمونها، كما ظهرت تجمعات فنية هامة كان أبرزها "جماعة رواد الفن" التي ضمّت محمد عساني . نبيه قطاية . وليد سرميني . عبد الرزاق صباهي، وجماعة "الريشة الذهبية " التي ضمّت وحيد مغاربة . أسعد المدرس . غياث الناصر.

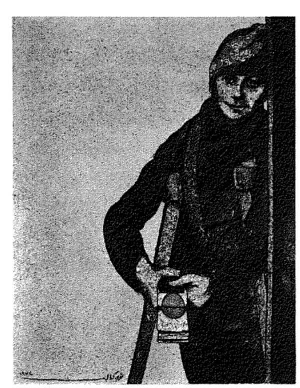
وفي مطلع السبعينيات عاد الفنان "لؤي كيالي " إلى حلب إثر أزمة نفسية حادة تعرض لها في دمشق، وأخذ الفنانون الشباب يلتفون حوله، ويشاركونه جولاته التصويرية في المقاهي الشعبية حيث يختارون موضوعاتهم، فأنجز عدد منهم معارض فردية طليعية، فكان منهم: مأمون صقال- سعد يكن- عبد الرحمن مهنا- طاهر البني- عبد الرحمن موقت- يوسف صابوني ".



وحيد مغاربة



طاهر البني



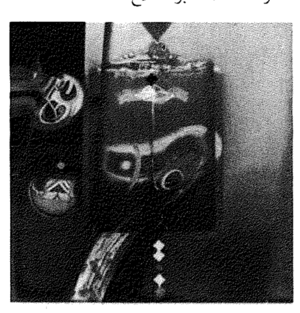
لؤي كيالي

وقد آثر بعضهم السفر إلى روما لمتابعة الدراسة أو العمل فيها، فغادر حلب إلى روما : "عبد الرحيم تاتاري-عبد المجيد صفور-علاء يازجي " في الوقت الذي تألق فيه نجم الفنان "وحيد مغاربة " الذي أقام عدداً من المعارض الفردية والجماعية في حلب ودمشق وبيروت، وحظيت تجربته الإبداعية بتقدير كبير، وإعجاب مستمر في الأوساط الفنية في سورية ولبنان، وقد آثر الفنان مغاربة السفر إلى روما لمتابعة دراسته فيها فغادر حلب في منتصف السبعينيات وعاد إليها في نهاية الثمانينيات ليتابع إنتاجه في حلب، ويقدم عدداً من المعارض في صالاتها.

أما الفنان "لؤي كيالي" فقد وجد في حلب مناخاً مناسباً لإنتاجه فأقام عدداً من المعارض التي حظيت بنجاح كبير في حلب ودمشق وبيروت، لكنه واجه بعض الأزمات النفسية، وتعرّض للنقد اللاذع الذي انتهى بوفاته عام ١٩٧٨.

وفي أوائل الثمانينيات أقام "سعود غنايمي" أول صالة خاصة للفنون ضمت إليها أصدقاء الفن، فكانت موئلاً لعدد من الفنانين والأدباء وعرضت لمعظم الفنانين المقيمين في حلب والوافدين إليها من المحافظات السورية.

وقد تزامن ذلك مع عودة عدد من الفنانين الذين درسوا في دمشق من أمثال : "سعيد الطه-زهير دباغ . يوسف عقيل-شكيب بشقان-شريف محرم- جبران هدايا-مراد ويس ". وكان لهؤلاء الفنانين نشاطهم المتميز وأساليبهم المحدثة التي أكسبت الحركة التشكيلية بحلب حضوراً فاعلاً ضمن المشهد التشكيلي السوري إلى جانب عدد من الفنانين من أمثال: عبد الرحمن موقت-سعد يكن- غسان صباغ- طاهر البني-عبد الرحمن مهنا- علي الحسين-نبيه قطاية-الأخوين بشير ونعمت بدوي-محمد صفوت- محمد أبو صلاح ".



سعيد طه

وفي هذه الآونة تمّ افتتاح عدد من صالات العرض الخاصة التي نشطت في إقامة المعارض بمستويات متفاوتة، وكان من أبرز هذه الصالات : "صالة سومر " التي آسسها علي الحسين، و"صالة آكاد " التي أسسها جبران هدايا، و"صالة النقطة " التي أسسها سعد يكن، و"صالة الخانجي " التي أسسها محسن خانجي،"وصالة سرمد "التي أسسها يوسف عقيل، و"صالة بلاد الشام " التي أسستها أمية الزعيم، و" صالة كلمات" التي أسسها عدنان الأحمد ، و"صالة بولمان الشهباء " و"صالة الجسر "، بالإضافة إلى صالتي تشرين والأسد التابعتين لوزارة الثقافة ونقابة الفنون.

وبذلك أتيحت الفرصة لظهور تجارب فنية جديدة، كان بعضها وافداً من الأقطار العربية والأجنبية، ووفد بعضها من المحافظات السورية، وقد أخذت اللوحة الفنية تجد لها طريقاً إلى بيوت المقتنين الذين أبدوا حرصهم على اختيار الأعمال الفنية الجيدة من المعارض المتوالية، فظهر بذلك مجموعة من المقتنين الذين يفاخرون بمجموعاتهم الخاصة لأشهر الفنانين، حيث تحولت البيوت والمكاتب إلى متاحف صغيرة.

وفي مطلع التسعينيات رفدت الحركة التشكيلية بحلب مجموعة من التجارب الواعدة وجدت لها ترحيباً واضحاً من قبل الجمهور الفني الذي وجد فيها مذاقاً متميزاً يتناسب مع روح العصر وآفاقه، ونذكر في هذا المجال تجارب الفنانين: محمد قباوة- يعقوب إبراهيم- محمود الساجر- ناصر نعسان آغا-أحمد برهو- ألبير كندورة- وارتكس بارصوميان. ضياء حموي-حسين محمد- جوزيف كبابة- جورج بيلوني- صلاح خالدي. حازم عقيل. وحيد قصاص- إبراهيم حسون. زاوين بردقجيان.

وفي هذا الخضم نشطت التجارب النقدية والتغطية الصحفية لمعظم هذا الإنتاج، فمنذ منتصف الأربعينيات أصدر "غالب سالم" كتاب "موجز تاريخ الفنون " وتبعه "فاتح المدرس" بسلسلة عرض فيها أهم المدارس الفنية الغربية، كما أصدر الدكتور "سلمان قطاية" كتاباً عن الفنان فتحي محمد ، وآخر عن المدرسة الانطباعية. بينما قدم "رولان خوري" بيان الواقعية الإيحائية بالاشتراك مع "نهاد رضا "، بالإضافة إلى ثلاثة كتب أنجزها طاهر البني، استعرض فيها الفن التشكيلي بحلب، موسومة بالعناوين الآتية: الفن التشكيلي في حلب- فضاءات تشكيلية- تجارب تشكيلية رائدة.

في الوقت الذي تصدى فيه للكتابة النقدية عدد من الفنانين والأدباء من أمثال: "غالب سالم-إسماعيل حسني-لؤي كيالي-سلمان قطاية-أسعد المدرس-نبيه قطاية-صلاح الدين محمد-وليد إخلاصي-محمد الراشد-فريد جحا-محمود علي السعيد-لؤي فؤاد الأسعد ".

وفي التغطية الصحفية للمعارض والندوات برز دور: صفوان عكي-هناء طيبي-لقمان ديركي-عمر مهملات-ضحى منجد-فيصل خرتش. أنور محمد. محمود مكي وغيرهم.

كما أقيمت الندوات والمحاضرات، تلقي الأضواء الكاشفة على التجارب الفنية المتميزة التي باتت إرثاً غنياً لمدينة حلب وللفن التشكيلي السوري■



الفستق الحلبي بين العلم والأدب

شجرة الفستق من الأشجار المعمرة التي يعيش بعضها ثلاثمئة سنة، وهي لا تبلغ كامل نموّها، ولا تعطي كامل إنتاجها إلاّ عندما تصل إلى ما فوق سن الأربعين.

حول هذه الشجرة أقامت جمعية الشهباء بحلب ندوة شارك فيها الباحث الأديب محمد قجة والدكتور محمد كردوش خبير الفاكهة والمهندس الزراعي ساهر الباكير. وقد تناولوا في حديثهم تاريخ شجرة الفستق والبيئة الملائمة لها وأهميتها الاقتصادية، وبيّنوا أصنافها ومشكلاتها وطرائق الاعتناء بها، كما تحدّثوا عن الفستق في الأدب، وعن استخدام الفستق في عدد كبير من الأطعمة.

بدأ الدكتور كردوش حديثه بالقول: يُعتبر الفستق الحلبي من الأشجار المثمرة المتساقطة الأوراق Deciduous trees وهذا النوع يتبع الفصيلة البطمية Anacardiuceae. ويوجد من الفستق الحلبي عشرون نوعاً منتشرة في خمس مناطق جغرافية مختلفة والمناطق الرئيسية الأربع منها توجد في نصف الكرة الشمالي. وتجدر الإشارة إلى أن شجرة الفستق الحلبي عريقة القدم في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط إلا أن الموطن الأصلي للفستق الحلبي هو سورية "حلب – عين التينة" وتشير كثير من المراجع إلى أن هذا الجنس عرف منذ ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد في منطقة غرب آسيا وبلاد الشام.

وينسب اسم الفستق الحلبي إلى حلب باعتبارها منطقة عرفت بزراعة هذه الشجرة منذ القدم. فإذا ذكرت حلب ذكر معها الفستق الحلبي وقد تغنى بثماره الشعراء وشبهوها بثغور الحسان و قال عبدالله يوركي حلاق في هذا الصدد:

حلب مقر النابغين	يشع في الدنيا سناها
فيها الجنان الزاهرات	تمد للعاني جناها
والفستق الغيران يحكي	في جوانبها الشفاها

ومن الدلائل الواضحة على قدم زراعة هذه الشجرة في سورية وجود أشجار مسنّة في قرية عين التينة "منطقة القلمون بمحافظة ريف دمشق" تقدر أعمارها بحوالي ١٨٠٠ سنة ولا زالت تحمل ثماراً حتى أن إحداها ذات جذع يبلغ محيطه حوالي ١١ متراً، كما توجد شجرة عمرها ٧٠٠ سنة حية في منطقة كرمان في إيران وهي منطقة مشهورة بإنتاج الفستق الحلبي.

تنمو شجرة الفستق الحلبي في العالم بين خطي عرض ٣٠° و ٤٥°. وتنجح زراعتها ضمن مجالات متفاوتة من حيث ارتفاع الموقع ومعدل الأمطار، وتتراوح هذه بين ما يقرب من ٥٠م عن سطح البحر كما في مربين "استراليا". وتجود زراعة شجرة الفستق الحلبي في المناطق الجافة، وتتميز بأنها شجرة قنوع تتحمل الظروف الجافة وارتفاع درجات الحرارة حتى + ٤٥ درجة مئوية في الصيف ثم انخفاضها في الشتاء حتى -١٧ درجة مئوية كما في منطقة حلب. وتنجح زراعة شجرة الفستق الحلبي في مختلف الأتربة حتى أنها تنمو في أراض حامضية قليلة الكلس، وتفضل الأتربة الرملية الكلسية جيدة الصرف. وقد تبين أن زراعة هذه الشجرة في الأراضي العميقة الغنية تعطي مردوداً اقتصادياً جيداً، لكن لا ينصح بزراعتها في الأراضي الرطبة ذات مستوى الماء الأرضي المرتفع. كما تقاوم شجرة الفستق الحلبي الملوحة في التربة نسبياً.

القيمة الغذائية والاقتصادية:

تعتبر ثمار الفستق الحلبي مصدراً هاماً للفيتامينات والعناصر المعدنية كما إنها غذاء هام للإنسان ومميع للدم، ومفيد في معالجة انقطاع الطمث وعسره والأمراض النسائية. وقد ذكر ابن سينا أنها تفتح سدد الكبد وتقوي الذاكرة والذكاء وتشفي من السعال المزمن وتزيل قروح الفم. وتحتوي بذور الفستق على نسبة ٢٠٪ من السكر وحوالي ٢٠٪ من البروتين و٥٠٪ من الدهون. وهي غنية أيضاً بالفيتامينات مثل B1،B2،A وكذلك بالعناصر الغذائية الأخرى وخاصة الكالسيوم والحديد والمغنزيوم مما يجعلها ذات قيمة غذائية عالية.

وتبدو الأهمية الاقتصادية لزراعة الفستق الحلبي في العالم من تقارير منظمة الأغذية والزراعة العالمية FAO خلال الأعوام ١٩٦٩- ١٩٩٩ إذ ازداد الإنتاج الثمري في السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ. فقد كان إنتاج العالم في نهاية الستينات من هذا القرن حوالي ٣٢ ألف طن، وارتفع في بداية التسعينات إلى مايعادل ثمانية أمثاله أي أكثر من ربع مليون طن، وبلغ في نهاية القرن العشرين مايقرب من نصف مليون طن.

وعموماً تتميز إيران بأكبر إنتاج ثمري لهذا النوع من الأشجار المثمرة حيث وصل أعلى إنتاج لها حوالي ٣١٤ ألف طن عام ١٩٩٨، يلي ذلك الولايات المتحدة الأمريكية USA بمعدل حوالي ٨٥ ألف طن في نفس العام، ثم تركيا بأقصى إنتاج لها ٧٠ ألف طن عام ١٩٩٧، وسورية في المرتبة الرابعة بأعلى إنتاج يقرب من ٣٥ ألف طن عام ١٩٩٨، وكذلك الصين في المرتبة الخامسة بإنتاج ٣٠ ألف طن في نهاية القرن العشرين.

وتدل الإحصائيات السورية بأن زراعة الفستق الحلبي في سورية آخذة بالتحسن خلال السنين الأخيرة. وتتركز زراعة شجرة الفستق الحلبي في المحافظات الثلاث: حلب – حماه – ادلب.

أصناف الفستق الحلبي المحلية:

إن أهم الأصناف المنتشرة في سوريا والمتميزة بنوعيتها وإنتاجيتها العالية مايلي:

- **العاشوري**: صنف منشأه منطقة حلب ويطلق على هذا الصنف "الحلبي الأحمر" نسبة إلى لون الثمرة الأحمر الجذاب للمستهلك وهو معروف في أمريكا الشمالية بهذا الاسم "RED ALEPPO". وشجرته ذات نموات قوية شبه قائمة. ويعد صنفاً باكورياً في تفتحه الزهري ونضجه مقارنة مع غيره من الأصناف. كما يعد من أصناف المائدة الفاخرة يتناول طازجاً وكذلك مملحاً أو مصنعاً، كما أن بذور هذا الصنف هامة جداً لارتفاع نسبة إنباتها وسرعتها وقوة غراسها في العام الأول من زراعة البذور.
- **ناب الجمل**: من الأصناف المتميزة بنكهتها وطعمها الحلو وهي ثمرة كبيرة بالمقارنة مع العاشوري وسميت بناب الجمل لتشابه شكل الثمر الانسيابي مع شكل ناب الجمل وهو من الأصناف التي يزداد الإقبال عليها في هذه الأيام لدى المستهلك والفلاح.
- **الباتوري**: صنف منشؤه منطقة حلب، و يحتمل أن تكون التسمية نسبة إلى شكل الثمرة مبتور القمة، شكلها شبه كروي ولون الثمار أبيض. والشجرة متوسطة النمو، نمواتها متدلية تشكل نموذجاً خيمياً. ويمكن أن يصل قطر التاج إلى "٥" م وهو صنف يتميز بباكوريته في التفتح الزهري والنضج الثمري يلي في ذلك الصنف العاشوري.

- **العليمي**: منشأ هذا الصنف أيضاً منطقة حلب، وهي شجرة متوسطة الحجم بنموها وشكلها نصف قائمة ويعد صنفاً متوسطاً في موعد التفتح الزهري والنضج، والطعم فيها أقل حلاوة من العاشوري.
- **العجمي**: وهو ذو منشأ إيراني شجرته متوسطة النمو ذات نموات شبه قائمة، متوسطة في التفتح الزهري والنضج، ولون الثمرة شبيه بلون ثمار العاشوري مع تلون بني على أحد جوانب الثمرة.
- **اللازوردي**: منشأ هذا الصنف منطقة حلب، وشجرته متأخرة في التفتح الزهري والنضج.

❖ ❖ ❖

ثم تعرض الباحث إلى مشاكل زراعة الفستق الحلبي، وذكر أن الفستق لم ينل اهتماماً من الباحثين مثلما نالت أشجار مثمرة أخرى كالتفاحيات واللوزيات. وتتطرق إلى ظاهرة تبادل الحمل بين سنة وأخرى وإلى مشاكل التلقيح والغرس والتطعيم وإمكانية التبكير في الانتاج، وغيرذلك من المواضيع الزراعية التخصصية.

بعد ذلك تحدث الأستاذ محمد قجة عن استعمالات الفستق الحلبي في عدد من الأطعمة، وّبين أن الفستق عنصر أساسي في "آلة الخزانة" أي في جهاز ليلة العرس للعروسين. وتحدث عن الرحالة دي لاسال الذي كان يزور حلب ويتحدث عن الفستق في كروم حلب. ومن المعلوم أن صوت تفتح الفستق يُسمع مع السحر، وبخاصة في الليالي المقمرة، وكأن فتحته ثغر جميل، ويسميه الحلبيون "حبّ الفهم".

وتحدّث عنه الأطباء العرب قديماً فقال عنه ابن سينا :طبعه أشد حرارة من الجوز. يفتح سدد الكبد لمرارته وعطريته، وفيه عفوصة وغذاؤه يسير جداً وهو جيد للمعدة، خصوصاً الشامي الشبيه بحب الصنوبر، وهو يفتح منافذ الهواء، ودهنه ينفع من وجع الكبد الحادث من الرطوبة والغلظ، فإن قال قائل: لم أجد له في المعدة كبير مضرة ولا منفعة أقول: بل يمنع الغثيان وتقلّب المعدة، ويقوي فمها.

وذكره ابن البيطاربقوله: الفستق ثمرة طيبة تنقي الكبد وتنفع من علل الصدر والرئة والذي ينال البدن منه من الغذاء يسير جداً. وهو أشبه أن يكون مفرّحاً مقوياً للقلب. ومن خاصته تطييب النكهة، ويمنع أبخرة المعدة التي ترقى إلى أعلى، ويزيل المغص أكلاً، وقشره الخارج الرقيق إذا نقع في الماء وشرب قطع العطش والقيء وعقَل البطن، ودهنه مضرّ بالمعدة.

ويقول ابن جزْلة: أجوده الحديث الكبار، وهو جيد للمعدة ويزيد في الباءة، وينفع من السعال البلغمي، ولبه يزيل الخفقان، ويولد الدم الجيد ويخصب البدن ويزيد في العقل والحفظ والذكاء، ويصلح الصدر.

ثم أورد الباحث قجة بعض المقاطع الشعرية التي قيلت عن الفستق نقتطف منها مقطعاً من قصيدة للشاعر عادل الغضبان:

والفستق الحيران أطبق جفنه ... غيظاً ولاح بوجنة صفراء
يرنو إلى الصيف الجميل لأنه ... يختال فيه بحلّة حمراء
فكأنه وذكاء تلقي نورها ... حباتِ مرجان بكف ذكاء
ياحسنه متدلياً، يالحنه ... متشققاً في الليلة القمراء

وقال أحد الشعراء:

كأنما الفستق المملوح حين بدا ... مفتح القشر موضوعاً على طبق
وقد بدا لبُّه للعين ألسنة ... للطير عطشى بها شيء من الرمق

وقال ابن الشهرزوري:

وضاحك أجفانه ... لم تكتحل بالوسن
لم أدر عن أفئدة ... تبسم أم عن ألسن
كعاشق كلّفه ... الغرام ما كلفني
إذا أخذت قلبه ... لم يُنتفع بالبدن

وقال الشاعر عبدالله يوركي حلاق في قصيدته عصير الحرمان بعد أن رأى حسناء تقشر فستقة بأسنانها اللؤلؤية فخيل للشاعر أن ثغرها والفستقة بحجم واحد، قال:

ثغر بحجم الفستقة ... سبحان رب نسّقه
هو برعم متفتق ... أو وردة مغرورقة
ضحكاته ألحان طير ... في الشفاه مزقزقة
قبلته فإذا الشفاه ... على الشفاه معلّقه
ورشفت خمرة ريقه ... مسكيّة ومعتّقة
فنأيت عن أفق الجمود ... وعن حدود ضيقه
وقضيت في ملكوته ... لحظات حب شيّقه
وقد اشرأب معربدان ... إلى العيون المحدقهْ
في رأس كل منهما ... كرة بقدّ البندقه■

التحرير



عندما جعل منها الرشيد عاصمة للدنيا

الرقة القديمة قبل الفتح الإسلامي

القرى الأولى على ضفاف الفرات

إذا كانت حلب تتنافس مع دمشق على لقب أقدم مدينة ما تزال تنبض بالحياة، فإن محافظة الرقة لا يوجد من ينازعها على لقب أقدم أرض في العالم بنى عليها الإنسان أول بيت في التاريخ، فعلى ضفاف الفرات في محافظة الرقة، وبالتحديد في منطقة «أبوهريرة»، عرف الإنسان الاستقرار الأول له، وسكن في أكواخ دائرية جدرانها مبنية من الطين وسقوفها من أغصان الأشجار، وذلك قبل اثني عشر ألف سنة. وكان من أهم نتائج هذا الاستقرار اكتشاف الزراعة، وتأسيس حضارة الخبز التي ما نزال نعيش فيها، إذ لا توجد اليوم مائدة في العالم لا يحتل فيها الخبز المكان الأول، كل ذلك يعود إلى أن سكان وادي الفرات الأوسط قرروا في ذلك الزمان السحيق أن لا يكونوا ضيوفاً على الطبيعة يعيشون على الصيد والتقاط الثمار، بل أرادوا أن يكونوا فاعلين فيها ينتجون قوتهم اليومي بعرق جباههم عن طريق الزراعة، وتربية المواشي. ويقول في ذلك الأستاذ الفيلسوف جاك كوفان الذي قضى عمره وهو ينقب في تلك المنطقة: كان ذلك أخطر قرار ثقافي تتخذه جماعة بشرية في تحويل نمط حياتها، وكان لهذا القرار أعمق الأثر على حياة الإنسان في كل مكان وعلى مدى الدهور. ودخل البشر في العصر

الحجري الحديث وكان من أثر ذلك أن توسعت هذه القرى الفراتية، وظهرت فيها البيوت المستطيلة المسقط. واكتشف البشر فيها صناعة الفخار وحياكة النسيج والزراعة المروية، وازدادت حياتهم الروحية غنى، وبنوا المعابد، وقدسوا الطبيعة المعطاء في رمز الإلهة عشتار، ربة النبات والخصب والحب، كما قدسوها في رمز الثور، إله القوة والعمل. وتعتبر حسناء المريبط من أقدم تماثيل إلهة الخصب في بلادنا، وأكثرها إثارة، وجدت في موقع المريبط الأثري، الذي يعاصر موقع «أبوهريرة» الأثري، ويقع إلى الغرب منه ببضع عشرات من الكيلومترات.

المدن الأولى

وعلى ضفاف الفرات نشأت أولى المدن، وفي هذه المدن تم اكتشاف الكتابة والقوانين، وبدأ عقل الإنسان مغامرته الأولى في التجوال في عوالم الغيب والأساطير. وكانت الرقة تعرف في الألف الثالث قبل الميلاد باسم توتول وتقع أنقاضها تحت تل البيعة في شمال شرق مدينة الرقة الحالية. وتعمل فيها منذ عام / ١٩٨٠/ الباحثة الألمانية أيفا شترومنغر وما تزال أعمال البعثة مستمرة حتى اليوم.

توتول في المصادر التاريخية: في الألف الثالث قبل الميلاد اختار سرغون الأكادي مدينة توتول منطلقاً لفتوحاته. واستمد السلطة من ربها دجن الذي منحه البلاد العليا سورية والأناضول، ولهذا لقب سارغون نفسه ب شاروكين أي الشرعي. ولم تستقر توتول سياسياً نظراً لتصارع مملكتي يمحاض حلب وماري عليها. وتمكنت ماري على الدوام من السيطرة على توتول وإجهاض تحالفاتها وثوراتها. ولكن توتول حافظت على كونها مركزاً تجارياً هاماً وكانت تمر بها قوافل تجارة ماري في طريقها إلى مسكنة إيمار ومنها إلى الساحل والتي كانت تتألف أحيانا من أكثر من ألفي دابة. وكان لتوتول علاقات وثيقة بقبائل البادية.

وفي بدايات الألف الثاني قبل الميلاد /١٨٥٠/ اجتاح حمورابي ملك بابل مدن الفرات: ماري وتوتول وإيمار وخربها. وبذلك انحدرت مكانة توتول وصارت مدينة ثانوية، ولكنها استمرت في البقاء حتى /١٣٠٠/ ق م زمن الصراع الحثي الآشوري. ثم انقطع الاستيطان المدني لتل توتول فترة طويلة.

الرقة في العصور الكلاسيكية: تختلف الروايات في إسناد تأسيس الرقة بموقعها الحالي إلى الإسكندر المقدوني أو ضابطه سلوقس نكاتور أو غيرهما، وظهرت بعض الأبنية بين القرنين الثالث والسادس في تل البيعة. وفي القرن السادس الميلادي تم إنشاء دير مار زكي الذي استمر حتى القرن العاشر ومن المرجح أن اسم تل البيعة يعود إلى الفترة المسيحية. ولكن الأكيد أنها كانت في الفترة البيزنطية

قلعة حدودية هامة بين بيزنطة وبلاد فارس جرت حولها أهم حروب الدولتين.

معطيات التنقيب الأثري

فقد دلت على وجود آثار سور من اللبن معزز بأبراج ظاهرة. ويرتفع في الوسط تل المدينة وعليه يقوم القصر والمعبد. القصر يشابه قصر ماري وهو معاصر له. والمعبد يتميز برواق أمام المدخل، وتحيط بهما بيوت السكان التي تمتد حتى تلاصق السور. كانت بيوت المدينة تبنى من اللبن، جدرانها صماء خالية من النوافذ، وأراضيها مبلطة بالآجر، وفي بعضها يوجد تنانير الخبز. والأبواب تنفتح إلى باحة سماوية. الأزقة ضيقة، وتخترقها مجاري المياه الملوثة المغلقة، التي تصرف هذه المياه إلى خارج المدينة.

ومن اللقى الأثرية التي عثر عليها تبين أن هناك صناعات حرفية متطورة ذات تقنية عالية. ومن تلك الحرف صناعات النسيج وحياكة الحصر وصناعة الفخار ونقش الأختام والصياغة وصناعة الخمور وعصر الزيت. وتربية الماشية.

تاريخ الرقة عندما
أصبحت عاصمة الدنيا بعد الفتح الإسلامي

دخل المسلمون الرقة صلحاً عام /٦٣٩ - ٦٤٠/ وكان سكانها عرباً من بني مضر. وعلى مقربة منها في صفين "موقع أبوهريرة المغمور حاليا" تقابلت جيوش سيدنا علي بن أبي طالب مع جيوش معاوية بن أبي سفيان في موقعة صفين الشهيرة، والتي كان لها أكبر الأثر في تحديد تاريخ الإسلام. وقد دفن بجوار الرقة العديد من شهداء معركة صفين من رفاق سيدنا علي بن أبي طالب، منهم الصحابي عمار بن ياسر، وأويس القرني التابعي، وقد أصبح قبراهما مزاراً يحج إلية المؤمنون، وقد بني عليهما جامع حديث.

وتفيد الوثائق المكتوبة أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بنى فيها قصرين. ولكن الخليفة العباسي المنصور /٧٧٢/ م وضع مشروع بناء الرقة عاصمة ثانية للخلافة وذلك لسيطرتها على مناطق البادية والجزيرة السورية ولكونها موقعا متقدما على الحدود مع بيزنطة. وربما كان مخططها الدائري نسخة مصغرة عن مخطط عاصمته الأولى بغداد. وأطلق المنصور اسم الرافقة على عاصمته الجديدة ولكن ابنه المهدي وحفيده هارون الرشيد /٧٨٦ - ٨٠٩/م أتما بناء الرافقة. ولا شك بأن اختيار الرقة لهذه الوظيفة كان بسبب موقعها الاستراتيجي وليس لخصائصها البيئية.

أصبحت الرقة عاصمة الدنيا أيام الرشيد الذي استقر فيها مدة اثني عشر عاماً. ونشطت حركة البناء فيها بشكل مذهل، وكان أدهم بن محرز كبير مهندسي البناء. وكان مخطط الرافقة دائريا يشبه مخطط بغداد، قطر الدائرة التقريبي/١٤٠٠/ متر ولكن مرور نهر

الفرات إلى الجنوب منها سبب قطع تلك الدائرة. فصار مخطط الرافقة على شكل نعل فرس مغلق من ناحية الجنوب بخط مستقيم يوازي جدار القبلة في الجامع. وكان للرافقة سوران بينهما فصيل، ويقع أمامهما خندق، ويتوزع أمام السور الأمامي /١٣٢/ برجا دائريا. وتؤكد النصوص على وجود بابين عظيمين للرافقة: باب بغداد مازال ماثلا حتى اليوم ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية، ويناظره في الطرف الآخر من المدينة باب الجنان وقد اندثر هذا الباب. وكان البابان من الآجر وبجانب كل منهما برج مستدير.

ويقع الجامع الكبير في وسط المدينة وظهرت منطقة القصور وفيها العديد من المباني السكنية الصرحية الفخمة، زينت جدرانها وأطر الفتحات فيها بأعمال جصية حفر عليها أشكال نباتية متنوعة تجريدية أو مجسدة وخاصة من أوراق الكرمة وعناقيد العنب يتجاور فيها الأسلوب الرافدي والسوري في التزيين. ولا شك بأن أعمالاً بمثل ذلك الحجم والتنوع تطلبت مساهمة يد عاملة متخصصة من مناطق عديدة جاءت حاملة أساليبها الفنية المتنوعة.

وفي عهد الرشيد تم حفر فرع من نهر الفرات نحو الرقة، عرف هذا الفرع بنهر النيل. وكان يغذي أبنية الرقة وقصورها. وكانت له قناة فرعية تمد خندق الرافقة بالمياه.

ولكن هذا الوضع لم يدم، لأن الرشيد اضطر لمغادرة عاصمته الجديدة والعودة إلى بغداد في أواخر أيامه لحل المشاكل التي نشأت في أواسط آسيا على الحدود الشرقية لمملكته ومات في خراسان عام /٨٠٩/م.

حافظت الرقة على أهميتها في الفترتين الزنكية والأيوبية وخاصة لموقعها المتوسط بين حلب والموصل. واستمرت فيها صناعة الخزف المزجج الفاخر الذي اشتهرت به.

داهم المغول الرقة وهم في طريقهم إلى حلب عام /١٢٥٨/م وخربوها كما فعلوا بغيرها من المدن العربية كبغداد وحلب ودمشق.

آثار الرقة الإسلامية

جرت أعمال تنقيب أثرية متقطعة في منطقة الرقة منذ بداية هذا القرن وكشفت عن عناصر من العمارة الكلاسيكية متداخلة في أطر من العمارة الجديدة، وبقايا من العمارة العباسية المتميزة بأقواسها المدببة، وهي على الرغم من قلتها فإنها تعطي فكرة عن ذلك المجد الغابر لقد بذلت مديرية الآثار جهداً لترميم الجزء المتبقي من أسوار مدينة الرافقة العباسية الدائرية والمصنوعة من اللبن التي مازال ثلثا طولها باقيين. ويقع باب بغداد في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة، أقواسه مدببة وهو محلى بكوى غير نافذة، تحدها أعمدة

تزيينية، تعلوها أقواس مفصصة مصنوعة من قطع اللبن. وهذا النوع من التزيين من سمات العمارة الرافدية.

ومن أشهر الأمكنة الأثرية في الرقة نجد قصر البنات. وهو بناء من اللبن، يحيط بفناء تتوسطه بركة، وينفتح على طرفيه إيوانان، وهو مزين بسخاء، وهو من الأبنية العباسية الأولى التي تعود إلى عهد أبي جعفر المنصور. وتسمية هذا القصر بقصر البنات تسمية محلية وليس لها أساس وثائقي. وربما تعود إلى ما علق في أذهان العامة من أوهام حول حياة المجون في قصور الخلفاء وخاصة في عهد الرشيد.

كما نجد في مركز المدينة القديمة داخل الأسوار بقايا الجامع الكبير الذي تم بناؤه في عهد الخليفة المنصور عام ٧٢٢/. وتم تجديد فناء الجامع في عهد نور الدين الزنكي الملك المعمار، الذي امتد نشاطه المعماري في كل مناطق بلاد الشام. ويتميز الجامع بمئذنته البسيطة التي ترتفع ٥٢ متراً، وبقايا رواق فيه أقواس عربية تعلو دعامات من اللبن، تعود إلى أيام نور الدين كما تشهد الكتابة. وللمسجد مسقط مربع طول ضلعه مئة متر، ويحيط به أحد عشر برجاً.

وقد تم الكشف عن قصرين عباسيين على بعد كيلو متر واحد شمال شرقي المدينة المسورة ربما يعود أحدهما إلى الخليفة هارون الرشيد والآخر لابنه الخليفة المأمون.

وعلى بعد ٨ كم إلى الشرق من الرقة تقع آثار موقع هرقلة، وكان يعتقد أنها كانت قلعة رومانية، ولكن الحفريات أثبتت أنها بنيت في العصر العباسي وأن بانيها هو الرشيد، وذلك ليخلد انتصاره على الروم في موقعة هراكلون. ولكنه لم يستطع أن يكمل بناءها. والبناء مربع الشكل ضلعه مئة متر تتوسط أضلاعه الأربعة أواوين مفتوحة نحو الخارج قبالة أربع بوابات كبيرة تتوضع على سور دائري قطره ٥٠٠ متر. وتخترق دائرة السور الخارجية قناة مائية ضخمة في الطرف الجنوبي مارة من الشرق إلى الغرب.

متحف الرقة

يقوم متحف الرقة في بناء السرايا القديمة الذي كان معداً للهدم، وهو بناء جميل يقع وسط الرقة تم ترميمه وإنقاذه وتحويله إلى متحف. يتألف من طابقين وأربعة أقسام. في الطابق الأرضي نجد قسمي آثار الشرق القديم والآثار الكلاسيكية أما الطابق العلوي ففيه قسم للآثار العربية الإسلامية كالمقتنيات من خزف الرقة الشهير والأطر الجصية التي كانت تزين أبواب القاعات والمداخل في العصر العباسي، وهي فريدة من نوعها. بالإضافة إلى الجرار والتيجان ومجموعات النقود■

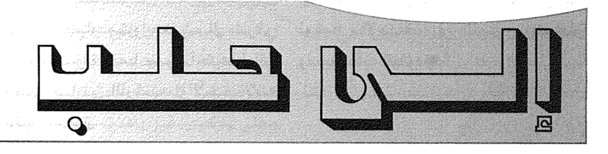
توجد مذاهب عديدة في تفسير كلمة قويق اسم نهر حلب الذي ذهب. ولعل أقربها إلى العقل هو ارتباط لفظة قويق بنقيق الضفادع التي كانت تكثر في مياه غدرانه المترقرقة. هكذا يقول احسان الشيط وأضاف أن الضفادع كانت تصدع الناس بنقيقها وخاصة إذا جن الليل، حتىأشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

قويق إذا شم رائحة الشتا ... أظهر تيهاً وكبراً عجيبا

وإن أقبل الصيف أبصرته ... ذليلا حقيرا حزيناً كئيبا

وإذا الضفادع نادينه ... قويق قويق أبى أن يجيبا

يوم وصل نهر الساجور



ومع ذلك فقد طغى هذا النهر الصغير على الصليبيين وهم يحاصرون حلب، فأغرق خيامهم وشتت شملهم، ومكن آق سنقر جد نور الدين الزنكي منهم بعد طغيانه بيوم واحد. وكثيراً ما كان قويق يخيب آمال أهل حلب الذين كانوا يعتمدون عليه في سقاية بساتينهم، لأنه كان في غاية الضعف صيفاً وفي غاية النشاط شتاء. لذلك فكر ولاة حلب برفد نهر قويق بمصادر مائية أخرى. وأول من اجتهد في ذلك الأمير سيف الدين سودون الناصري عام ٧١٣ هـ بدأ العمل بجر مياه نهر الساجور وهو نهر صغير ينبع من الأراضي التركية الحالية، ويصب في الفرات قرب مدينة منبج، ولكن المنية منعته من إتمام مشروعه بعد عام من بدء العمل فيه. وأكمل العمل الأمير سيف الدين أرغون دوادار الناصري عندما استلم الإمارة عام ٧٣٠هـ. وبعد تعب زائد كما يقول النص وإنفاق مال كثير، كان وصول الماء إلى حلب عام ٧٣١هـ. وكان يوم وصوله مشهودا خرج النائب والأمراء والأعيان إلى ظاهر البلد مشيا لتلقيه بالتكبير والتهليل فرحين مسرورين، وفي ذلك قال الشاعر:

لما أتى نهر الساجور قلت له
لماذا التأخر من حين إلى حين
فقال أخرني ربي ليجعلني
من بعض معروف أرغون

استمر الساجور يجري إلى حلب ويصب في مجرى نهر قويق قرب قرية فافين حتى حدثت زلزلة شديدة سنة ٩٤٠هـ فتهدمت الجسور التي بناها أرغون وأجرى الماء فوقها، وكان أرغون قد وقف على ترميم هذه الجسور وصيانتها وقفاً عظيماً، ولكن هذا الوقف تدولته أيدي الغصب. وبقيت القنوات والجسور متهدمة والماء مقطوعاً إلى سنة ١٠٤٠ هـ. واجتهد في جره هذه المرة رجل من أغنياء الحلبيين اسمه نعسان آغا الذي أصلح ما تهدم، ووقف على المشروع وقفاً مناسباً لكي يستمر النهر في الجريان، وقال في ذلك أحد الشعراء:

لما أتى حلب الساجور قلت له
كيف اهتديت وما ساقتك أعوان
فقال كانوا نياماً عن مساعدتي
حتى تيقظ طرفاً وهو نعسان

ولكن أيدي الغاصبين المتغلبين على أموال الخير امتدت إلى أوقافه مرة أخرى، وأخذت جسوره بالخراب شيئاً فشيئاً حتى تعطلت عن آخرها عام ١١٣٥هـ وجرت محاولة أخيرة لإصلاح ما تهدم قامت بها الحكومة العثمانية بعد أن جمعت مالاً عظيماً من الحلبيين، ويوم الاحتفال بوصول الماء خرج الناس إلى الملتقى كعادتهم بالطبول والزمور وانتظروا حتى المساء، ولكن الساجور رفض المجيء لسبب تعرفه الحكومة العثمانية فرجع الناس بالخيبة. وفي ذلك قال الشاعر:

من قال إن المستحيل ثلاثة
لم يدر رابعها فخذ بلا تعب
الغول والعنقاء والخل الوفي
ومياه الساجور تجيء إلى حلب ■

من قال إن المستحيل ثلاثة
لم يدر رابعها فخذ بلا تعب
الغول والعنقاء والخل الوفي
ومياه الساجور تجيء إلى حلب

قلعة جعبر

تقع قلعة جعبر في الجزيرة السورية وتبعد ٥٠ كم غربي الرقة وبعد بناء سد الفرات أحاطت المياه بالقلعة وتحولت هضبتها الكلسية إلى شبه جزيرة رائعة.

شيدت قلعة جعبر فوق موقع منيع. واسمها القديم دوسر. أما جعبر فهو اسم سابق الدين جعبر القشيري الذي حكمها في القرن الخامس هجري، وتبعه أولاده الذين كانوا يقطعون طرق القوافل، حتى استولى عليها ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وجعل سالم بن مالك بن بدران أميرا عليها عام /١٠٨٧ م/. لعبت قلعة جعبر دورا بارزا في تاريخ المنطقة خلال الحروب الصليبية لمركزها المتوسط بين حلب والموصل. خضعت لأمير حمص فترة قصيرة، ثم استولى عليها نور الدين الزنكي وكان والده زنكي عماد الدين قد اغتيل أمام القلعة عام /١١٤٦ م/.

ثم انتقلت القلعة إلى عهدة الأيوبيين ومن بعدهم إلى عهدة المماليك وفي الفترة العثمانية لم يعد يتكلم عنها أحد.

تختلف قلعة جعبر عن غيرها من القلاع السورية بأنها شيدت من الآجر، مما يشير إلى تأثرها بنمط البناء السائد في بلاد الرافدين. وهي محصنة بسور مزدوج يحتوي على ٢٥ برجا متنوعة الأشكال، ومنحدرات القلعة مبلطة بشكل مائل زيادة في تقوية مناعتها. أبعادها "٣٣٠×١٦٠ م". وتحلي أبنيتها زخارف هندسية ضمن حقول مؤطرة وأبرز معالمها الباقية المدخل المنحوت من الصخر بشكل مائل. والمئذنة المستديرة الباقية من المسجد المخرب. بالإضافة إلى مقر الحاكم في الجنوب الغربي والحمامات. كما عثر في السفح الغربي على مدافن بيزنطية وعلى بئر مليئة بالخزف العربي.

احتل هولاكو القلعة وخربها تخريبا كاملا، ولكنها رممت وتوسعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أيام المماليك، إلا أن الآثار الباقية اليوم تعود في معظمها إلى عصر نور الدين الزنكي.

قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بأعمال ترميم واسعة عندما تعرضت القلعة لغمر مياه سد الفرات. وعمدت إلى إنشاء متحف صغير عند مدخل القلعة، يحتوي على تماثيل منحوتة تعود إلى العصر الروماني، عثر عليها في تل عناب السفينة الذي غمرته مياه السد، ويقع هذا التل على بعد "٥٠ كم" شمال غرب جعبر■

النقل الداخلي في حلب أوائل القرن العشرين

نجوى عثمان

دفع التوسع الكبير الذي شهدته مدينة حلب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين السكان إلى استعمال وسائط مختلفة لتأمين انتقالهم بين مركز المدينة والأحياء المحيطة بها. إذ ازدادت الأحياء خارج الأسوار عدداً وامتداداً واتساعاً، ونشأت في هذه الفترة معظم الأحياء الجديدة التي كانت، وما زالت، تعطي المدينة طابعاً حديثاً وأنيقاً. فمحلة العزيزية، مع رونقها وجمالها، تعود بدايات البناء فيها إلى عام ١٨٦٨ م، ومن آثارها المنشية القديمة التي أنشئت عام ١٩٠٠م.

أما محلة النيال فقد بدأ البناء فيها وتكاثر عام ١٨٧٨ م، وتبعتها التلل عام ١٨٨٢، والجميلية التي كانت تعرف في سجلات الدولة بالسليمية نسبة إلى سليم ابن السلطان عبد الحميد الثاني، وكان المكتب السلطاني «مدرسة المأمون حالياً» أول مبنى ينشأ فيها وقد بدئ ببنائه عام ١٨٨٢ وانتهى عام ١٨٩٨، وبنى جميل باشا، والي حلب، أول قصر فيها، لذلك غلب عليها اسم الجميلية.

وفي عام ١٨٨٧ خططت الحميدية، ونسبت إلى السلطان عبد الحميد خان الثاني، ثم السليمانية عام ١٨٩٥ التي تعرف باسم سليمان جلبي صاحب بستان كان في جهة منها.

وتكاثرت المباني في جبل الغزالات وفي منطقة الشيخ أبي بكر بدءاً من ١٨٩٧. أما الجابرية فقد بدأ البناء فيها عام ١٩٠٧ ونسبت إلى أحد بني الجابري الذي كان يتصرف بأرضها[1].

(*) دكتوراه في العلوم التطبيقية.

وهـكـذا توسـعـت حـلـب بأحـيـائـهـا وضـواحـيـهـا، وبـلـغـت أبـعـادهـا قـرابـة ٢٥٠٠×٢٢٠٠ م٢، مما دفع إلى التفكير في إيجاد وسائل للربط بين أحياء المدينة المختلفة، وإيصال المواطنين والبضائع إلى أنحائها وأسواقها، القديمة منها والحديثة.

ولقد سارت في شوارع حلب وجاداتها وأزقتها في هذه الفترة وسائط نقل مختلفة، منـهـا: الحـيـوانـات والـعـربـات الحـنـاتـير، وسنعطي في الفقرات التالية فكرة سريعة عن كلٍ منها.

الحيوانات «الدواب»:

على الرغم من التوسع العمراني الذي شهدته حلب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد ظل الناس يعتمدون على الحيوانات الدواب اعتماداً رئيسياً في التنقل بين المناطق المختلفة، ضمن المدينة وخارجها. وكانت هنالك علاقة حميمة بين الدابة وصاحبها، وكثيراً ما كان أصحاب الحيوانات يقضون سهراتهم يحكون قصصاً عن إخلاصها ووفائها وذكائها. «ففي كانون الثاني عام ١٩١١ بلغت درجة الحرارة حوالي ١٨ْم. تحت الصفر، وتساقطت الثلوج، وقطعت الطرق، وعطلت الأشغال، فهلكت المواشي. وارتفعت أسعار الوقود واللحم ارتفاعاً فاحشاً، وجمد المسافرون على طريق الاسكندرونة وعينتاب وكلز. وحدث أن وصلت دواب محملة زيتاً، فسارت تواً إلى خان الزيت، ولم يكن معها أصحابها، فتوجه الناس إلى خارج المدينة، فوجدوهم مطروحين على الطريق، فعالجوهم وعادوا بهم»[٢].

وحدثني أحدهم أنه ركب حماره نهاراً قاصداً إحدى القرى النائية، وفي طريق عودته ليلاً، وقف عند نقطة تتفرع عنها عدة دروب "طرق" ترابية، وما عرف أيها الدرب الصحيح الذي يوصله إلى بلدته، فنزل عن حماره، وتركه يمشي بمفرده، إيماناً منه بأن الحمار سيختار الدرب الصحيح، وبعدما سلك الحمار أحد الدروب، ركبه فأوصله إلى بلدته.

كما كانت هنالك قيم ومعايير تبعاً للمكانة الاجتماعية لراكب الحيوان "الدابة"، فالأغنياء وذوو المكانة الرفيعة جداً يركبون الفرس الأصيل، والأقل مكانة منهم يركبون الكديش، وهو نوع من الخيل غير العربية، ولكنه غير معروف الهوية. وكانوا يروضون الفرس أو الكديش قبل استعماله للركوب، فيعلقون ثقالات حديدية في أرجله، ليتعلم المشي المتوازن، فلا يزعج راكبه، مع سرعته، ويسمى عندها بالرهوانة. إذ كانت سرعة الحيوان المركوب من مميزاته الحسنة، فكانت الأم تدعو لابنها قائلة: روح يا ابني.. الله يبعتلك دار وسيعة ومرا مطيعة ودابة سريعة. وإذا كان الفرس الأصيل ما زال موجوداً حتى الآن، فإن الكديش اختفى تماماً من المدن، وأصبح نادراً جداً في الريف.

كما كان المترفون يركبون الحمير البيض، وفي تعريف الأسدي للحمارة البيضاء يقول: «كانت مركوب المترفين، يسمونها الصليبية لأنها اعتنى بتربيتها منذ عهد الصليبيين أهالي جزيرة قبرص، ويلبسونها أفخر السروج الصوفية البيضاء المزينة بخيوط صوف سوداء محلاة بالشراشيب السوداء، قاعدتها أقماع صغيرة من الفضة»[٣]. وكان الدكتور ألطونيان يركب حماره الأبيض

ويذهب إلى بيوت مرضاه، وكذلك كان يفعل الدكتور صموئيل. أما الحمير السود أو الرمادية فيركبها فقراء الناس. واستعملت البغال غالباً للحمولة، وهي التي تنتج عن التزاوج بين الحمير الذكور والأفراس الإناث.

ومع أن الحيوانات مرنة الحركة وصغيرة الحجم إلا أنها اعتبرت معيقة لحركة عربات الترام[٤]، فأصدرت الحكومة قراراً في كانون الثاني عام ١٩٢٩ يمنع مرورها من جادة الخندق[٥]، كي لا تعيق حركة الترام.

وفي آب ١٩٣٨ أبلغت رئاسة البلدية مديرية شرطة حلب قرارها بمنع الحيوانات المعدة لتحميل الأثقال من المرور والوقوف في شارع غورو وأقسام شارع فرنسا الواقعة بين جسر قويق وساحة البريد[٦] "شارع القوتلي حالياً".

ولكن يبدو أن استعمال الحيوانات كوسيلة للنقل لم يتوقف، على الرغم من تكرار القرارات المتخذة لمنعها، ففي يوم الأربعاء ٥ كانون الثاني ١٩٥٥ صرح محافظ حلب بأنه أوعز إلى ضابط شرطة السير بمنع مرور الطنابر والحمير في جادة الخندق، وقد تم بالفعل تطهير هذا الشارع من هذه الأنواع التي كانت تعرقل حركة المواصلات فيه. وقد رأى المحافظ أن يوجه كتاب شكر إلى ضابط السير النشيط لما قام به من أعمال باهرة في مختلف أنحاء المدينة[٧].

وما زالت الحمير تعتبر الوسيلة الفضلى لنقل الركاب والبضائع في الحارات الضيقة، وفي الأماكن الوعرة والصعبة المسالك كقلعة حلب، وكذلك في الأسواق القديمة، إذ لها موقف رئيس في سوق السقطية.

كما كانت الجمال تستخدم لنقل الأحمال والبضائع. ويبدو أنه كانت هنالك سوق خاصة للخيول والجمال تؤجرها البلدية سنوياً للاستثمار بطريقة المزايدة. فمثلاً في عام ١٩٣٨ قررت البلدية تلزيم سوق الخيل إلى السادة: الحاج أحمد الأسود والحاج مصطفى البيطار وأولاد بري بمبلغ قدره ١٦٠٥٠ ل. س، أما سوق الجمال، فقد التزمه الحاج علي الدرويش بمبلغ قدره ٤٠٠٠ ل. س.

وقد تقدم بعضهم عند عرض سوق الخيل للتعهد فدفع تسعة آلاف ل. س زيادة عن المقدار الذي دفعه الذين تعهدوه، وقد رفضت البلدية قبول هذه الزيادة وتلزيمه للزائدين، وذلك لأن هؤلاء يحاولون نقل السوق من مكانه الرسمي الذي بنته البلدية خصوصاً لهذه الغاية إلى مكانٍ آخر، وهذا العمل سيجر وراءه ذيولاً لا تحمد عقباها، والحوادث السابقة في السنين الماضية أكثر شاهد على ذلك، والحكومة في الوقت الحاضر بغنى عن خلق مشاكل من هذا النوع[٨]. "حسب تعليق جريدة النذير".

وسمعت أن أهل حلب عادوا في هذا العام "٢٠٠٣" إلى الجمال، ليزفوا العروس عليها ضمن هودج، كشكلٍ من أشكال الحنين إلى التراث.

العربة ذات الخيول «الحنتور»[٩]

الحنتور عربة مغطاة تجرها الخيل ولها مقاعد لجلوس الركاب «الصورة»، ويرى خير الدين الأسدي في الموسوعة أن الحنتور كان سائداً في حلب منذ أن فتح درب العربية، أي جادة الخندق[١٠]، ومن أنواعه: الحنتور الليلي، ويسمى أيضاً العربية الجركسية، ميزته أنه مغطى ويصلح للسفر[١١]. وكان لا يركبها إلا أغنياء المدينة والميسورون من رجالاتها،

وفي المناسبات أو الحالات الاضطرارية، إذ كانت أجرة النقل بالعربة تتراوح بين البرغوث والبرغوثين، حسب قرب المكان أو بعده، وكان البرغوث يساوي قرشاً فضياً، وعندما كانت أجرة الركوب في حافلات الترام بين ٥ و٧,٥ قرشاً سورياً، كانت أجرة الركوب بالعربة ١٠ قروش سورية.

وكانت العربات تتجمع في الساحات والأماكن الفسيحة كتراب الغرباء وساحة باب الفرج «الصورة»، وساحة باب الحديد وساحة الملح وساحة بزة، وأمام مدخل السبيل، وعند مقهى الكلداني وسينما ليلى، وغيرها. كما كانت تتجمع في محطة بغداد لتنقل الركاب القادمين بالقطار إلى داخل المدينة. وكان المواطن يذهب إلى هذه الساحات ليستأجر عربة تنقله إلى المكان الذي يريد الوصول إليه، كسيارات التاكسي حالياً. ولم يكن في حلب سوى عربتين مغلقتين، وأجرة الركوب فيهما مرتفعة، لذلك كان لا يركبهما سوى الأغنياء جداً، أو كانتا تستعملان لنقل العروس.

وكان من المعتاد أن يتسلق الصبية العارضة المعدنية التي تصل بين الدولابين الخلفيين للحنتور، فيقوم الصبية الآخرون «بدافع الغيرة» بتنبيه سائق الحنتور وهم يرددون: «عربنجي اضروب اضروب......»، مما دفع أصحاب الحناتير إلى أن يضعوا حاجزاً من القضبان الحديدية المدببة بين الدولابين الخلفيين لمنع الأولاد من التسلق.

ولم تكن العربة تستعمل لنقل الركاب داخل مدينة حلب فقط، بل كانت تنقل الركاب إلى الريف أيضاً. فقد ذكرت مجلة القربان حادثة غرق سائق عربة، بعد أن أوصل الركاب إلى قرية الوضيحي. يقول الخبر: ذهب الحوذي «سائق العربة» المدعو بطرس بو خاتونة من محلة الشرعسوس، يحمل في عربته رقم ٢٢ ثلاثة أشخاص إلى قرية الوضيحي بأجرة مجيديين، وبعد أن أوصلهم، قفل راجعاً في الساعة الثالثة عربية ليلاً، وقد تناول كمية من المسكرات، وعند وصوله إلى الرام الذي تتجمع فيه أقذار محلة باب النيرب، انقلبت به العربة، وغرق الحوذي، وبقيت جثته هناك حيث وجدتها رجال الشرطة[١٢].



هـذا وقـد صـارت ميتة أبـي خاتونة عبرة للناس، وصـار من يريد أن يدعو على عـدوه يقول لـه:» تـروح روحـة أبو خاتون[١٣]». يريد أن يموت ميتته.

إلغاء الحناتير:

مع تـزايد عـدد السيـارات في حلب، بدأ التفكير بإلغاء الحناتير، مع ضمان حقوق مالكيها، إذ إنها صارت معيقة لحركة السير في المدينة، وتسبب الكثير من الحوادث. ولقد نقلت لنا الجرائد التي كانت تصدر في تلك الفترة، الحوادث والمواقف والقرارات التي تتعلق بالموضوع، ونذكر فيما يلي بعضها:

ففـي شـبـاط ١٩٥٢ وبينـمـا كـانت إحـدى العربات العمومية تسير متجهة إلى البلدية في طريقها إلى السـراي، إذ بأحد الحيـوانـات الـتي تجرها تزلق رجله، فسقط على الأرض، وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة، حيث صادف مرور عدد كبير من سيارات الحكومة، وفي طليعتها سيارة المحافظ، وفي برهة وجيزة تجمع أمـام السجن ما يزيد على مئة سيـارة، فتعطل السير مـدة لا تقل عـن عـشـر دقـائـق. ودفـع هـذا الحـادث البلدية إلى دراسة مشروع إلغاء العربات «الحناتير» ودفع تعويض معقول لأصحاب العربات، واقـترح أحـد أعضاء المجلس البلدي أن يُعْطَوْا ضعف قيمة العربات، أو أن يتفق مـع وزارة الأشـغـال العامة على إعطاء كل واحد منهم نمرة سيارة ليستطيع أن يستفيد منها[١٤].

وفي أيـار ١٩٥٤ عـقـدت لجنة السير اجـتـمـاعـاً في مـكـتـب مـديـر الـدائـرة الفنية السيد عبد الوهاب فتال برئاسته وعضوية كلٍ من: ضابط السير الملازم أول زاهـد كـريـدي والمـلازم أول عمر نجم رئيس شرطة البلدية ورئيس مصلحة الإطـفـاء، ومـقـرر اللجنة السيد شفيق غضنفر، واسـتـعـرضـت قـراراً أصـدره المجلس البلدي فيما مضى بإلغاء عجلات الـركـوب «الحناتير» في المدينة بصورة تدريجية، ورأت التأكيد في اجتماعها هذا على مقام الرئاسة لتنفيذ القرار[١٥] كما طلبت مديرية الشرطة والأمن العام بحلب، بكتاب إلى المراجع المختصة، سرعة البت في اتخـاذ الإجـراءات الآنية لنظافة المدينة بإلغاء عربات الركوب وعربات الحمولة، بعد كثرة سيارات التكسي وسيارات البيك أب للحمولة، لتحافظ المدينة على نظافة شوارعها وجمالها، وتنفيذاً لقانون السير[١٦].

أما في تشرين الأول عام ١٩٥٤ فقد طالب أصـحـاب الحناتير في استدعاء تقدموا به إلى المحافظ بشأن إلغاء قرار البلدية القاضي بمنحهم التعويض الذي يـتـراوح بـين ٥٠٠ و٧٥٠ ل. س لكل عربة ملغاة، لأن هذا التعويض لا يوازي حقوقهم، كـمـا أن هـنـاك ٢٠٠ عـائلة مـهـددة بخطر الفاقة والـعـوز، ويطالب موقعو العريضة المـحـافـظ بـأن يعوض عليهم نمرة سيارة واحدة عمومية لكل عربتين. وقد وقع هذه العريضة زهاء مئة عربجي[١٧].

وفي ٣ تـشـريـن الـثـانـي ١٩٥٤ أقـدم بكري دركلت «عمره ٤٥ سنة»، وهو سائق عربة حنتور، على محاولة الانتحار

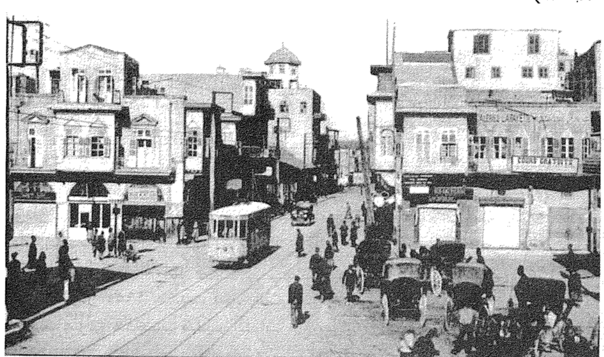
شنقاً، إذ علق حبلاً في إحدى نوافذ بلدية حلب، ثم وضعه في عنقه، لأنه يئس من استعادة عربته المصادرة عملاً بنظام إلغاء العربات. ولكن الجمهور الذي شاهده سارع لإنقاذه، وأنزلوه مخنوق الوجه، ونقل إلى دائرة البلدية، حيث أخذ المختصون بدراسة حالته من جديد على هدى ظروفه القاسية. وفي هذا اليوم أيضاً رفع أهالي محلتي قاضي عسكر وصاجليخان عريضة إلى مقام المحافظ يطلبون فيها العمل على منع مرور العجلات في الأزقة الضيقة خيفة على أرواح أطفالهم الصغار[18].

وفي آب ١٩٥٥ رفع اتحاد نقابات العمال بحلب عريضة إلى مديرية الشرطة والأمن العام، يطلب فيها منع العربات التي تتمركز في الشارع الممتد حول مكتب الاتحاد والمسمى بشارع سماقية، لما تسببه الخيول التي تجر تلك العربات من أقذار وأوساخ وروائح كريهة في ذلك الشارع، فهذا يضر بصحة السكان القاطنين فيه، ويعرقل حركة السير، خاصة أمام مداخل تلك الدور. هذا وقد أحال مدير الشرطة العريضة المرفوعة إليه إلى رئيس شرطة السير لمنع وقوف هذه العربات في ذلك الشارع[19].

ونتيجة لهذه المناقشات والقرارات صدر المرسوم ٢٨١٨ في ٢ أيلول ١٩٥٦ ونصه: إن رئيس الجمهورية السورية، بناءً على أحكام المادة ٧٤ من قانون السير الصادر بموجب المرسوم ٧١ في ١٩٥٣/٩/٢٦، وبناءً على اقتراح وزيري الداخلية والأشغال العامة والمواصلات، يرسم ما يلي[20]:

مادة ١: تمنع عربات الركوب التي تجرها الخيول من السير ضمن حدود مدينتي دمشق وحلب، وحتى مسافة خمسة عشر كيلو متراً من حدود هاتين

باب الفرج



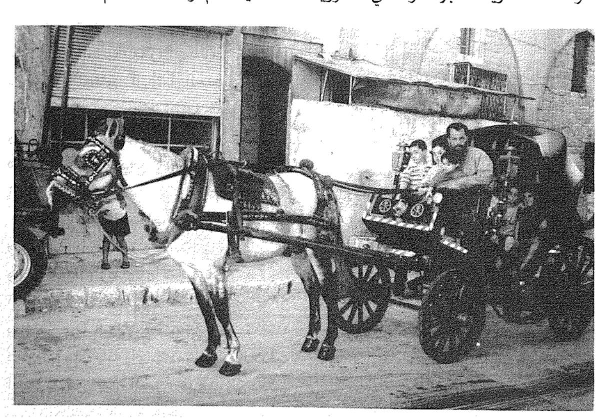
المدينتين، ويلغى تسجيلها لدى أمانة العاصمة وبلدية حلب.

مادة ٢: يحق لأصحاب هذه العربات التي ألغي تسجيلها أن يسجلوا سيارات سياحة عمومية بنسبة سيارة واحدة لكل عربتين يجري إلغاؤهما من السير، على أن يؤدوا إلى خزينة الدولة رسماً قدره ٥٠٠ ل. س عن كل سيارة، وعلى شرط أن تكون العربتان مسجلتين لدى أمانة العاصمة، أو بلدية حلب بتاريخ هذا المرسوم، ومسددتين الرسوم القانونية.

مادة ٣: يحظر بعد الآن على أمانة العاصمة وعلى بلدية حلب تسجيل عربات ركوب تجرها الخيول.

وقد اعترض أصحاب السيارات وسائقوها على هذا المرسوم، وطالبوا بإلغائه، ولما لم يلب طلبهم، قرروا في ١٠ أيلول ١٩٥٦ الإضراب إضراباً عاماً شاملاً احتجاجاً على عدم تلبية المطالب التي تقدموا بها، وقد توقفت السفريات عبر الأراضي السورية، بعد أن شمل الإضراب جميع المحافظات السورية، وانتشر الناس في الطرقات يبحثون عن وسائل المواصلات التي فقدت... ... هذا وقد شلت حركة المدينة زهاء ١٦ ساعة، وانتهى الإضراب ليلاً بعد أن تم الاتفاق بين اللجنة العليا لأصحاب السيارات في دمشق والمسئولين على حل الإضراب العام، وإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي بناءً على شروطٍ منها: تأليف لجنة خاصة لتقدير قيمة العربات العاملة والطنابر، ودفع تعويضات مالية إلى أصحابها بدلاً من منحهم النمر العمومية، شريطة أن تقسم هذه التعويضات إلى ثلاثة أقسام: تدفع البلدية الثلث، والخطوط الداخلية الثلث، وأصحاب السيارات العمومية الثلث[٢١]. ولكن لم يلق هذا الاقتراح قبولاً في الوزارة.

وهكذا تابعنا مسيرة الحنتور، تلك الواسطة التي كانت رئيسية ولا يستعملها إلا الأغنياء، ثم توقفت منذ عام ١٩٥٦.



عودة الحنتور:

عادت عربة الحنتور إلى الظهور في هذه الأيام كشكل من التراث الشعبي، ولكن ليركبها السياح، أو بعض الشباب من أبناء المدينة وزوارها، وخاصة المخطوبين حديثاً؛ فتنطلق من أمام فندق بولمان الشهباء «خلف مشفى حلب الجامعي» إلى بعض شوارع حلب، وأجرة الساعة الواحدة في هذا المشوار ١٠٠٠ ل. س. وأحياناً يزف بها العروسان وتتراوح أجرة زفة العروس ضمن مدينة حلب بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ ليرة سورية. ولقد روى لي بعضهم أنهم زفوا عروساً من بيت أهلها في حي الأندلس إلى صالة الأفراح فدفعوا أجرةً قدرها «٥٠٠٠» خمسة آلاف ليرة سورية. أما إذا كانت الزفة من حلب إلى مدينة أو محافظة أخرى فتتراوح الأجرة بين ٧٠٠٠ و١٠٠٠٠ ل. س. ولقد زفت عروس من حلب إلى إدلب بـ ٧٠٠٠ ل. س.

وبرر صاحب الحنتور ارتفاع تعرفة الركوب في عربته بأنه يكلفه كثيراً. وروى لي الحادثة التالية: فمرة أحب أحد الراغبين بركوب الحنتور أن يُقبّل الحصان، فجفل الحصان، وهاج، وصدم سيارة خاصة كانت واقفة بالقرب من فندق بولمان الشهباء، فغرمه صاحبها بدفع ١٢٠٠٠ ل. س كلفة إصلاحها.

وهذه العربة ملك خاص وغير تابعة للفندق، وتعمل في المواسم، وخاصة أيام الصيف، وأيام الأعياد، ويملكها شاب يقطن في محلة المشارقة، وعندما سألته كيف خطر له أن يستثمر عربة الحنتور بالشكل الذي وصفته أعلاه؟ أجاب بأنه رأى في دمشق وفي اللاذقية أناساً يقومون بهذا العمل، فذهب إلى دمشق واشترى عربة حنتور قديمة بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ ل. س، وأصلحها ورتبها وبدأ باستعمالها عام ١٩٩٨م.

ولكن يجر الحنتور العائد حصان واحد فقط، بينما كان يجر الحنتور البائد حصانان.

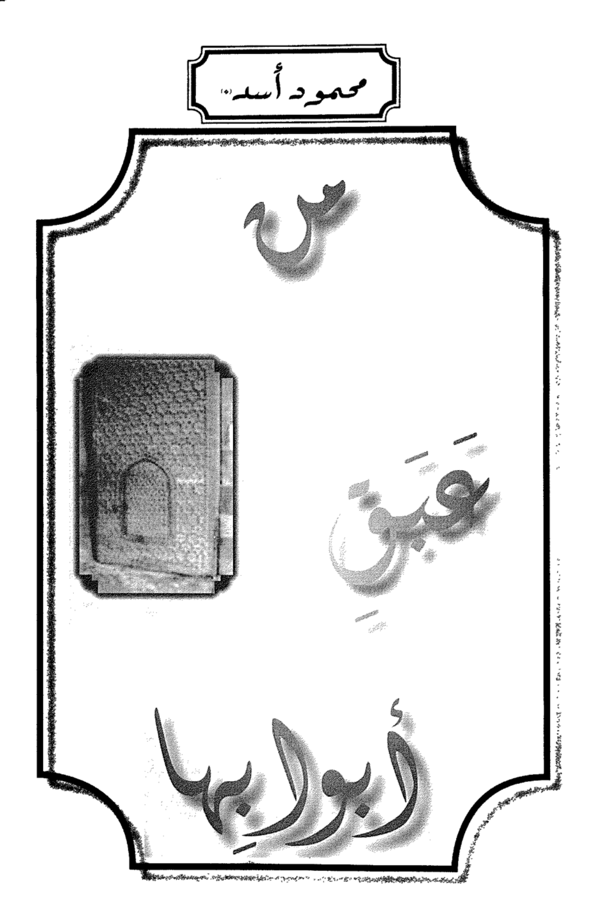
وكان هنالك حنتور آخر عند محل حلويات فرنسية، غربي جامع الصديق بالجميلية، وقد قدمه أصحاب المحل هدية إلى الأمير محمد بن زيد بن سلطان في دبي. كما يوجد حنتور معروض أمام فندق أمير حلب في باب جنين.

من الحنتور إلى الترام فالحافلات فالتاكسي، رحلة طويلة سريعة، عاشها أهل حلب في مسيرة التطور اللاهثة، ومن يدري إلى أين ستصل؟.

الهوامش:

١ - كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية ١٩٢٥، ٢/ (٤٤٧-٤٨).
٢ - فردينان توتل اليسوعي: وثائق تاريخية، المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٦٤، ١٠٢/٤.
٣ - خير الدين الأسدي. موسوعة حلب المقارنة، جامعة حلب ١٩٨٤، ٢٥٢/٣
٤ - بدأ الترام في شوارع حلب كواسطة من وسائط النقل الداخلي في الأول من كانون الثاني عام ١٩٢٩.
٥ - جريدة الأهالي ١٩٢٩/١/٦
٦ - جريدة النذير ١٩٣٨/٨/٢٨.
٧ - جريدة النذير ١٩٥٥/١/٥
٨ - جريدة النذير ١٩٣٨/١/٩.
٩ - الحنتور: من التركية عن الهنغارية Hinto، وجمعوها على حناتير (موسوعة حلب المقارنة ٢٦٨/٣)
١٠ - فتحت جادة الخندق عام ١٨٩٣/١٣١١.
١١ - موسوعة حلب المقارنة: ٢٦٨/٣.
١٢ - مجلة القربان: حلب، السنة الخامسة، كانون الثاني ١٩٣١، العدد ٩ ص٤٣٤.
١٣ - موسوعة حلب المقارنة ٤٥/١.
١٤ - جريدة الحرية، ١٩٥٢/٢/٢١.
١٥ - جريدة الحوادث، ١٧ /٥/ ١٩٥٤.
١٦ - جريدة الوطن، ١٩٥٤/٥/٢٧.
١٧ - جريدة الحوادث ١٩٥٤/١٠/٢٦.
١٨ - جريدة التربية، ١٩٥٤/١١/٣
١٩ - جريدة الشباب، ١٩٥٥/٨/١٣.
٢٠ - الجريدة الرسمية لعام ١٩٥٦، العدد ٤١.
٢١ - جريدة الشباب ١٩٥٦/٩/١١ ■

محمود أسد (*)



(*) شاعر وقاص، مدرس لغة عربية.

صَوتُك اليوم أحلى
فهل تُسْمعيني هديلكِ
قبل السَّحَرْ ؟
صَوْتُك الآن أشجى
ودمْعُك ما عادَ يشفيني
ما عَهدْتُك إلا صهيل جوادٍ
يُغني حتّى الشَّفَقْ ...
ثمَّ أرقصُ ، نرقصُ في نشوةٍ
نفْتَحُ الأبوابَ وَبابَ الفرجْ ...
لا تقُلْ : هذا وهمٌ
هذا بَعْضٌ مِنْ شَطط
لا تقولي : ضاعَ الندى
ماتَ بوحُ الجداول قبل السَّفَرْ
لا تقولوا : قد ضَيَّعَتْهُ الحروبُ
ونارُ الحروفِ العنيدة
ما عُدْنا نعرفُ أين بَابُ الظَّفَرْ ...
يا نَخْلَةَ عمري كفانا ضجرْ ...
كفاكِ انصياعاً ، فإني غريبُ الطباعِ
حزينٌ رصيفُ طفولتنا
قلعةُ القلبِ والحبِّ والحربِ
والنار والسِّلم
على نَهدة تبعَثُ البَعْثَ
تُصْدرُ صوتاً ، أنيناً ، نواحاً
وما مِنْ أحَدْ ...
حبيبَةَ دربي ! ألستِ الولادَةَ
تحكي لِكلِّ الجياع
لكلِّ الجناةِ صمودَ البلدْ ...

فَمَنْ قصَّ شَعْرَكِ
أجّرَ طُهْرَكِ للعابثينَ
بدمعِ النقاء ؟
فأيَّ الرجالِ يعيدُ الضيا ؟
يُشْعِلُ الوجدَ
يَبْعَثُ فينا الذي ماتَ ثمَّ خَمَدْ

* * *

وقبلَ الركوعِ على قارعاتِ الرصيفِ
وقبلَ اختصارِ الولادةِ جئتُمْ
ونحنُ بقايا
ونحنُ ننادمُ نَعْلَ الذينَ أماتوا الأمانَ
وفضوا بكارَةَ كلِ مَدَدْ ...

* * *

سأمضي إلى نَبْضِ أسواقها
أستميحُ البيوتَ ووهْجَ القبابِ
ليَغْتسلَ القلبُ فجراً ،
ومِنْ شدْوِ تلكِ المآذن
أسَبّحُ ، أشْرقُ حتّى تعود النّصاعةْ
سأرنو إلى صَوتِها ، أسلبُ الحبَّ في كلِ بابٍ
أغازلُ نَبْضَ الأزقّة ...
وصوتُ القبابِ يُزيحُ المخاوفَ
يزرعُ نجوى
يلامسُ حزْنَ الحسين
يجففُ ماء قويقٍ وكانَ إلى الأمسِ يجري
ربيعاً وخصباً ...
آتيك بلا موعد
أطرقُ البابَ ليّلاً

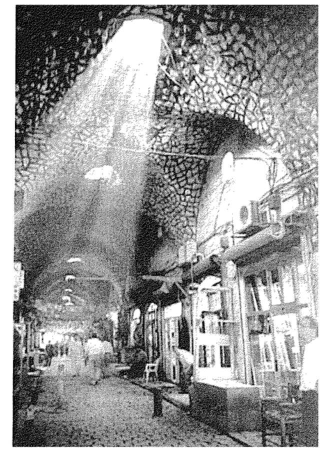
تمدّين جسرَ المودّة قبلَ العناقِ
وبعدَ انزلاق الشفاه نناجي
نبوحُ إلى أن يقومَ الشّجرْ ...
آتيك لأسكبَ عطري وحبي
وإني قبلْتُ الرّدى ...
سأتي الى مولدي والرياحُ تصافحُ عيني
تُصافحُ نزفي وخطوي
وبعضي يصافحُ لسعَ الغبار
ولسعَ الحجارةِ مرميّة في الفَراغ...
أراكِ تلومينَ إخوَةَ تلك الدروب
تلومينَ مَنْ تاجروا دونَ حسٍ بنبضِ الحجارة

* * *

سأحنو على كلِ بابٍ ، وفي كلِّ حي
سيَبْتُهُ التجاره ...
أبثُّه شوقي وحزني
وأعطيه قبلةْ . .
حروفُ القصائدِ صارتْ موائدَ شوقٍ
على كلِ بابٍ تبثُّ لواعجَها
تشتهي أنْ تعودَ الولاده ...
وإني لماضٍ إليك بطهري وحزني وخوفي
فمدي يديكِ
فأنتِ اليقينُ ... سواكِ خسارةْ...
سواكِ خسارةْ...

صباح محي الدين❖

في حلب، سوق قديم يعرف باسم المدينة، وهو في الواقع مدينة قائمة بذاتها يدخلها المرء من بوابة ضخمة تقع أمام القلعة الأثرية، فيجد نفسه في شبه نفق يأتيه النور من فتحات في سقفه العالي المحدب، وحين تعتاد عينا الزائر نصف الظلمة السائدة، يتبين من حوله دكاكين صغيرة ضيقة كأنها نواويس حفرت في صخر، وأمامها صفف تربع عليها الصناع والتجار كل يعمل في مهنته في الأسواق المختلفة ولكل من هذه الأسواق ألوانها وروائحها وأصواتها:





خرّاب البيوت

(❖) الدكتور صباح محي الدين (١٩٢٥ - ١٩٦٢)، ولد في حلب وقضى في حادث سيارة بالكويت له رواية وثلاث مجموعات قصصية.

سوق العطارين الذي تهب فيه نفحات الورد والياسمين والمسك والذريرة، وسوق الحذائين تتدلى أمام دكاكينه عناقيد من الأحذية الحمر والصفر والبيض، وسوق اللحامين بزفرته الحادة وجزوره المعلقة من عراقيبها وقتار الشواء فيه، وسوق النسوان ودكاكينه ذات واجهات زجاجية مضاءة تلمع فيها الأقراط والخواتم والعقود وتزدحم أمامها النساء لهن نقنقة كنقنقة الدجاج ازدحمن على بيدر قمح. . . . وأسواق كثيرة أخرى كنت منذ صغري أحب أن أتجول فيها وأضيع أو أضيع نفسي فأجد في ذلك لذة المغامرة والاستكشاف حتى أرى نفسي أمام الجامع الكبير فأدخله وأستريح في أحد أروقته الواسعة الساكنة، وأقضي وقتاً طويلاً وأنا أتأمل الساعة القديمة فيه، تعد الثواني والدقائق، وتدل على منازل القمر ومواقع النجوم.

وبين سوق العطارين وسوق النسوان ممر غير طويل، على جانبيه دكاكين أكثر ظلمة من غيرها لها واجهات زجاجية عتيقة مغبرة، ترى العين من خلالها - بصعوبة- مزيجاً عجيباً من القوارير والنراجيل والخواتم والكتب المطبوعة والمخطوطة، وتماثيل حثية ونقوداً أفريقية ورومانية، وقطعاً من الخشب المنقوش، كأن الزمن في جريه المسرع ألقى بها في هذه الزاوية من السوق القديم ونسيها، فظلت هناك حطاماً في قعر بحر عميق.

وكنت أمر بهذه الدكاكين وأتوقف طويلاً أمامها، يستهويني ما في واجهاتها من أشياء، أتخيل لكل منها حياة وتاريخاً حافلاً، وأسلم نفسي لأمواج من الصور ولدفقات من الأساطير تستثيرها هذه البقايا من ماض سحيق.

ولم يكن يخطر ببالي أني سأدخل أحد هذه الدكاكين ذات يوم. . . لولا صديقي وزميلي في المدرسة كمال ابن الحاج عبد الله. . . وكان الحاج عبد الله يقبع في أحد هذه الدكاكين ويتزعم السوق بأكمله إذ كان أقدم التجار فيه، وأبرعهم في الشراء والبيع، وخاصة في البيع. وكان إلى جانب اشتغاله بالأنتيكات كما كان يسميها، مولعاً بالقصص القديمة، مدمناً على قراءة سيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة وحمزة البهلوان و فيروز شاه يجد فيها متعة فريدة -إني أترك السينما لأمثالكم من الجهال. فهل في السينما شيء يساوي فصلاً من ألف ليلة وليلة؟ - ويجد فيها كذلك - كما فهمت فيما بعد - معيناً لا ينضب وحافزاً لا مثيل له على خلق حكاياته التي يبيع بها بضاعته.

وكنا - كمال وأنا - نعرف من الفرنسية والإنكليزية بضع كلمات تساعدنا على الترجمة بين الحاج عبد الله والسياح المساكين الذين يسوقهم تجوالهم في المدينة إلى دكانه.

وكان الحاج عبد الله يؤمن إيماناً قاطعاً بصحة ما يخترعه خياله، وما يأتي به تفاعل قراءاته الغريبة مع رغبته الصادقة في تصريف بضاعته. فكم مرة رأيته يشتري قبقاباً قديماً بنصف ليرة، وإذا به ينقلب بعد أسبوع أو أسبوعين إلى القبقاب الذي قتلت به شجرة الدر زوجها، أو كم مرة باعه أحد الفقراء سيفاً عمره خمسون سنة فإذا به يصبح شاكرية الظاهر بيبرس التي حارب بها المغول.

وهكذا أصبح الحاج عبد الله[1] مالكاً سعيداً للقميص الذي كفن به

---

(١) في الأصل محمد.

سيف الدولة، والغليون الذي كان يدخن فيه السلطان سليمان القانوني. . . وحتى السجادة الخلقة التي يتربع عليها!- لا أبيعها يا سيدي. إنها السجادة التي كان يجلس عليها صلاح الدين الأيوبي يوم فتح القدس. . . ولكن من أجلك أنت، لأنك صديقي ولأنك تقدر قيمة الآثار. . . . ثمنها مئتا ليرة . والنارجيلة التي يدخن فيها!. . إنها أثرية نادرة بل فريدة. . . أتى بها السلطان سليم من بغداد بعد أن فتحها. ووصلت إلي من قبة قصر دولمه باشه بطريقة سرية. . . . غالية الثمن.

وكان من بين زبائنه غني حرب يريد أن يظهر فكان يشتري من عند الحاج عبد الله، بين الحين والحين، قطعة أثرية يزين بها بيته. وذات يوم كاد الغني يخرج من الدكان دون أن يشتري شيئاً على الرغم من أن الحاج عبد الله ذلك اليوم قد أبدع في الاختراع والتأليف حول كل ما في دكانه من حطام. ولكنه لم يكن ليعرف معنى لكلمة مستحيل، فأمسك الغني من كمه وقال له:

-أنت صاحبي ، وعزيز علي. . . ولذلك. . . ولذلك فقط سأريك قطعة فريدة حبيبة إلى قلبي. . . ما كنت لأتخلى عنها. . . ولولا أنك تفهم وتقدر قيمة الأشياء. . .

وفتح جراراً في طاولة مخلعة وأخرج خاتماً من الفضة، أسود الحجر كامد اللون، ورفعه بعناية فائقة بين إبهامه والبنصر، وعرضه للنور السقيم الآتي من الباب، وقال:
- انظر إلى هذا الخاتم. . . ما أعجبه! ليس له مثيل في العالم. . . . فريد. . .

وأخذ الزبون الخاتم وحدق فيه وفي الكتابة الغريبة المنقوشة على حجره، وقلبه بين يديه ثم قال:

- هذا الخاتم لا قيمة له. . . حجره هجين لا يساوي شيئاً. وكأنما طعن الحاج عبد الله في صدره فأنَّ يقول:

- ما أظنك إلا مازحاً يا سيدي. . . وما أظن أن قيمة هذا الخاتم تخفى على فهمك. . . إن فيه طلّسماً عجيباً.

فابتسم الزبون وقال: - لعله خاتم سليمان يا حاج. . . لبيك عبدك بين يديك.

فنظر الحاج عبد الله إليه بشفقة وقال:
- إن الخواتم التي تجلب السعد كثيرة. . . أما هذا. . . هذا الخاتم فإنه يجلب النحس.

وكنا، ابنه وأنا، واقفين نستمع إليه. ووكزني ابنه وهمس في أذني : - استمع إلى والدي حين يركبه شيطان الاختراع. . . لو أراد أن يكتب قصصاً لربح منها أكثر من تجارته هذه.

واستمر الحاج عبد الله يقول: - هذا الخاتم اسمه خرّاب البيوت. . . وهذه الكتابة عليه. . . كتابة باللغة. . . باللغة المسمارية ومعناها: لِدوا للموت وابنوا للخراب.

إذا كنت صحيحاً، فإن هذا الخاتم يمرضك. . . وإذا كنت حياً فإنه يجلب لك الموت. . . لقد صنع هذا الخاتم ساحر عظيم في بابل. . . لأمير كان يعيش في قديم الزمان، ووضع عليه هذا الطلسم. . . إنه خاتم فريد. . . بخمسين ليرة فقط. . . ما قولك؟

فقال الزبون: - وتريدني أن أدفع خمسين ليرة بخاتم يجلب النحس. . . ثم لا أرى أنه يجلب النحس لك يا حاج. . .

ارتسمت على وجه الحاج عبد الله علامات الرثاء وتنهد فعل الصابر الكاظم للغيظ وقال:

- مهلاً. . . مهلاً. . . اسمع وتعلم يا سيدي. . . فإني لم أقل لك كيف يجلب هذا الخاتم النحس، فإنه لا يضر المشتري بشيء ولكنك

إذا أهديت الخاتم إلى شخص، فإنه يصبح عرضة لأفظع المصائب. . . هذه هي الميزة الفريدة لهذا الخاتم. . ألا ترى؟.

لقد وقع الأمير في حب أميرة كانت تحب أميراً غيره. . . فدفع للساحر مبلغاً ضخماً كي يصنع له هذا الخاتم فأهداه لغريمه. وبعد ثلاثة أيام فقط خرج الأمير الثاني للصيد فهجم عليه أسد وأكله وحزنت عليه الأميرة وماتت أسى بعد ثلاثة أيام. . . واستعاد الأمير خاتمه، واحتفظ به. ولكن أحد الحراس في مقره سرقه.

قال المشتري: - وما الذي حدث للحارس؟.

- سرقة الخاتم مثل قبوله هدية ، تجلب النحس. . . يجب شراؤه ودفع ثمنه إذا أراد المرء ألا يصيبه شره. وخرج الحارس مرة للسفر فوقع في أيدي لصوص فتكوا به وسرقوا الخاتم فباعوه لتاجر في دمشق. ولكنهم لم يكونوا قد دفعوا ثمنه. فألقي القبض عليهم وقطعت رؤوسهم. ولكن التاجر باع الخاتم لفارس شاب. . . ولم يصبه شر لأنه كان قد دفع ثمنه للصوص. وكان الفارس فقيراً يداري عماً له بخيلاً شريراً فأهداه الخاتم. وفي اليوم ذاته سقط العم عن السطح فدقت عنقه، فورث الفارس كل ثروته. . . وهكذا انتقل الخاتم من شخص إلى آخر. . . في إمكاني أن أقص عليك حكاياتهم طيلة النهار. . . خذ الخاتم بخمس وعشرين ليرة. . . ما قولك؟.

فأجاب المشتري: - ليس عندي عم غني، وليس عندي عدو أريد التخلص منه، . . . وكذلك ليس معي خمس وعشرون ليرة.

فقال الحاج عبد الله: - ربما ظننت أنني أخترع.

فقال الزبون: - معاذ الله! معاذ الله!.

- لا. . . لا. . لا. . إني أرى. . . أنت تظن أنني أكذب عليك. . . ولا ينقصك إلا أن تتهمني علانية. أنا الذي أعتبرك صديقاً لي. . . . وأريد أن أخدمك وأنفعك فأبيعك هذا الخاتم الثمين بخمس وعشرين ليرة، فتقول لي إني محتال ، . . . . طيب!.

- ولكن يا أبا كامل هدىء روعك. . . . إني أصدقك.

واضطر ، تلطيفاً لخاطره ، أن يشتري بعشر ليرات صحناً من الصيني كان يأكل فيه تيمورلنك يوم فتح حلب.

وسمعت فيما بعد أن الحاج عبد الله باع خرّاب البيوت إلى أحد التجار واستحلفه أن لا يهدي الخاتم لأحد ، بل يبيعه بيعاً.

وذات يوم فتحت إحدى الصحف الصباحية فطالعني عنوان ضخم في الصفحة الأولى:

خاتم يجلب الموت.

روعت المدينة أمس بموت التاجر الوجيه السيد. . . . إذ دهمته سيارة وهو يخرج من مكتبه.

وتقول الإشاعات إنه راح ضحية خاتم يجلب النحس لصاحبه أهداه إياه شريكه التاجر. . . .

ولكن الذين يعرفون الصداقة المتينة التي تربط التاجرين، لا يسعهم إلا أن يعاملوا هذه الإشاعات بالاحتقار الذي تستحقه.

ورث الخاتم وثروة التاجر ابن أخ له، وكان شاباً لا خير فيه سرعان ما بدد ما ورثه، ورهن الخاتم وزوّر عدداً من الشيكات فأدخل السجن حيث مات بذات الجنب.

وراح مسترهن الخاتم يستثمر قصة الشاب ويضخمها للدعاية للخاتم، فجاءه مقاول غني من إحدى البلاد المجاورة واشتراه بمبلغ كبير، وأضافه لمجموعته الخاصة من غرائب الأحجار والتماثيل. ولكن لصاً سطا على المجموعة، فلمحه شرطي فتبادلا إطلاق

الرصاص فأصاب اللص الشرطي في كتفه، إلا أن الشرطي أصابه في بطنه، فنقل إلى المستشفى حيث مات شر ميتة، وعاد الخاتم إلى صاحبه الذي اشتراه. وذات ليلة كان الولد الوحيد لهذا المقاول قد أقام سهرة دعا إليها أصدقاءه... وطرب الحاضرون، وتحدوا الفتى أن يأخذ الخاتم من مجموعة والده ففعل. وركب عند الصباح سيارته وخرج في نزهة، وكانت سيارته من آخر طراز، تسابق الريح، وفي أحد المنعطفات فقد سيطرته على المقود فخرج عن الطريق ولقي حتفه.

واستبد الحزن بالوالد فباع الخاتم لأول مشتر. وكان الخاتم قد ذاعت شهرته. وغلا سعره، وراح الهواة يتهافتون عليه ويعرضون المبالغ الطائلة ثمناً له... في حين أن الحاج عبد الله عرضه أول مرة بخمس وعشرين ليرة فلم يجد مشترياً.

ومضت الأيام، واستقرت بي أعمالي في بيروت... وذات يوم كنت أقف في ساحة البرج، واستجمع شجاعتي لأعبر البحر الخضم من السيارات المتسابقة المتصايحة، وإذا بأحدهم يشدني من كمي، فالتفت ولم أعرف لأول وهلة الشخص الذي بادرني يقول:

مرحباً...

ولحظ أني أدقق النظر فيه فقال: - نسيتني يا شيخ.. أنا كمال.... ابن الحاج عبد الله.

فقلت له معتذراً: - لا تؤاخذني... لم أكن أتوقع أن أراك هنا... ثم لقد تغيرت كثيراً.

والواقع أنه كانت عليه ملامح الوجاهة والثراء.

وسألته عن والده فقال: - لقد انتقل إلى رحمته تعالى... وأظن أنه مات سعيداً... هل تذكر خاتم النحس... خرّاب البيوت؟.

وعادت بي الذاكرة إلى الأيام البعيدة ورأيت أمام مخيلتي الحاج عبد الله في دكانه المظلم يخترع الحكايات والقصص، ولا يهدأ له بال حتى يبيع الداخل على دكانه شيئاً، أي شيء.

وعاد كمال يقول: - وهل تذكر الأسطورة التي رافقت الخاتم؟.

- نعم... خصوصاً وقد اخترعها والدك أمامي.

فضحك وقال: - رحمة الله عليه، ما كان أشطره. لو أن عندي نصف عبقريته في الاختراع... إن الأسطورة التي خلقها جعلت خرّاب البيوت شيئاً فريداً... لقد دفعوا لي فيه أربعة آلاف ليرة.

فقلت:

- وهل عاد إليك؟.

- نعم لقد اشتريته بواسطة عميل لنا بثلاثة آلاف ليرة... أنا واثق أنه سيباع بخمسة آلاف، ثم لقد فكرت في أن والدي سيسر برؤيته من جديد وكان مريضاً طريح الفراش... ورأيت أن أفاجئه ذات يوم فقلت له إني حصلت على الخاتم، فسر سروراً عظيماً...

وقلت له: - تفضل يا أبت... أنت الذي خلقت أسطورة هذا الخاتم، فجعلت من حجر قيمته فلسان جوهرة فريدة... ثمنه آلاف الليرات... وهأنا أهديه لك...

وتقبل هديتي شاكراً ووضع الخاتم في إبهامه، ثم سألني: كم دفعت ثمنا له؟ وحين قلت له: ثلاثة آلاف ليرة انتصب في سريره وكأن حيّة لسعته، وصاح: - آه.

ثم انقلب ميتاً.... بالسكتة القلبية.... قلبه لم يتحمل المفاجأة.... رحمه الله.

فقلت:رحمه الله... وصمتنا لحظة، ثم قال: - وداعاً... عندي موعد مع مليونير يرغب في شراء الخاتم... سأطلب منه ٥٠٠٠ ليرة■

أعلام الموسيقا والغناء في حلب الشهباء

محمود كحيل*

من ١٨٥٠م إلى ١٩٥٠م

عُرفت مدينة حلب على مرّ العصور بتراثها الحضاري الكبير، تاريخاً وعمراناً وآثاراً وفكراً وفناً. فقد كانت ملتقى الحضارات ومجمع الثقافات، وبقعة امتزجت فيها الشعوب بمختلف أجناسها وانتماءاتها، فامتزجت بذلك ثقافاتهم وآدابهم وفنونهم، حتى استحالت خلاصة فريدة طبعتها بطابعها، ووسمتها بسماتها المعروفة. وربما كان الفن الغنائي والموسيقي من أبرز الفنون التي تأصلت وتجذرت في أرضها، والتصق بها أبناؤها.

وإذا كان مجتمع الحمدانيين في حلب قد حفل بالأدباء والشعراء والكتّاب والفلاسفة، فإنه قد استوعب أيضاً الفنانين والمطربين والمطربات منذ ذلك الحين.

وكلما ذكرت حلب الحمدانية ذكر أبو الطيب المتنبي والفارابي وأبو الفرج الأصفهاني، وإذا كان المتنبي شاعر العربية الأول فإن الفارابي هو المعلم الثاني وهو موسيقي عالم، فضلاً عن كونه فيلسوفاً، وفيها أنجز كتابه " الموسيقي الكبير"، كما كان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني هدية أولى ثمينة لسيف الدولة الحمداني.

ولعل حلب كانت أكثر حظاً في نبوغ أبنائها من الفنانين بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر

* مدرس الأدب العربي في جامعة حلب

حتى منتصف القرن العشرين. فقد شهدت هذه الحقبة ميلاد أو تألق عدد كبير من نوابغ الفن الغنائي والموسيقي في حلب.

وربما كان الشيخ الفنان أحمد عقيل "١٨١٣ ـ ١٩١٣م" من أبرز أولئك النوابغ، فقد تعلّم الموسيقا والغناء في حلب، ثم زار استانبول واحتك بكبار فنانيها، كما تعرف إلى بعض كبار فناني مصر، وكان منشداً وملحناً كبيراً، كما أنه عكف على فن رقص السماح فأخرجه من سباته الطويل، وجدّده، ولقّنه تلامذته، ولا سيما عمر البطش. وما من شك في أن ما قدمه الشيخ أحمد عقيل من نتاج فنّي راقٍ طوال أكثر من سبعين عاماً يتبوأ مكانة كبيرة، حتى قالت عنه زوجة القنصل الإيطالي في حلب وكانت تدرس الموسيقا العربية على يديه: إن هذا الفنان قلّ نظيره حتى في أوربا.

ومن فناني هذه الحقبة المتألقين الفنان الشاعر محمد الوراق "١٨٥٨ـ١٩١٠م" ومصطفى المعظم "١٨٢٩ـ١٩٢٩م" أستاذ عمر البطش. ومنهم الفنان الشاعر محمد النشار "١٨٥٣- ١٩١٠م" ملحن الموشحات والقدود وناظمها المعروف، والشيخ محمد صالح الجذبة " ١٨٥٨-١٩٢٢م" العالم الموسيقي الكبير، الذي ألف عدداً من الكتب في الموسيقا، كان من أبرزها: "سفينة الحقيقة في علم السماح والموسيقا" في "١٤٠٠" صفحة. أما في التلحين فقد لحّن ما يربو على "٩٠" موشحاً من مقام الحجاز فقط، ناهيك عن ألحانه من المقامات الأخرى.

وبين الشيخ أحمد عقيل ومحمد صالح الجذبة أسماء كثيرة، كان لها إسهامها الكبير في نهضة الموسيقا والغناء في حلب إبان تلك الحقبة.

بيد أن عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥م وما بعدهما قد شهدا ميلاد عملاقين كبيرين من عمالقة الغناء والموسيقا في حلب، وهما الشيخ علي الدرويش والشيخ عمر البطش.

فأما الشيخ علي بن إبراهيم الدرويش " ١٨٨٤ ـ



رواد الموسيقا في سورية ١ـ فخري البارودي ٢ـ عمر البطش ٣ـ توفيق المنجد ٤ـ صباح فخري ٥ـ محمد خيري ١٩٤٥ أرشيف عامر مبيض

١٩٥٢م " فقد بدأ رحلته مع الموسيقا من خلال حبه لأصحاب الطريقة المولوية - المنسوبة إلى الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي - حيث كان يصحبه والده إلى مجالسهم، وهناك وجد نفسه متعلقاً بكل ما يسمعه من إنشاد وموسيقا. فأخذ العزف على آلة الناي والصولفيج والتدوين الموسيقي عن فنانين أتراك. كما أخذ الموشحات والقدود عن فناني حلب آنذاك من أمثال أحمد الشعار وأحمد جنيد وأحمد عقيل وصالح الجذبة وغيرهم...

كل ذلك إلى جانب دراسته العلمية التي لم يتخلّ عنها...

وفي عام ١٩١٢ سافر الشيخ علي الدرويش إلى إمارة المحمرّة في عربستان بصحبة فرقة غنائية موسيقية كان من أبرز أعضائها الشيخ عمر البطش. ومكث هناك سنتين، زار خلالها الهند وطهران وبغداد والبصرة، وأفاد من موسيقا تلك البلدان والشعوب، عاد بعدها إلى حلب، ثم التحق عام ١٩١٤ بعمله مدرساً للموسيقا في مدينة قسطموني في تركيا بعد أن فاز بمسابقة اختيار مدرسي الموسيقا.

الموسيقار الحلبي عمر البطش



وظل في عمله حتى عام ١٩٢٣، ولكنه كان إلى جانب التدريس يقوم بدراسة موسيقية في دار الألحان في استانبول، وقد أثمرت دراسته تلك كتباً ومؤلفات، حيث وضع أصول كتابه " النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية ". الذي يتحدث فيه عن تاريخ الموسيقا وآدابها وأصواتها، وتحليل مقاماتها وإيقاعاتها وتدوينها.

وذاعت شهرة الشيخ علي الدرويش فناناً وملحناً ومدرساً ومؤلفاً، فدعي إلى مصر لتدريس كتابه المذكور في معهد الموسيقا الشرقية بالقاهرة، عام ١٩٢٧، وعمل مدرساً للموسيقا هناك حتى عام ١٩٣١، وكان من تلاميذه آنذاك كل من رياض السنباطي ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم، كما استغل وجوده في القاهرة فسجّل مقطوعات موسيقية من تأليفه لشركات الأسطوانات هناك، كما تعرّف إلى كبار الفنانين من أمثال سيد درويش ومحمد القصبجي ونجيب الريحاني والمستشرق الإنكليزي الباحث في الموسيقا "البارون دير لانجيه" الذي دعا الشيخ علي الدرويش إلى تونس ليدرّس فيها حيث كان يقيم هناك ويمتلك مكتبة زاخرة بالكتب والمخطوطات، ولا سيما في الموسيقا، ولبّى الدعوة، وشارك البارون أبحاثه وتحقيقاته، حيث نسخ مخطوط كتاب الفارابي "الموسيقي الكبير" واحتفظ به. وخلال إقامته في تونس دعي إلى القاهرة لحضور المؤتمر الأول للموسيقا العربية عام ١٩٣٢.

فشارك في المؤتمر، في لجنتي المقامات والإيقاعات بأبحاث قيمة، حيث كان لمشاركته أثر بالغ في النتائج التي توصل إليها المؤتمرون ولا سيما فيما يتعلق بإحصاء الإيقاعات التي قام بها الشيخ علي الدرويش.. كما شارك في حفلات المؤتمر أيضاً.

ثم عاد إلى تونس مدرساً للموسيقا في المعهد

الرشيدي للموسيقا التونسية، وكان من ثمرة وجوده في تونس جمعه وتدوينه لنحو "١٤" نوبة أندلسية، ومجموعة من الموشحات الأندلسية.

عاد إلى حلب عام ١٩٣٩ ومكث فيها حتى عام ١٩٤١ مسهماً في نهضة موسيقاها ومشاركاً في نشاطاتها الفنية، ومدرساً للموسيقا، ثم سافر بعد ذلك تباعاً إلى دمشق، مدرساً في المعهد الموسيقي عام ١٩٤٢. فالقدس عام ١٩٤٤ لتسجيل أعمال غنائية وموسيقية والإشراف على تدريب الفرق، ثم العراق من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥١ مدرساً في معهد الفنون الجميلة ببغداد.

وبعد عودته إلى حلب ١٩٥١ شارك في نشاط إذاعة حلب التي كانت حديثة العهد.. وفي التدريس والتأليف، إلى أن وافته المنية عام ١٩٥٢م. بعد أن ترك إرثاً فنياً موسيقياً كبيراً، ففضلاً عن كتابه المذكور آنفاً وأبحاثه المختلفة في الموسيقا له "٦" بشارف، ولونغا، وقطعة تركية الطابع، ومارشان عسكريان، وذلك من مقامات موسيقية مختلفة. والحق يعدُّ أن علي الدرويش أحد أبرز علماء الموسيقا العربية ومعلميها في القرن العشرين.

وأما الشيخ عمر بن إبراهيم البطش "١٨٨٥ - ١٩٥٠م" فهو أحد أبرز ملحني الموشحات في البلاد العربية في القرن العشرين، وقد استطاع هذا البَنَّاءُ البسيط الذي يحسن التعامل مع الحجارة الحلبية نحتاً وزخرفة وهندسة أن يبدع فناً من لون آخر، أخرج من خلاله الموشح الأندلسي القديم من إطاره التقليدي إلى آفاق جديدة، فازدان بحلة قشيبة، ميَّزتْه ووسمته بطابع حلبي جديد، ولذلك فالبطش يعدُّ بحق رائد فن الموشح ذي الطابع الحلبي.

نشأ عمر البطش في أسرة متواضعة حيث كان والده يعمل في مهنة البناء والعمارة، فكان ساعده الأيمن، وفي الوقت نفسه كان يصحب خاله بكري القصير إلى حلقات الأذكار والإنشاد، فيزداد شغفه بالفن يوماً بعد يوم، إلى أن حفظ الكثير من الموشحات الدينية والقدود، والقصائد. ولفت أنظار من حوله بذكائه وموهبته فجعل خاله يوصي به أرباب الفن والموسيقا في حلب ليتعهدوه بالعناية والعلم، فأخذ عمر البطش عن كبار أساتذة المدينة من أمثال الفنانين: الشيخ أحمد عقيل و صالح الجذبة ومصطفى المعظم، وغيرهم.

وما إن أنس الفتى في نفسه تفتح الموهبة، وحب التلحين، وشرع في ذلك فعلاً حتى اضطر إلى الالتحاق بالجندية الإجبارية عام ١٩٠٥م، ولكن الأقدار ساقته إلى حيث يستأنف تعلُّمه ويبدع فنه، فكان عازفاً في الفرقة الموسيقية العسكرية على آلة " البكلة " وأفاد في هذه الفترة من علم التدوين الموسيقي، ولدى عودته إلى حلب بعد انتهاء خدمته عمل منشداً وضابط إيقاع في أكبر مسارح حلب، وبدأ نشاطه الفني يزداد ويتسع، ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ حال دون إتمام ذلك حتى حين، فاستدعي ثانية إلى الجندية، ومرة أخرى شاء له القدر أن لا يبتعد كثيراً عن ميدانه الفني الذي خلق له، فكان عازفاً على آلة الترومبيت في الفرقة العسكرية الخاصة بالوالي العثماني جمال باشا.



الموسيقار علي الدرويش

في أثناء خدمته كان مكوثه في دمشق فرصة للتعرف إلى فناني دمشق، فأفاد منهم وأفادهم بما لديه. وكان البطش قبل ذلك قد سافر إلى إمارة المحمرّة في عربستان والعراق مع الفرقة الحلبية التي ترأّسها الشيخ علي الدرويش.

وبعد عودته إلى حلب وخدمته في الجيش العثماني أيام الحرب العالمية الأولى، ظلّ في مدينة حلب يزاول مهنته وفنه، ويبدع كثيراً من الموشحات التي كان معاصروه وتلامذته يتلقفونها ويحفظونها، فضلاً عن إبداعه المتميز في فن رقص السماح الذي أصبح يقرن باسمه، لما أولاه من عنايته، وأفاض عليه من عبقريته، فأبدع عدداً من وصلات الموشحات بإيقاعات مختلفة، وصمّم لها رقصات جديدة، محرراً بذلك فن رقص السماح من رتابته القديمة، وحركاته البطيئة وهكذا سخّر البطش ما كان يحفظه وما كان يبدعه من فن الموشح وفن رقص السماح في خدمة الفن، يدرّسه، ويعلمه طلاب العلم، من كل مكان، وأصبح لذلك مقصد شداة الفن الأصيل وعشّاقه من حلب وغيرها.

يقول الأستاذ مجدي العقيلي في كتابه " السماع عند العرب، ٤٧/٣٠. "ومن معجزات هذا الفنان أنه كان يحفظ ما ينوف على ألف موشح كما كان يحفظ سائر النغمات العربية والموازين الإيقاعية مع سيرها السماح إنه كان عالماً بفنون الموسيقا وبفنون تدوينها النوطة فهو نسيج فني رائع لا يجارى في ميدانه الموسيقي الذي اتسم عام ١٩٣٦ بطابعه ".

ولما طارت شهرته وشاع ذكره طُلب إليه أن يحضر إلى دمشق عام ١٩٣٦م ليعلّم فتيات مدرسة دوحة الأدب الموشحات، ويدربهن على رقص السماح، فابتكر لذلك وصلات جديدة غاية في الإبداع. مما جعل وجهاء دمشق ورجال الدولة يثنون على فنه، ويعجبون بعبقريته، واستدعي إلى دمشق مرة ثانية ليدرس في المعهد الموسيقي ففعل، ولكن المرض عاجله، فعاد إلى حلب وتوفي فيها سنة ١٩٥٠م.

لقد قدّم هذا الفنان الكبير لفنّي الموشح ورقص السماح خدمات جليلة، مازالت آثارها حتى اليوم من خلال نتاجه الفني الذي دُوِّن بعضه، أوسُجّل، ومازال يقدم بأصوات الفرق الغنائية والمطربين الكبار من أمثال الأستاذ صباح فخري وغيره، ومن خلال تلامذته الذين أصبحوا أساتذة في هذا الفن من أمثال عبد القادر حجار وبهجت حسان وحسن بصّال. والحق إن ما لحّنه البطش من الموشحات، وقد تجاوزت "١٥٠" موشحاً، من مقامات موسيقية معروفة أوغيرمطروقة مثل اليكاه والسيكاه.... وإيقاعات أصيلة، يتميز بالثراء الفني، والأصالة والعمق، فضلاً عن جماله ورشاقته، وامتلائه بعناصر الطرب،

واتسامه بالرقي والسمو. ولعل من أبرزه، وصلات "الحجاز كار كرد: يمر عجباً ـ ياذا القوام السمري ـ في الروض أنا شفت الجميل، والنهاوند: قلت لما غاب عني ـ سبحان من صوّر حسنك، والهزام: رمى قلبي ـ يا معير الغصن "وكذلك إكماله لخانات كثير من الموشحات التي لحنها الشيخ سيد درويش، مثل: يا شادي الألحان. منيتي عزّ اصطباري، وغيرهما.

وصفوة القول إن الفنان الشيخ عمر البطش كان ذلك الفنان المتعلّم أبداً، والمعلم أبداً، والمبدع حيثما كان، والمتفوق على أساتذته ومعاصريه براعة وعبقرية، ولا عجب بعد ذلك أن نصدق ما روي عنه وذكر في الكتب من مساجلات فنية خرج منها منتصراً ومعلّماً ومتفوّقاً، فاستطاع بفنه العظيم أن يتواصل مع الفنان الكبير الشيخ سيد درويش، فأفاد كل منهما الآخر، وأتمّ البطش لسيد درويش ما كان ناقصاً في بناء موشحه الفني. وهو الذي علّم الموسيقار محمد عبد الوهاب ـ وكان في بداياته ـ درساً في فن ارتجال اللحن الخالد، حينما كان في زيارة لحلب، وسأل البطش عن موشحات حلبية من مقام السيكاه، ولمّا لم يكن آنذاك ما يشفي غلّة السائل. أبدع البطش في ليلة واحدة وصلة من الموشحات من هذا المقام، وأسمعها للفنان الجديد. وهو الذي كان حجة في الموسيقا في دمشق فكان يجادل الفنان التركي رفيق فرسان في كل صغيرة وكبيرة، وكان يحسن الجدال، حتى اعترف له مناظره بعلو كعبه وطول باعه.

وبوفاة الفنانين الكبيرين الشيخ علي الدرويش والشيخ عمر البطش يسدل الستار على آخر عمالقة الجيل الثاني من الفنانين الحلبيين.

بيد أنه إذا كان هذان الفنانان يشكلان دعامتين كبيرتين من دعائم النهضة الفنية الغنائية والموسيقية في حلب، فإن أسماء لامعة لفنانين آخرين كانوا يشاركون الشيخ علي الدرويش والشيخ عمر البطش نشاطهما. بشكل أو بآخر ومن أبرز هؤلاء الفنان الأستاذ أحمد الأبري /١٨٩٥ ـ ١٩٥٢/ الذي لم يكن يحترف الموسيقا مهنة له وإنما كان يهواها ويعشقها، فأبدع فيها أيما إبداع.

والفنان أحمد الأبري هو فنان دارس متعلّم، بدأ رحلته محباً للعزف على بعض الآلات الموسيقية، مثل الكلارينيت والنشأة كار والعود.

وقادته موهبة الأصيلة إلى الاستزادة من العلم على أيدي شيوخ الفن في حلب، فتكونت لديه ذخيرة فنية كبيرة، جعلته يبدع في مجال التلحين..

وكانت الأناشيد الوطنية والقومية هي باكورة أعماله الفنية، في الفترة التي كانت فيها سورية ترزح تحت حكم الانتداب الفرنسي، فكانت ألحان أناشيده تلهب حماس الجماهير، وتذكي نار الثورة، وتزرع في النفوس القوة والتحدي من أجل النضال والاستقلال، ولعل أناشيد "أنت سوريا بلادي، ويا ظلام السجن خَيِّم، ودمت يا شهباء ما دام الزمن" خير دليل على ذلك، وفضلاً عن هذا اللون الفني القومي كان للأبري ألحان كثيرة تمتاز بالتنوع والغزارة، فقد لحن الموشح والقصيدة، والأغنية بقوالبها الشرقية والغربية، ولحّن موسيقا خالصة بقوالب حديثة آنذاك مثل الرومبا والسامبا والفالس وما إليها ومن

أجمل ألحانه تلك " أريج الزهر من عرفك " للشاعر الحلبي شارل الخوري كما كان الأبري ناقداً موسيقياً وباحثاً دؤوباً، ترك بعض الآثار في ذلك وأهمها: كتابه عن "فصل إسق العطاش" تحدث فيه عن تاريخه ونشأته وموشحاته وقدوده. كما كتب في مجلة الحديث الحلبية نقداً فنياً لصوت أم كلثوم إبان غنائها في حلب في ثلاثينيات القرن العشرين، بيد أن أهم ما يمكن أن يضاف إلى الأبري ويُعدّ ريادة له وتميزاً في فنه هو أسلوبه الجديد - في تلك الفترة - في التلحين فقد اتسمت ألحانه الغنائية والموسيقية بصدق التعبير ورقة العاطفة وحسن الصياغة، وإضفاء مسحة تعبيرية درامية على ألحانه، فكان يقصد تلحين المعاني والكلمات، والتعبير عنها موسيقياً أكثر من جنوحه إلى التطريب، فكانت ألحانه وموسيقاه أشبه بالمشاهد التمثيلية أو اللوحات الفنية وربما كان أفضل مثال على ذلك أغنية " الملائكة لا يحبسون ".

ومن هذه الأسماء الكثيرة أسماء ملحنين وموسيقيين وعازفين ومطربين، منهم من اقتصر نشاطه على حلب وبعض المدن السورية، ومنهم من جاوزها إلى بلدان أخرى عربية وأجنبية.

وربما كان كل من أنطوان وسامي الشوا، وجميل عويس وتوفيق الصباغ من الموسيقيين العازفين، وكميل شمبير من الملحنين على رأس أولئك الفنانين الحلبيين ممن ينتمون إلى الجيل الثاني في حلب. وقد كانت لهؤلاء الفنانين جميعاً أيادٍ بيضاء على الفن الحلبي خاصة، والعربي عامةً.. فكل من أنطوان وسامي الشوا وجميل عويس وتوفيق الصباغ، استطاع أن يخطو خطوات كبيرة في مجال تطوير الموسيقا العربية، وإدخال بعض الآلات الموسيقية - ولا سيما الكمان - إلى التخت الشرقي الموسيقي العربي... وقد تم لهم ذلك، حتى لقد استعان كل من سيد درويش ثم محمد عبد الوهاب وأم كلثوم بجميل عويس وأنطوان وسامي الشوا، في تطوير الأنماط الموسيقية الجديدة، واستثمار الأفكار الفنية المتطورة، لخدمة الموسيقا العربية.

أما كميل شمبير فكان أحد أركان الفن الغنائي المسرحي في مصر، يشارك بعزفه على الكمان والبيانو الذي عرّبه ويلحن ويمثّل. وقد تنوع إنتاجه الفني تنوعاً كبيراً، فقدم الأغنية والمسرحية الغنائية والقطعة الموسيقية والمونولوج وغير ذلك.

وما كاد ينقضي عهد أعلام الجيل الثاني من فناني حلب حتى بدأت طلائع الجيل الواعدة تجد لها موطئ قدم في الساحة الفنية، وتثبت جدارتها وأصالتها، ولا سيما من خلال المشاركة في نشاط إذاعة حلب الذي بدأ عام ١٩٤٩.. وكانت فترة الستينات فترة ازدهار كبيرة للفن في حلب، وبزوغ نجوم في التلحين والغناء والعزف قدّموا أعمالاً كثيرة متنوعة ومتميزة. على أن حلب، المدينة التي احتضنت المتنبي وسيف الدولة والفارابي ثم مصطفى البشنك وأحمد عقيل وعلي الدرويش وعمر البطش وبكري الكردي وصباح فخري، مازالت مهد عطاء يتجدد، ومعيناً لا ينضب. ولئن كبت فترة من الزمن أو أفلت بعض نجومها، فهي تبشر دائماً بالجديد■

صباح فخري

الفنّان الذي يجلو صدأ القلب

عامر رشيد مبيض(*)

صباح فخري. . .

أمير الطرب. . أبو كلثوم سورية والعرب.

. . صناجة الغناء العربي.

صباح فخري. . .

الاسم الذي ومض بريقه في سماء حلب الشهباء منذ بداية الخمسينات من القرن العشرين. فامتدَّ شعاعه ونوره ليغمر آفاق الفن في سورية والوطن العربي والعالم. .

صباح فخري. . .

قلعة حلب الفنية السامقة. .

صباح فخري. .

سفير الغناء الحلبي السوري العربي إلى أرجاء العالم.

صباح فخري: الاسم الذي اقترن باسم حلب. فكان كل منهما يعرف بالآخر، وغدوا توأمين لا يفترقان.

ولد صباح بن محمد أبو قوس في حي القصيلة بحلب سنة ١٩٣٣ م.

وكان والده الشيخ محمد يقرىء القرآن الكريم للأطفال، وصاحب زاوية تقام فيها مجالس الذكر. وفي هذه البيئة الدينية نشأ الطفل صباح فحفظ القرآن ودرس أصول التجويد وأحكامه، وراح يرتاد مجالس الإنشاد والذكر ويحفظ بسرعة كل ما يطرق أذنيه من الموشحات والمدائح والقصائد والقدود، ويرددها مع المنشدين مما جعل من حوله يتنبهون لجمال صوته ودقة أدائه، فأولوه العناية والاهتمام.

وبدأ الصغير يتألق منشداً ومغنياً حتى تخاطفته مجالس الأذكار، ومجالس النساء نظراً لصغر سنه وعذوبة صوته.

وأتيح للفتى ابن الثانية عشرة السفر إلى دمشق والانتساب إلى المعهد الموسيقي الشرقي. حيث درس هناك أصول الغناء والموشحات ورقص السماح على يد الوشاح الكبير عمر البطش، والفنانين سعيد فرحات ومجدي العقيلي، وتخرج في المعهد سنة ١٩٤٨.

(*) باحث في تاريخ حلب الحضاري.

وفي هذه الفترة أعجب بصوته الوطني الشاعر فخري البارودي ولقبَّه باسمه فأصبح يعرف بـ "صباح فخري " منذ ذلك الحين، كما عين في إذاعة دمشق مطرباً وكان يقدم حفلاته على الهواء كسائر كبار المطربين فيها. كما التقى بعازف الكمان الشهير سامي الشوا، أثناء زيارته إلى سورية وغنى على نغمات كمانه الساحرة في دمشق وحلب وحمص. وفي هذه المرحلة أيضاً قدم أولى أغانيه التي لحنت له خاصة، وذاعت شهرتها، وهي "يا واردة ع العين" من ألحان غالب طيفور، و"يا جارحة قلبي " من ألحان سامي الصيداوي.

عاد إلى حلب واستكمل تعليمه في الكلية الإسلامية، وعمل إثر ذلك مدرساً وكاتباً وعاملاً في معمل النسيج ومؤذناً في بعض مساجد حلب، ولم يكن ينشد أو يغني إلا في مجالس الذكر والموالد والجلسات الخاصة، لأنه كان يعدُّ نفسه إعداداً جديداً بعد فترة المراهقة وتغيّر طبيعة الصوت فيها.

خاصة وأن المرحوم فخري البارودي نصحه بألا يستهلك صوته قبل أن يكتمل نموه.

وقد أفاد في تلك المرحلة دراسة وتدريباً على أيدي كبار الأساتذة الفنانين في حلب، مثل: الشيخ علي الدرويش وعمر البطش ومجدي العقيلي وبكري الكردي ومحمد رجب وعزيز غنام وإبراهيم الدرويش. كما أفاد من المطربين المخضرمين من أمثال: مصطفى الطراب وعلي عبد الجليل وأسعد سالم ومحمد النصار وأحمد الفقش وغيرهم.

واستأنف نشاطه الفني مرة ثانية في منتصف الخمسينات بأن التحق بإذاعة حلب بصفة مردد، وكان من زملائه آنذاك: بهجت حسان ومحمد خيري ومصطفى ماهر وصبري مدلل وحسن بصال وعبد الرحمن مدلل، وغيرهم.

وقام مع زملائه الفنانين بتسجيل عدد كبير من الموشحات والقدود الحلبية في إذاعة حلب للمحلنين قدماء ومعاصرين.

وغنى إلى جانب ذلك الأدوار المصرية والأغاني الخاصة التي قدمها له ملحنون معاصرون، وغدت ملامح شخصيته الفنية تتكامل وتتضح، من خلال ترسيخ أسلوبه في الأداء الغنائي المتقن. ومن أجل ذلك أسس فرقة غنائية موسيقية خاصة به منذ عام ١٩٥٩. تشاركه حفلاته، في حلب وغيرها من المدن السورية والعربية.

وفي بداية الستينات من القرن العشرين عاد إلى دمشق وقرر الإقامة فيها، وسجَّل للتلفزيون السوري - الذي افتتح آنذاك - عدداً من الأعمال التراثية والأغاني الخاصة، ولا سيما في برنامج "مع الموسيقا العربية" من إخراج جميل ولاية، كما قدَّم مع بعض المطربين والمطربات لوحات تراثية غنائية تحكي قصة الفن العربي في أزهى عصوره.

رحلاته أسفاره وإنجازاته :

على مدى نصف قرن من الزمان أو يزيد جاب الفنان الكبير صباح فخري بلداناً وأقطاراً عديدة عربية وأجنبية. وقدم فيها فنّه الأصيل، وكان سفيراً للغناء العربي التراثي العريق، عرَّف العالم به.

ومنذ عام ١٩٦٨ بدأت أسفاره تتوالى من أمريكا اللاتينية إلى أوربا والسويد مروراً بالأقطار العربية كافة، وقد شارك في مهرجانات عربية ودولية كثيرة، منها:

- مهرجانات المحبة والوفاء وتدمر وقلعة حلب في سورية.
- مهرجان جرش في الأردن.
- مهرجان بيت الدين في لبنان.
- مهرجانات قرطاج وسوسة في تونس.

- مهرجان الموسيقا العربية في مصر.
- مهرجان فاس في المغرب.
- مهرجان الموسيقا الشرقية في فرنسا.

وغنّى على أكبر مسارح العالم، من قصر المؤتمرات وقصر اللوماندييه في باريس ونانتير في باريس إلى قاعة "نوبل للسلام" في السويد، وقاعة "بيتهوفن" في ألمانيا. كرِّم في تونس عام ١٩٧٥ من قبل رئيسها آنذاك الحبيب بورقيبه.

نال الميدالية الذهبية في مهرجان الأغنية العربية بدمشق عام ١٩٧٨.

ورد ذكره في موسوعة "مايكروسوفت انكارتا" بوصفه رمزاً من رموز الغناء العربي. كرمته جامعة "U. C. L. A" وهي أكبر جامعة للفنون في أمريكا، وأقامت له حفلاً خاصاً، بوصفه حامل راية التراث الغنائي العربي الأصيل.

تسلَّم في أمريكا مفتاح مدينة "ميامي" تقديراً لفنه.

كُرِّم في مؤتمر الموسيقا العربية ومهرجان القاهرة الدولي.

سُجِّل اسمه في موسوعة "غينيس" للأرقام القياسية ويقول صباح فخري عن ذلك: "في عام ١٩٦٨ كنت أغني في حفلة في مدينة كاراكاس بفنزويلا، واستمر غنائي على المسرح دون استراحة من الساعة العاشرة مساءً حتى الثامنة صباحاً، وقد غنيت في حلب أطول من هذه المدة".

أقيمت في مصر جمعية فنية تحمل اسم "صباح فخري". تتألف من محبِّيه وعشاق فنه، عام ١٩٩٧ م.

سجل إنتاجه الفني على ٥ أسطوانات كبيرة، و٢٠ كاسيت فضلاً عن عدد كبير من الأسطوانات والكاسيتات غير القانونية.

غنّى من أشعار فحول الشعراء العرب القدماء والمعاصرين، من أمثال: أبي الطيب المتنبي، وأبي فراس الحمداني وابن زيدون وابن زهر الأندلسي، وابن الفارض.

ومن المعاصرين أمثال: فؤاد اليازجي وجلال الدهان وأنطوان شعراوي وعبد العزيز خوجة وعبد الباسط الصوفي وعبد الرحيم محمود وغيرهم.

شغل منصب نقيب الفنانين في سورية أكثر من مرة، قدم خلالها خدمات جليلة للنقابة والنقابيين، وكان عضواً مؤسساً فيها منذ عام ١٩٤٧ م.

شغل منصب نائب رئيس اتحاد الفنانين العرب.

انتخب عضواً في مجلس الشعب السوري في دورته التشريعية عام ١٩٩٨.

أعماله الفنية الأخرى:

اشترك في مسلسل "الوادي الكبير" وتقاسم البطولة مع الفنانة المطربة وردة الجزائرية، وقدم فيه عدداً من الموشحات التي لحنت له خاصة، وقام بتلحينها: عزيز غنام وعدنان أبو الشامات وغيرهما.

قدَّم في مسلسل "نغم الأمس" ما يقرب من "١٦٠" عملاً غنائياً، ما بين موشح وقصيدة ودور وقدّ وموال. وكان بمثابة توثيق لقوالب الغناء العربي.

غنى وأنشد في مسلسل "أسماء الله الحسنى" الديني، عدداً من الابتهالات والمدائح الدينية. وقد عرضت هذه المسلسلات في التلفزيون العربي السوري وفي محطات عربية مختلفة. ومسلسل إذاعي بعنوان "زرياب" ضمَّ نخبة من الموشحات والأغاني التراثية.

وما زال صباح فخري نجماً متألقاً يضيء دنيا الغناء والموسيقا والفن العربي على امتداد ما يزيد على نصف قرن من الزمان■

أسماء عربية تسبح في الفضاء

محمد مجد الصاري ❖

كان العرب بحكم طبيعة الحياة في البادية، التي عاشوها في عهدهم الأول يتنقلون وراء الكلأ والماء، قاطعين في سبيلهما مسافات شاسعة من البراري والقفار آناء الليل وأطراف النهار.

ولقد وجد العرب في النجوم هادياً صادقاً لهم في ظلام الصحراء الموحش. فازدادوا إلفة وارتباطاً بها حتى أنهم استعاروا لها صور الحيوانات والأشياء المألوفة والمعروفة لديهم. وسمّوها بأسمائها كالقلاص والأغنام والناقة والدلو والقوس إلخ. . . ووصفوها في أشعارهم. قال المهلهل في رائيته:

كأن الجديّ جدي بنات نعشٍ — يكبّ على يدٍ كالمستدير
كأن النجم إذ ولّى سحيراً — فصيل جال في يوم مطير
كان كواكب الجوزاء عوذ — معطفة على ربع كسير
تبدّى فاستقل لنا سهيل — يلوح كقمة الجبل الكبير
كأن مجرة النسرين هيج — لكل حديقة تهدى وعير
كأن التابع المسكين شيخ — يواخي أحرف الشيخ الوقور
كأن الفرقدين يدا مقيض — ألح على افاضته قميري

وقال شاعريفخر بقومه :

ونحن الثريا وجوزاؤها — ونحن الذراعان والمرزم
وأنت كواكب مخسولة — ترى في السماء ولا تعلم

وقال آخر متمثلاً للسماكين في الحظ:

لا تطلبن بغير حظ رتبة — قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما — هذا له رمح وهذا أعزل

ومع أن علم الفلك قد تطور لدى العرب بعد ظهور الإسلام خاصة في العصر العباسي بعد تعريب كتب الفلك اليونانية ، إلا أن أسماء النجوم وصورها بقيت في الغالب عربية ، بل إنها انتقلت مع ما انتقل من علوم العرب إلى أوربا ، ولم تتغير حتى الوقت الحاضر ، وذلك عبر ما

(❖) رئيس لجنة الفلك في نقابة المهندسين بحلب.

ترجم من كتب فلكية حررها فلكيون عرب أفذاذ يقف في الصدارة فيهم الفلكي العربي الشهير "عبد الرحمن الصوفي ٩٠٣ - ٩٨٦ م " في كتابه المعروف "صور الكواكب الثمانية والأربعين". ويعد الصوفي واحداً من ألمع علماء الفلك في القرن العاشر الميلادي ويعتبر باحثاً ومحققاً من الطراز الأول بمقاييس عصرنا الحالي، حيث أنه لم يقم بنقل العلوم الفلكية العربية وتصنيفها فقط ، بل لجأ إلى التدقيق والتمحيص والرصد الدقيق للنجوم معيناً أماكنها وأسماءها وأقدارها بدقة كبيرة، وجمعها في كتابه السابق الذكر الذي يشتمل على وصف الكوكبات الثماني والأربعين وصورة كل منها وعدد نجومها وأسم كل نجم فيها مع تحديد مواقعها، ولم يكتفِ بوجهة نظره هو فقط بل نجده يستعرض معها آراء الفلكيين المخالفة لرأيه فجاء الكتاب شاملاً ومرجعاً يوثق به لمن يريد أن يتعرف لتاريخ الفلك عند العرب.

ولقد ترجم هذا الكتاب من جملة ما ترجم من كتب العلوم العربية إلى أوروبة ولم تتغير الأسماء العربية لكثير من النجوم التي وردت فيه إلى وقتنا الحاضرمنها:

١ - نجم المئزر "MIZAR" :

يقع نجم المئزر في كوكبة الدب الأكبر الشهيرة التي تقع على مقربة من نجم القطب الشمالي وتتألف هذه الكوكبة من سبعة نجوم رئيسية براقة تأخذ شكل المقلاة.

الشكل "١".



يطلق على أشهر نجوم هذه الكوكبة الاسم اللاتيني " MIZAR " المأخوذ عن الاسم العربي "المئزر" وهو نجم متوسط الحجم أي أنه أكبر من الشمس بقليل وقَدرُهُ " ٢.٤ " كلما صغر القَدْرُ ارتفع البريق أو اللمعان الواصل إلى عين الناظر من النجم ".

و يعتبر نجم المئزر نجماً مزدوجاً إذ يمكن رؤية رفيقه نجم "السُهى" بالعين المجردة وكانت العرب تعتبر رؤية نجم السهى مقياساً لسلامة النظر " فالشخص الذي يستطيع رؤية نجم السهى يكون نظره سليماً ".

ولقد ورد ذكر نجم السهى في أشعار العرب وأمثالهم ومن ذلك المثل المعروف :

أُريها السُهى فَتُريني القمر.

٢ - نجم ثعبان "THUBAN" :

يقع نجم ثعبان في كوكبة التنين الواقعة بين كوكبتي الدب الأكبر والدب الأصغر وهي كوكبة طويلة وملتوية تحوي عدة نجوم براقة أهمها وأكثرها بريقاً النجم المسمى

باللاتينية "THUBAN" المأخوذ عن الاسم العربي " ثعبان" وتكمن أهمية هذا النجم في أنه كان نجماً قطبياً شمالياً منذ "٤٥٠٠" سنة خلت.

وعند دراسة هرم خوفو في مصر تبين أن المدخل الرئيسي لهذا الهرم موجه إلى ذلك النجم باعتباره النجم القطبي للسماء أيام الفراعنة.

الشكل " ٢ ".

٣ – نجم دنب الدجاجة "DENEB" :

إذا نظر المرء في إحدى ليالي فصل الصيف فوق رأسه مباشرة في الدول الواقعة فوق مدار السرطان ومنها سوريا يجد كوكبة مؤلفة من خمسة نجوم براقة على شكل صليب سماها العرب كوكبة الدجاجة.

سمى العرب النجم الرئيسي في هذه الكوكبة دنب الدجاجة ويدعى باللاتينية اليوم "DENEB " واضح انه مأخوذ عن الاسم العربي "دنب الدجاجة" ، وهو عبارة عن نجم أبيض ضخم يفوق حجمه " ٣٥ " مرة حجم شمسنا وهو من القدر "١" أي أنه من ألمع نجوم السماء الصيفية في نصف الكرة السماوي الشمالي. وإلى الجنوب من نجم الدنب تمتد سحابة داكنة من الغبار الكوني تقسم نهر المجرة " درب التبانة " المتألق إلى قسمين وتسمى كيس الفحم الشمالي.



الشكل "٣".

٤ – نجم النسر الطائر "ALTAIR" :

يقع نجم النسر الطائر في كوكبة العقاب إلى الجنوب من كوكبة الدجاجة السابقة الذكر وتعد من الملامح المميزة لفصل الصيف للبلدان الواقعة فوق مدار السرطان.

ألمع نجوم هذه الكوكبة يدعى باللاتينية "ALTAIR" وهو مأخوذ عن الاسم العربي "النسر الطائر" وهو نجم أبيض اللون من القدر " ١ " ذو حجم يقارب ضعف حجم الشمس.



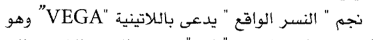
الشكل " ٤ ".

٥ – نجم النسر الواقع "VEGA":

يقع نجم النسر الواقع في كوكبة القيثارة إلى اليمين من كوكبة الدجاجة وتعد من الملامح المميزة لفصل الصيف للبلدان الواقعة فوق مدار السرطان.

لذلك يسمى كل من النجوم دنب الدجاجة "DENEB" والنسر الطائر "ALTAIR" والنسر الواقع "VEGA" بالمثلث الصيفي للدلالة على حلول فصل الصيف وتعتبر هذه النجوم مع كوكباتها من المشاهد الرائعة في سمائنا الصيفية.

الشكل " ٥ ".



نجم " النسر الواقع " يدعى باللاتينية "VEGA" وهو مأخوذ عن الاسم العربي "واقع " وهو من النجوم الشديدة البريق من القدر "٠.٠٤" يطلق إشعاعاً غزيراً ذا لون أبيض مائل للزرقة فهو نجم شاب أكبر من الشمس بمرتين ويفوقها بريقاً بخمسين مرة

٦ – نجم الغول " ALGOL " :

يقع نجم الغول في كوكبة برشاوس " حامل رأس الغول " وتقع إلى الشمال من كوكبة برج الحمل ويسمى هذا النجم باللاتينية " ALGOL " مأخوذاً عن الاسم العربي "الغول".



يتغير بريق نجم الغول بانتظام بديع فكل يومين وعشرين ساعة يبدأ بريقه بالانخفاض من القدر "٢.٢" إلى القدر "٣.٥" ولمدة عشر ساعات كاملة ثم يبدأ بريقه بالارتفاع من جديد وهكذا بشكل دوري.



الشكل " ٦ ".

٧ – نجم الدبران "ALDEBARAN" :



الشكل " ٧ ".

يقع هذا النجم في كوكبة برج الثور المعروفة التي تحتوي على تجمع نجمي شهير " أكثر من مئة نجم " يسمى " الثريا" والتي تغنى بها الشعراء والأدباء وذكرت بالأساطير والحكايات العربية ولقد ذكرها امرؤ القيس في معلقته الشهيرة.

وبرج الثور يأخذ شكل الرقم " ٧" مفتوحاً إلى الجنوب وأشد نجومها بريقاً نجم "الدبران" ويسمى باللاتينية "ALDEBARAN" وهي ترجمة حرفية للاسم العربي وتسهل رؤية هذا النجم بسبب لونه البرتقالي ولمعانه الشديد فهو من القدر " ٠.٨٦ ".

٨ – نجم فم الحوت "FOMALHAUT" :

يقع نجم فم الحوت في كوكبة الحوت الجنوبي الصغيرة الحجم نسبياً ولكن نجمها " فم الحوت " شديد البريق من القدر " ١ " يدعى باللاتينية " FOMALHAUT " محتفظاً باسمه العربي ويعتبر واحداً من النجوم العشرين التي تتربع على عرش

البريق في السماء، لونه أبيض ضارب إلى الزرقة ويعتبر من النجوم القريبة إلينا "٢٢ سنة ضوئية" وظهور هذا النجم يعلن عن بداية فصل الخريف الجميل بأوراقه الذهبية.



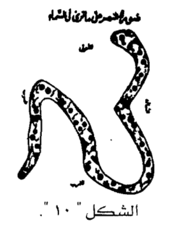
الشكل " ٨ ".

٩ – نجم الفرد "ALPHARD" :

يقع نجم " الفرد" في كوكبة الشجاع الواقعة في منطقة من السماء لا تحتوي على نجوم براقة إلا نجم الفرد وهو من القدر الثاني وسمي كذلك لتفرده بالبريق في تلك المنطقة من السماء وسمي باللاتينية "ALPHARD" عن الاسم العربي



الشكل"٩".


الشكل " ١٠ ".

١٠ - نجم آخر النهر "ACHERNAR" :

يقع هذا النجم في كوكبة النهر الطويلة الملتوية التي تشغل مساحة كبيرة من السماء، ويقع في آخرها ألمع نجومها "آخر النهر" وسمي كذلك لوقوعه في آخرها ولا يزال هذا النجم محتفظاً باسمه العربي إذ يسمى في اللاتينية " ACHERNAR " وهو من النجوم اللماعة من القدر "٠.٦" المميزة للسماء الجنوبية وبواسطته يستدل على نجم القطب السماوي الجنوبي.

١١ - نجم رجل الجوزاء "RIGEL" :



الشكل "١١ ".

يقع هذا النجم في كوكبة الجوزاء "الجبار" التي تعتبر بحق أجمل كوكبات السماء قاطبة إذ أنها تشغل مساحة واسعة من السماء في فصل الشتاء وتأخذ شكلها المميز بثمانية نجوم فتية ستة منها متقاربة جغرافياً وهو أمر نادر جداً في النجوم حيث أن أغلب الكوكبات التي تبدوا لنا مترابطة ضوئياً هي في الحقيقة متباعدةً جغرافياً وتأخذ شكلاً فراغياً ولكن مسقطها على شبكية العين يجعلها تبدو متقاربة.

ألمع نجوم هذه الكوكبة هو نجم أسماه العرب "رجل الجوزاء" ويسمى باللاتينية "RIGEL " نسبة إلى اسمه العربي وهو نجم عملاق أبيض من القدر " ٠.٢ " تفوق كتلته "٤٠ " مرة كتلة الشمس.

تحتوي هذه الكوكبة سديماً متألقاً يدعى سديم الجبار "ORION NEBULA" الذي يمكن رؤيته بالعين المجردة فهو من القدر "٢.٩" ويشغل مساحة تساوي ضعف مساحة القمر وتزيد كتلته على كتلة الشمس بحوالي "٧٠٠" مرة.

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا تعداد باقي النجوم التي تحمل أسماء عربية، لكنا اقتصرنا على بعضها لكي نستحث الهمم على أن ينهض في الجيل الشاب من أبناء هذه الأمة من يواصل مسيرة الأجداد ويضيف إليها إنجازات أخرى■



المعاناة والبحث في الجذور

١٩٠٠
١٩٧١

انتسب إلى
جمعية العاديات
عام ١٩٣٠ م

ولد العلامة محمد خير الدين أسد عام ١٩٠٠م" ١٣١٩هـ في حي الجلوم وتلقى تعليمه الأول في مكتب شمس المعارف. ولما نزح الأتراك عن البلاد كان من أوائل معلمي اللغة العربية، وكان يرغب طلابه بالتحدث بالعربية الفصحى حباً بها.

وفي عام ١٩٢٣م قرر إخراج مسرحية الاستقلال فقد كان لا يعدم وسيلة ينمي بها في طلابه حب الاستقلال والحرية ويزرع بذور الثورة على الاستعمار الفرنسي في قلوبهم. وفي يوم العرض وضع في كيس كمية من البارود الذي يستعمله الأطفال في مسدساتهم ليكون جو المعركة أقرب إلى الحقيقة، وفجأة انفجرت في يده قطعة من البارود، وبعد أيام كان قد فقد كفه اليسرى بسبب مداواة فاشلة. وقد سجل الأسدي هذه الحادثة فقال عن نفسه:"ومن معالم صبره أن بترت يده أثناء تمثيله رواية الاستقلال، وكانت كلمته قبل الإغماء التام: امضوا في إنجاز التمثيل ولا يحزنكم موتي".

محمد خير الدين الأسدي
(١٩٠٠ - ١٩٧١)

وخلال هذه الفترة أصدر كتابه البيان والبديع وترجمته عروج أبي العلاء وبعض المقالات اللغوية وهي: ليس، السماء، حلب.

وفي عام ١٩٤٠م خلال الحرب العالمية الثانية توفي والده الشيخ عمر، وجعلت حادثة وفاة الوالد قراءاته تتعمق في كتب المتصوفة أمثال: النفّري والسهروردي وحافظ الشيرازي والبسطامي وابن عربي وغيرهم.

نقلت الصوفية الأسدي إلى دائرة اليقين الثابت، وأثمرت هذه المرحلة أروع ما كتب من قصائد النثر التي اكتملت في كتابه "أغاني القبة".

كان الأسدي شديد الولع بالآثار القديمة واقتناء التحف الفنية النادرة، إذ ضمت خزائنه مجموعة من هذه التحف، كما ضمت مجموعة من الصور الأثرية الفريدة التي لم يعثر عليها حتى الآن، وقد قام برحلات عديدة كان يتعرف فيها إلى أقطاب الفكر والعلم.

انتسب خير الدين الأسدي إلى جمعية العاديات عام ١٩٣٠م وغدا أميناً للسر فيها، ثم ما لبث أن أصبح نائباً للرئيس وبقي في هذا المنصب حتى توفي. وكانت وفاته رحمه الله في التاسع والعشرين من كانون الثاني من عام ١٩٧١.

اختص الأسدي بالبحث في مجاهيل اللغة العربية، وألّف في النحو والصرف والبلاغة، وهو يعتبر بعض بحوثه لوناً من ألوان ترف المعرفة والتخصص، فقد كتب في كلمة يا ليل كتاباً، وفي كلمة الله كتاباً، وفي الجانب اللغوي لكلمة حلب كتاباً ثالثاً.

وعمل على إثراء المعاجم العربية بمعجم شعبي، تظهر فيه اللغة العربية كائناً حياً. . في كتابه موسوعة حلب المقارنة الذي يقع في حوالي"٦٠٠٠" صفحة من القطع الكبير تحتويها سبعة أجزاء يرسم على لوحة الحضارة وجهاً كبيراً لحلب ولغة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وأشعارهم وأغانيهم، وطعامهم وشرابهم ... الخ.

له اثنا عشر أثراً أدبياً نصفها مطبوع إضافة إلى العديد من المقالات اللغوية والأدبية والأحاديث الإذاعية. وقد نالت موسوعته بعد وفاته جائزة تقديرية.

سيكون لقراء المجلة موعد متجدد مع مختارات من موسوعة الأسدي. وننشر هنا مقدمة الموسوعة كما كتبها محمد خير الدين الأسدي. يظهر فيها منهجه الذي اتبعه في جمعها وتوثيقها. ونظرته الثاقبة إلى أهمية التراث الشعبي عامة والشفهي خاصة، كما يظهر فيها أسلوبه الذي يميزه.

المقدمة

-١-

كانت ساعة يمن وإقبال وإطلال مراحم ربوبية إذ قضى الناموس منذ نصف القرن أن أضطلع بمهمة حلب و قصة حلب و انضواء حلب في سراديب الزمان والمكان ومدى الفكر ومدى ما فكر الإنسان في حلب بوثائق مفرداته ، وما؟ و ما؟

وكأني بالناموس إذ قضى أدرك بطول ربوبيته أن قضاءه هذا نصب وضنى وبلوى، فتداركني بجلباب الصبر الصوفي الباسم: يرى في البلوى والمحن وقار السنة الطبيعية وبراءتها.

وإلا فمن يصبر على تلاوة مصادر كتابي: هذي المصادر التي أرجأت نشرها للذيل، ومنها يلقي الضوء على عجيب التوسع والبسط، ثم إن طائفة من المعاجم قرئت بل درست، إلى دأب لا يعرف الونى سحابة نصف القرن.

هاأنذا ؟ ألتقط من أفواه من حولي مفردات لهجة حلب التقاطات الأصمعي ومن جاراه مفردات العربية قبل نحو عشرة قرون، ثم هاأنذا أعرضها في أمسياتي على خزانتي الزاخرة باللغويات أو أقلب أنا فيها النظر وقد أخطىء وقد أصيب، ثم تبييض الموسوعة أربع مرات كان كفيلاً بتجديد النظر، وليطل الزمان وليطل، ولولا أن الشمس آذنت بالغروب لأطلت أيضاً وأطلت.

ولم يكن التقاطي مقصوراً على المفردات فحسب، بل ضروب القول كلها مسرحها ومجالها أمامي أحياها أو كان أمامي وتداركتها وانتزعتها من يد الدثور.

وكنت حريصاً أن أستمد – جهد الإمكان – من أبناء القرن التاسع عشر هذا الركب الذي سافر فاتصلت وأثرت ما لو لم يكن لموسوعتي هذه أن تؤلف لكان نصيب العلم والتاريخ حرمان الشيء الكثير.

وقديماً يعرف صحبي القراء الثاقفون أن عناية التآليف كانت موجهة إلى القصور وما إليها، أما الشعب فهدر في حسابهم وتفاهة موضوع.

-٢-

يقيني أن ما من كتاب تتجلى فيه نبضات الشعب وأعطياته الروحية والنفسية والمادية كما حرصت أن يتوفر في موسوعتي.

وجاء بعد الالتقاط والعرض على خزانتي أو تقليبي النظر: جاء دور التأليف الشامل والدراسة العامة على ضوء علم اليوم، ويا لجلد النفوس من متطلبات علم اليوم! هذا يا صاحبي القارىء ! وأهمس لك إني وحدي ثم أني مضطر – وأنا ابن السبعين – أن أعمل في أضنى عمل لأربح قوت يومي ولأربح ثمن أدويتي، ثم إني وحدي اصطلحت على جسمي الواهي ضروب الأسقام لم تسمع هذه الأسقام مني آهة قط، حتى لما بتر المنشار العظم دون مرمّد، بل تشاهد بسمة الرجاء من رب حنون. ولا تنس – إن شئت – أني أدركتني حرفة الفن والأدب، وهذه التماثيل في صومعتي وهذه الكتب حتماً هي وثائق ليالي الصوم في صومعتي، ولكن مه يا حافظ![1] تشكو؟ أتشكو وأنت قلت:

(١) حافظ الشيرازي.



لقد سقيت السكينة في رحاب الجناب، وختم على شفتي، فشربت دم قلبي في صمت وسكون.

-٣-

تابع ما أنت فيه وحدث صحبك القراء عن موسوعتك: وأيسر عناء معرفة جذر الكلمة والحلبية كالعربية والسريانية والعبرية والتركية والفارسية حتى الكردية والهندية والسومرية، وثمة الإيطالية أمدت لهجة حلب كثيراً لاسيما مصطلحات التجارة.

وطغى حديثاً سيل من الكلمات والتعابير الغربية.

وتشابكت اللغات وتصالبت فيفرض علي البحث أن أشير.. وتسن لهجة حلب قواعد فأحاول أن اهتدي إليها وأبسطها.

وفرق عندي بين أن أقول: الكلمة عربية أو من العربية، أريد بالأول: دون تحريف ما حتى إذا ما كان التحريف واسعاً قلت: تحريف.

وتقدم لهجة حلب أفانين من ضروب البيان فأعرضها: تشبيهاتها، مجازاتها، استعاراتها، كناياتها، تورياتها، جناسها...

وتتجلى هذه الأفانين البيانية في ضروب القول فيها: في أدائها الطبيعي، ونداء باعتها، وأمثالها، وحكمها وحكاياتها، و....

كما تتجلى في سبابها وتهكماتها وتمجكاتها[1] وقلتاتها[2] وكلام أهل اليول[3] فيها ومصطلح "أهل القجم والسلته جية والكلاليب"[4] فيها.

وقل مثل هذا في حيل الجنابطة[5] والمعرقين[6] وأهل سوق العبي وأهل سوق الصابون ونحوهم.

أما مراسم الأفراح والأتراح من مثل نشيد ختم القرآن ونشيد الاختتان والأعراس ونقل الجهاز[7] والشديّات[8] والمهنونات[9] ومناغاة الأمهات فحدث ولا حرج.

ومثل هذا عاداتها وألعابها ومعتقداتها وخرافاتها وألغازها...

ولا أنسى طعامها وشرابها وكيف يعالجان، وملابسها وفرش بيوتها.

وألحق بما تقدم مصطلحات صناعتها وزراعتها وتجارتها، حتى مصطلحات الحماماتية[10] فيها.

ثم للا أنسى حاراتها وأسواقها وخاناتها وقيسارياتها وقساطلها وسبلانها وقراها مع تعليل سبب أسمائها – ما أمكن- زد عليها القبائل الضاربة في أرباضها.

أما أعلام أناسها فلأقتصد في التعريف بهم لأنني لا أوثر المدح أو الذم، ومرجعها إعلام النبلاء و نهر الذهب ونحو الأعلام للزركلي وما أردّ القارىء إليه من كتب ومجلات.

حتى نهفات مجانين حلب سجلتها.

لكن مباذلها وسفه القول فيها نحيته عنها وأدرجته – كما تريد الأمانة- في ذيل فوات موسوعة حلب حرصاً مني أن يقرأ الطلاب والنساء موسوعتي دون أن يجرح ذوقهم الخلقي الوقور المحتشم المترفع عن بذيء القول.

نعم عمدت إلى ذلك مع ذكر ما فاتني في الموسوعة، فعلى المراجع في مادة أن يقرأها في الأصل ثم في الذيل.

---

١ - جمل ذات سجع تقال لتفخيم الكلام.
٢ - مبالغات لفظية.
٣ - الأصحاب.
٤ - ضروب من الطفيليين.
٥ - تجار الدواب.
٦ - المتكسبين بالسمسرة البسيطة.
٧ - آثاث العروس
٨ - أزجال جماعية يرددها الرجال في المناسبات.
٩ - أزجال ترددها النساء في الأفراح.
١٠ - هواة تربية الحمام.

أما ثبت مصادر الموسوعة فيجيء آخر فوات الذيل آخر الذيل[1].

-٤-

وبدهي أنني بدراسة لهجة حلب المتصلة بالمدن الأخرى بل بالعالم كله أدرس اللهجات الأخرى، فقد أستعرض لهجة حماه ودير الزور والرقة ودمشق ولبنان والعراق ومصر وحضرموت وتونس والمغرب ومالطة. . . .

وكان حظي حسناً أن زرت معظم هذه البلاد وغيرها. ولن تنتظر صوفيتي بعد أن أنجزت جزاء ولا شكوراً، أما كنت قلت؟ .

لا تشك دهرك، لقد طبعت على غير سننه، وحسبك عنده منار العلم وعطر النبل جريرة وذنبا.

النور وحده يسامر النور، فيا ويح قلبي إذا ما اغترب

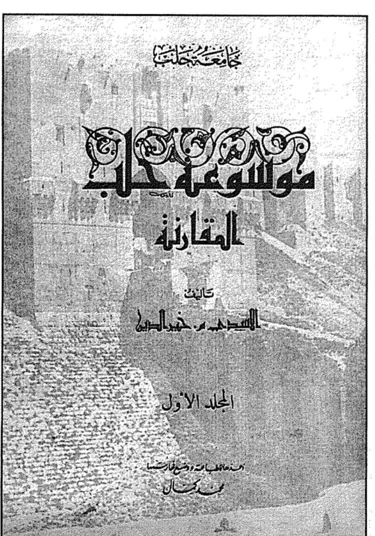
ولن ينتظر قارىء موسوعتي أن أمتدح بلدي وأسند إليها ما لا يقره الواقع، فأنا جهاز التصوير أصور القصر والكوخ كما هما عليه.

وأعلن من منبر موسوعتي أني أحترم كل مبدأ سواء أكان علمياً أو دينياً أو سياسياً، ولو كان خاطئاً، أما هؤلاء الذين يدعون إلى إحلال العامية محل الفصحى أو إبدال حروفنا العربية بالحروف اللاتينية، أما هؤلاء فلا أحترمهم، لأنهم عملاء الفوضى والجحود والهدم، ومعاذ العلم أن نتصور ذلك، ومعاذ المروءة والفن أن نقصي الفصحى التي درسناها وزرعنا حبها عمراً مديداً، وألفنا فيها آثارنا لاسيما "أغاني القبة" فحضنته، وأي لغة تقوى على حمله، أقول: ومعاذ المروءة والفن أن ننكر فضلها وأنها حملت مشعل الحضارة بخطها المحارب في يومنا أيضاً، وهو -دون تعصب- أروع خط في الخطوط، ولم ؟ لأنه يستغني عن لغو الرسم استغناء البليغ عن لغو الكلام، وهؤلاء يحاربون شيوخنا وملاذنا■

١٤ / ٢/ ١٩٧٠

الأسدي م. خير الدين

إعداد لجنة التراث غير المادي



١ - من المؤسف أنه لم يعثر مع المخطوطة على فوات الموسوعة وذيل الفوات ولا على ثبت المصادر.

تقاليد الغسيل الحلبية في كتاب «اللبّاد»

تميم قاسمو*

مقدمة :

يدين أهل حلب بالفضل إلى خير الدين الأسدي الذي جمع تراثهم الشفهي في موسوعته الشهيرة. وتبدو الموسوعة في القراءة الأولى أكداساً من المعلومات لا يربط بينها إلا أوائل الأحرف، لكنها –بفضل الفهارس التي وضعها المحقق الأستاذ محمد كمال – تنجلي عن عقود متصلة من المواضيع فيها الكثير من الطرافة والفائدة.

وقد خصَّ الأسدي المعتقدات والمسلّمات التي كانت ترددها النساء في حلب بالذكر، ومن المعروف أن العامة في حلب تسمي مجموع هذه المعتقدات باسم كتاب اللباد وهو فيما يبدو اسم وهمي وضعه الرجال، واللباد هو بساط من وبر الجمال يوضع على الأرض تحت الحصير من أجل عزل البرودة شتاء، والأغلب أن اقتران اللباد وهو مادة مهانة بكتاب النساء الوهمي هو دعابة رجالية مُرة فيها الكثير من التهكم.

وتبدو تعليمات كتاب اللباد،عصية على التصديق. لكنها بالرغم من ذلك تضع نظاماً صارماً للنشاطات اليومية للمرأة الحلبية، حتى أنه يمكن اعتبارها دليلاً إرشادياً كانت النسوة تتوارثه من جيل إلى جيل. ويوضح ذلك بجلاء استعراض ما نقل عن كتاب اللباد في موضوع غسيل الملابس.



* مهندس مدني: باحث في التراث الشفهي.

تقاليد الغسيل في كتاب اللباد :

كان على المرأة أولاً أن تختار يوم **الخسيل** كما يلفظ في العامية الحلبية، موزعة بين وعد الثراء **إللي بتخسل أربعين أحد ورا بعض بتزكن** [١]، ووعيد التعاسة "**خسيل التنين شدة ودين ووجع إيدين**"[٢] ناهيك عن إغضاب من أوصى بهم الله في كتابه **خسيل التنين غضب الوالدين**[٣] أو إغضاب الملائكة وهو الأنكى والأشد حيث أن **الخسيل يوم الجمعة بيطرّش الملايكة**[٤]. أما إذا اختارت السبت فإنها تخاطر مخاطرة كبرى **إذا وحده خسلت رويا يوم السبت بجيه يوم بحترق حتماً** [٥]. في حين أن الغسيل يوم الثلاثاء مشؤوم شأنه في ذلك شأن كل عمل يجري فيه **فالتلاتا وراتا**[٦] أي أن مايصنع فيه سيصبح إرثاً للآخرين عما قريب. وفي كل الأحوال فإن عليها تجنب الغسيل يوم وقفة الحجيج في عرفات **إذا المرا خسلت التياب يوم الوقفة بيتزحلقو جمال الحجاج في عرفات** [٧].

وبعد أن تختار المرأة المطيعة يوم الغسيل المناسب. كان عليها أن تسأل جاراتها وخاصة قريباتها ممن يقطن معها في نفس الدار أن يكلفنها أو يسخرنها بغسيل قطعة ثياب أو أكثر حسب درجة المودة إذ إن **اللي ما بكون بلقن خسيلا سخرة بنكب لقن خسيلا** [٨] وكان من أصول اللباقة أن تقول لمن يزرنها وهي منهمكة بالغسيل : **سخرونا**، فترد عليها الضيفة : **خسيل الهنا** [٩].

وعند البدء بالغسيل كان يتوجب عليها أن تراعي سلسلة من الآداب والقواعد، إذ لا بد من تجنب غسيل فوط العادة الشهرية أو حفائض الأطفال وقت التسميع والأذان **ما بصير المرا تخسل خرقا أو خرق ولادا لما بسمّعوا**[١٠]. وإياها وصب الماء المغلي في الوعاء الخالي من الثياب **إذا كبينا مي سخنة في لقن الخسيل وما كان في خسيل بحاسبنا**



اللقن يوم القيامة[11]. **وبعد أول تم خسيل**[12] عليها أن تتودد إلى هذا اللقن المتشدد بأن تنشفه من الماء أملاً بمساعدة تأتيها وهي عاصبة رأسها منشغلة في فرك الياقات والأكمام. من ستنا بلقيس شخصياً **إذا المرا خسلت خسيلا وبعد أول تم نشفت اللقن بتجي ستنا بلقيس بتساعدا** [13]، وعليها أن تحاذرمن وقوع لوح الصابون أرضاً **إذا وقعت الصابونة عا الأرض بلحسا الشيطان.**

وليس لها آن ترتاح أو تتراخى فالوقت هنا أكثر خطورة من حد السيف، وعليها الإسراع بالانتهاء ونشر الثياب المغسولة فإنه **إذا غابت الشمس والمرا عبتنشر خسيلا بكون جوزا بدو يطلقا** [14] وعلى كل فالمرأة الحريصة لا تغفل عن مراقبة الأحوال الجوية لأنه **إذا كانت المراعبتنشر خسيلا وإجا مطر بكون جوزا ما بحبا** [15] وهو أمر هين إذا قورن بالطلاق وخراب البيوت. بل إن عليها - احتراماً للأموات - أن تتخلص من ماء الغسيل المتبقي قبل قدوم الليل **إذا كبينا مية الخسيل بالليل بتنزل في حلوق مواتنا**[16].

ولا يقف كتاب اللباد عند هذا الحد بل يضيف وصفة غريبة لتبييض الغسيل لم يتوصل إليها باحث أو مخترع **إذا رادت المرا يطلع خسيلا أبيض لازم تلحس بطن شقرقة**[17]. ويمكن قراءة هذه الوصفة المستحيلة التطبيق من خلال حقيقة أن وصول الثياب إلى البياض المثالي كان أمراً مستحيلاً أيضاً، وبذلك تصبح استحالة قيام المرأة بلحس بطن الضفدعة مبرراً غير واع لاستحالة وصول غسيلها إلى البياض الناصع. والعامية تكرر هذه الحيلة النفسية في مواطن عديدة كما في وصفها الوعد المستحيل الإنجاز بأنه سيحدث عندما **تحج القيقان وترجع بلا سيقان** [18].

ما خلف السطور:

تبدو خلف تعليمات كتاب اللباد نفسية عملية واضحة تعبر عن خبرات المدينة العريقة وتقدم للمرأة إرشادات في النظافة والاقتصاد والتعاون والسعادة الزوجية. إذ يدخل التسخير في باب التكافل والاقتصاد ويقدم حلاً ميسوراً للغسيل الطارىء، أما عدم صب الماء المغلي في الإناء الفارغ فهو احتياط سلامة واضح، كما أن تنشيف وعاء الغسيل بعد الوجه الأول هو ضمان لعدم اختلاط ماء المراحل التالية بماء أول تم القذر تحقيقاً لشروط الطهارة وهو ما يعتني منتجو الغسالات الآلية اليوم بتوضيحه في نشراتهم الإعلانية، والإسراع في إنهاء الغسيل ونشره قبل حلول المغرب كان يسمح للمرأة أن تهتم بواجب الطهي وتتحضر لاستقبال زوجها العائد من عمله والتفرغ لخدمته. إضافة إلى تعريض الغسيل لأشعة الشمس أطول فترة ممكنة.

وليس عصياً أن نتوصل إلى الدوافع الكامنة وراء تفضيل الأحد لدى المسلمين يوماً للغسيل. فالأحد يأتي قريباً من الجمعة يوم الاغتسال وتبديل الثياب فهو إذا اليوم المناسب للغسيل خاصة للعائلة الكبيرة. أما عند مسيحيي حلب فغسيل يوم الإثنين مشؤوم باعتباره أول يوم عمل يلي يوم الأحد ومازالت حلاوة الأحد ماثلة في النفس، وينقل عنهم الأب يوسف قوشاقجي[19] **صباح بنتين ولا غسيل نهار التنين**[20]. واختفاء اليوم الذي يلي العطلة الأسبوعية من قائمة الأيام المفضلة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء يدل على مزاج مشترك يطلب الخلود إلى الراحة بعد يوم العطلة الحافل بالنشاطات الدينية والاجتماعية.

وقد زودتني سيدة رجعت إليها في بحثي

بشيء لم يرد لدى الأسدي في شأن الأيام المفضلة ووروت لي من نسختها الخاصة من كتاب اللباد **اللي بدو سعادة الدنيا بيخسل يوم الأحد واللي بدو سعادة الآخرة بيخسل الخميس** [٢١] ولعلها تعني أن من يغسل ثيابه يوم الأحد يستخدمها خلال أيام عمله التالية فيبدو أنيقاً خلال أيام الأسبوع، أما من يغسل ثيابه الخميس فإنه يستخدمها زاهية يوم الجمعة عند الصلاة في الجامع فيظفر برضا الله، وأردفت بحسرة على دنياها أنها قد تحولت للخميس بعدما زوجت أولادها وفرغ بيتها.

توضح العواقب التي ينذر بها كتاب اللباد من تعصى أوامره ما كانت المرأة تخشاه في أعماقها من حساب الله أو غضب الزوج أو زوال الصحة، ويرسخ الكتاب بتعاليمه القاسية الخشية في نفس من يرددنه ويعمقها في عملية تربوية تستحق الدراسة والتأمل.

لعبت تعاليم كتاب اللباد دوراً أساسياً في إرساء قيم مشتركة متماسكة في المجتمع الحلبي المتعرض باستمرار لعوامل تأثير حضارية خارجية، فساهم في تمتين البنية الاجتماعية عبر الأجيال.

غير أن أسئلة عديدة تتبادر إلى الذهن : لماذا لم يحترم كتاب اللباد عقل المرأة ؟ فلم يربط بين التوجيه والغاية منه بل سلك سبيل التهديد والوعيد ضماناً لطاعة أوامره.

وما تأثير هذا النمط التربوي على عقلية المرأة التي ستربي أطفال المستقبل ؟ وكيف تسلل إلى العقلية الجماعية ؟ فأصبح نجاح الفرد وسلامته رهناً بأن يكون نسخة عن الكبار وإلا تعرض للخسارة واللوم. وهل اندثرت تعاليم كتاب اللباد أم أن بعضها ما زال حياً ؟ وهل تضيف العامية إليه فصولاً جديدة ؟ أم أن إبداعها قد توقف أمام زحف العولمة فأصبحت تستورد كتب لباد المجتمعات الأخرى.

مرجع المادة الشفهية :

موسوعة حلب المقارنة "٧ أجزاء" : تأليف محمد خير الدين الأسدي، تحقيق محمد كمال _منشورات جامعة حلب، الجزء الثالث، صفحة ٣٣١-٣٣٢ مادة "خسل، خسيل"

الحواشي :

١من تغسل أربعين يوم أحد متوالياً تظفر بالثراء
٢ من تغسل يوم الإثنين تتعرض للصعوبة والديون ووجع الأيدي
٣ من تغسل يوم الإثنين تتعرض لغضب الوالدين
٤ إن غسيل يوم الجمعة يصيب الملائكة برذاذه
٥ من تغسل ثوبها يوم السبت يحترق في يوم قريب
٦ ما يغسل في يوم الثلاثاء مصيره أن يورث قريباً
٧ غسيل يوم وقفة الأضحى يسبب تزحلق جمال الحجيج في عرفات
٨ من لا تتطوع بغسيل لجاراتها ينقلب غسيلها أرضاً
٩ غسيل الهناء. على وزن حمام الهنا
١٠ لا يصح أن تغسل المرأة الخرق النجسة أثناء التمهيد للأذان
١١ إذا سكبت المرأة الماء الساخن في وعاء الغسيل وهو فارغ شكاها الوعاء يوم القيامة
١٢ أي غسيل المرحلة الأولى
١٣ السيدة بلقيس تساعد المرأة التي تنشف وعاء غسيلها بعد الإنتهاء من مرحلته الأولى
١٤ من تتأخر في نشر الغسيل حتى غياب الشمس تتعرض لخطر الطلاق
١٥ هطول المطر والمرأة تنشر الغسيل دليل على كره زوجها لها
١٦ إذا سكبنا مياه الغسيل ليلاً تنزل في حلوق أمواتنا
١٧ إذا أرادت المرأة غسيلاً ناصع البياض فعليها أن تلعق بطن ضفدعة
١٨ عندما تحج الغربان وترجع بدون سيقان
١٩ الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردين "جزءان" تأليف الأب يوسف قوشاقجي
٢٠ أن تصطبح المرأة بتوأم من البنات أفضل لها من أن تغسل نهار الإثنين
٢١ إذا أرادت المرأة سعادة الدنيا غسلت يوم الأحد وإن أرادت سعادة الآخرة غسلت يوم الخميس■



كثيراً ما تروى حكاية في بلد ما، وتشبهها شبهاً كبيراً، حكاية أخرى، تروى في بلد آخر، وبين البلدين بعد كبير، واختلاف في اللغة والثقافة، ومن ذلك حكاية الملك المغرور، الذي سأل بناته الثلاث أن تصف كل واحدة منهن حبها له، فتملقت اثنتان منهن غروره، فرضي عنهما، وزوجهما من وزيرين من وزرائه، وأبت الثالثة أن تتملقه، فغضب عليها، وزوجها من فقير يعمل وقاداً في حمام، فصبرت على الفقر والذل والهوان، ثم ساعدها الجن، فاغتنت هي وزوجها، وابتنت قصراً، ثم دعت والدها الملك إلى مأدبة أقامتها في قصرها، فتعرف إليها من خلال نوع من الطعام خاص أعدته له، ورجع عما كان فيه من غرور، وهي تشبه شبهاً كبيراً حكاية الملك في مسرحية الملك لير لمؤلفها وليم شكسبير، وهذه نفسها مبنية على حكاية شعبية أيضاً، وبين الحكايتين مسافات في الزمان والمكان واللغة والثقافة والحكايتان تعالجان موضوعاً واحداً، وهو غرور الأب العجوز، وخرفه، وحبه التملق، ورغبته في سماع الإطراء، والمديح، ولو رياء، وتقابله ابنته الصغرى، التي ترفض ذلك كله، ولا تعرف سوى الصدق والصراحة والوضوح، وتكون هي الأصدق والأوفى، وعلى الرغم من اتفاق الحكايتين في الموضوع، فإن كلاً منهما تمتلك رؤية خاصة، كما تمتلك عناصر مختلفة، فالحكاية العربية متفائلة، تنتهي بما يسر الأطراف كلها، بخلاف الحكاية الأوربية.

من ذلك أيضاً حكاية رواها باللغة الألمانية الأخوان غريم [٢] تتحدث عن امرأة عاقر، كانت تعيش مع زوجها، وتمنت ذات يوم أن ترزق بولد، ولو كان بطول الإصبع الواحدة، ورزقت بمثل ذلك الولد، وأخذ يعمل مع والده في الحقل، وهو بذلك الطول، وذات يوم اشتراه من والده عنوة رجلان شريران، ولكنه هرب منهما، وضاع بين سنابل القمح، ورعته بقرة، وصار في جوفها، ثم ذبحت البقرة، وألقيت أحشاؤها على المزابل، والتهم ذئب تلك الأحشاء، والولد في داخلها، فأخذ يحدث الذئب عن بيت المؤونة في مسكن أبويه، ويغريه بدخوله، وطمع الذئب، ودخل بيت المؤونة، وتناول كثيراً من الطعام، حتى أصبح لا يستطيع الحركة وعندئذ أخذ الولد ينادي أبويه، وهو في بطن الذئب، فحضر الأبوان، فقتلا الذئب، وخلصا الولد، وتشبهها حكاية عربية تتحدث عن امرأة عاقر، تمنت الأمنية نفسها، في ظروف مشابهة، ورزقت بمثل ذلك الولد، وأخذ يعمل مع أبيه في الحقل، ويحمل

(*) أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب.

إليه الزوادة على ظهر حمار، وذات يوم كان والده يحرث في الحقل، وهو يسير إلى جانبه، فانقلب عليه التراب الذي يشقه سن المحراث، ومات تحته، والحكايتان تتفقان في التعبير عن مشكلة العقم، والحاجة إلى طفل، وهما معاً تثيران مشاعر إنسانية، وتتصفان بطبيعة الحلم، وتحملان قدراً كبيراً من الإحساس باللامعقول.

إن الحكاية الشعبية تسعى دائماً إلى تحقيق الشمول الكلي، بالتعبير عن جوهر التجربة الإنسانية منطلقة من الخاص إلى العام، مستعينة إلى ذلك بالحدث الكبير الفاصل، والشخصية النمطية المحددة، وبالفكرة الواضحة، والتعبير العفوي البسيط، ومن هنا كان تفسير ذلك التشابه بين الحكايات، إذ ليس من الغريب أن يعبر شعب ما في مكان ما عن مشكلة إنسانية عامة كالبخل مثلاً، ويعبر شعب آخر في مكان آخر عن المشكلة نفسها، فيأتي التعبير هنا مشابهاً للتعبير هناك، ما دامت المشكلة الإنسانية واحدة. من ذلك مثلاً حكاية بلغارية عنوانها: أرز بالحليب [٣]، وفيها يسأل فلاح فقير صديقه: هل أكلت الأرز بالحليب، يا أخي؟ ويجيبه صديقه: كلا، لم أذقه، ويسأله ثانية: أنت لا تعرف شيئاً، إنه شيء لذيذ جداً، ويرد عليه الصديق سائلاً: هل أكلته أنت؟ فيجيبه: كلا، لم أذقه، ولكن أبي أخبرني أن أباه قد رأى مختار قريتنا الغني، وهو يأكله ذات يوم وهي تشبه شبهاً كبيراً حكاية عربية تروي أن فلاحاً زار المدينة ثم رجع إلى القرية ليخبر صديقه عن الحلاوة وطعمها اللذيذ، ولما سئل إن كان قد أكلها وهو في المدينة، فكان جوابه: لا، لم أذقها، ولكن عباءتي مسّت عباءة رجل كان يأكلها، والحكايتان تتفقان في التعبير عن فقر الفقير وحرمانه، وعيشه على الحلم والخيال، كما تتفقان في روح السخرية المرّة الشائعة في كل منهما، ولا تختلفان إلا في مكان الرخاء، إحداهما تتصوره في قصر الإقطاعي، والأخرى تتصوره في المدينة.

ومن ذلك أيضاً حكاية من أستونياعنوانها: كما تزرع تحصد [٤]، وهي تروي أن رجلاً عجوزاً قرع الباب على امرأة غنية، وطلب منها أن تؤويه، فطردته، فقرع الباب على جارتها الفقيرة، فآوته لديها، ولما غادرها في الصباح قال لها: أبارك ما تفعلينه، وذهبت الفقيرة بعد ذلك إلى جارتها تستعير منها متراً، وأخذت تقيس به قطعة قماش، كي تخيط لولدها قميصاً، وإذا القماش بين يديها يمتد ويمتد ويملأ الغرفة، ولما أعادت المتر إلى الجارة، حدثتها عما كان من أمرها مع ذلك الرجل العجوز ودعائه لها، فأرسلت الجارة الغنية إلى ذلك العجوز تدعوه إلى دارها، فأقام عندها ثلاث ليال، وهي ضائقة به ضجرة، تتمنى رحيله، وهو يغادرها، قال لها: أبارك ما تفعلينه. وكان أول شيء فعلته بعد ذهابه أن عطست، وظلت تعطس إلى المساء. وتشبهها حكاية عربية تروي أن زوجة ضاقت ذرعاً بحماتها فطلبت من زوجها أن يأخذ أمه ويرمي بها في الفلاة ليتخلص منها وكان طوع زوجته، فأخذ أمه، ومضى بها إلى بستان، حيث قدم لها بعض الطعام، وأجلسها إلى جوار نهر، ثم اعتذر إليها، وأخبرها أنه ذاهب لأمر ما، وسيرجع إليها بعد حين، ومضى، وفي نيته ألا يعود إليها، وانتظرت الأم حتى كان المساء، فنهضت ورجعت عائدة إلى البيت، وبينما هي في بعض الطريق لقيها رجل عجوز سألها عن رأيها في الشتاء، فأجابت بأنه شهر الخير والبركة، فيه الأمطار، ولولاه لما كان الصيف، فشكر لها جوابها، ومضى في

شأنه، ومضت هي إلى البيت، فلما فتحت لها كنتها الباب دهشت وسألتها كيف رجعت، وما إن فتحت الحماة فمها لتتكلم حتى أخذت اللآلئ والجواهر تنحدر من فمها، فازدادت دهشة الكنة، وطلبت من زوجها أن يأخذ أمها إلى الموضع نفسه وأخذ الزوج حماته إلى حيث أخذ أمه، وتركها هناك، ولما كان المساء رجعت إلى بيتها، وبينما هي في الطريق لقيها شاب وسيم، سألها عن رأيها في الصيف، فأجابته ضائقة به نفساً متذمرة مشمئزة: يا له من فصل مزعج، ليس فيه سوى الحر الشديد، والريح الساخنة، فتركها ومضى في سبيله، ولما رجعت إلى البيت وقرعت الباب على ابنتها، سألتها البنت على الفور عن أمرها، ولما فتحت الأم فمها لتتكلم أخذت الأفاعي والعقارب تنحدر من فمها، وواضح أن الحكايتين تتحدثان عن الكلمة الطيبة وأثرها، وعن الخلق الحسن، والمعاملة اللطيفة، وما تجره على صاحبها من جزاء، ولكن كل حكاية اتخذت لنفسها أساليب وشخصيات وارتبطت بدلالات وأبعاد. ولكنهما تتفقان في الغرض وتتشابهان في العناصر والجزئيات.

من ذلك أيضاً حكاية الرجل ذي اللحية الزرقاء[٥] وهي مشهورة في أواسط أوربة، وتروي أن زوجاً ثريا تزوج أخوات ثلاثاً أو سبعاً، الواحدة بعد الأخرى، وكان يسلم كل واحدة منهن مفاتيح قلعته أو قصره، ويطلب منهن أن يفتحهن ما يشأن من أبواب، إلا باباً واحداً، غير أن زوجاته كنّ يخالفنه، واحدة بعد أخرى، فإذا فتحت إحداهن الباب المحظور رأت ما يفزعها، من جثث الموتى وأحواض الدماء، ويأتي الزوج، فيعرف الأمر، ويكون مصيرهن جميعاً، الواحدة بعد الأخرى، الموت، ثم تكون الأخت الصغرى آخر الزوجات، إذ تتغلب عليه بحيلتها وذكائها، ويساعدها على ذلك إخوتها الذكور، وتشبهها الشبه كله حكاية عربية تروي أيضاً أن رجلاً ثرياً تزوج عدة فتيات، وكن جميعاً واحدة بعد الأخرى، يمتن في ظروف غريبة، ثم إنه تزوج فتاة ذكية، أعطاها مفاتيح قصره، وسمح لها أن تفتح أبواب الغرف كلها، إلا باب غرفة واحدة، ودفعها الفضول إلى فتحها، فرأت قطعة قماش بيضاء، كما رأت جثث زوجاته السابقات، فركبها الذعر، ولما رجع، اكتشف الأمر، ودعاها إلى معرفة سر قطعة القماش البيضاء، وما كان منه إلا أن لفها بها، ومددها على الأرض، ثم أخذ يدغدغ باطن قدميها، وهي تضحك، حتى أغشي عليها، وكان إخوتها قد اختبؤوا في غرفة مجاورة، ولما أحسوا انقطاع صوت أختهم أسرعوا إليها، فأنقذوها، وألقوا القبض على الزوج، وساقوه إلى القاضي فحكم عليه بالموت بالطريقة نفسها التي كان يميت بها زوجاته، والحكايتان متفقتان في المغزى ومتشابهتان في العناصر، وإن اختلفتا في بعض التفاصيل والحكايتان تصوران في الحقيقة ظلم الرجل الغني وتعسفه وتظهران سيطرته وما يحمل من نزعة قوامها الرغبة في تعذيب الآخر. وهو في الواقع رمز لسيطرة الرجل على المرأة وتذويبه لذاتها وتدميرها، وهما تؤكدان خلاص المرأة بفضل ذكائها وحيلتها، وهما تشبهان في بنيتهما العامة حكاية شهرزاد التي تخلص نفسها كما تخلص بنات جنسها من سيف شهريار بفضل ثقافتها وذكائها.

ومن تلك الحكايات أيضاً حكاية

عربية تروي أن ملكاً كان له في رأسه قرنان، وكان كلما دعا إليه حلاقاً قتله بعد أن يقص شعره، كي لا يخرج إلى الناس فيحدثهم عن قرنيه، حتى لم يبق في البلد سوى حلاق واحد، لم يقتله، وإنما أوصاه أن يكتم السرّ، وخرج الحلاق وحديث القرنين يعتمل في نفسه، حتى ضاق به ذرعاً، فمضى إلى حقل، وجلس بجوار أعواد القصب، وأخذ يهمس: للملك قرون، للملك قرون، فشعر بالارتياح، لإفشائه السر، بين أعواد القصب، ولما رجع إلى بيته، وجد حراس الملك بانتظاره، فدهش، ولما صار بين يديه، أمر الجلاد بقطع رأسه، فأقسم له أنه لم يبح بالسرّ لأحد، ثم حدثه عن أعواد القصب، وعندئذ عرف الملك أن الريح هي التي حملت السر، وأن أعواد القصب هي التي باحت به، وأدرك أن الحقيقة لا بد من أن تظهر، فخرج إلى الناس، وكشف لهم عن قرنيه. وتشبهها الشبه كله حكاية يوغسلافية[٦] ولا تختلف عنها في غير نقطتين، الأولى تتمثل في كبر أذني الملك، بدلاً من وجود قرنين في رأسه، والثانية تتمثل في بوح الحلاق بالسرّ وهمسه به داخل حفرة في الأرض. والحكايتان تؤكدان ظهور الحق وانكشافه، كما تدلان على ضيق الإنسان نفساً بالسرّ وحتمية ذيوعه.

ومثل تلك الحكايات وغيرها كثير، مما هو متشابه، أو متماثل، أو متطابق، على الرغم من انتمائه إلى شعوب أو أماكن أو لغات مختلفة ومتباعدة، وثمة تفسيرات كثيرة لمثل ذلك التشابه، منها القول بوحدة التجربة الإنسانية، والاتفاق في الموضوع العام، مما يساعد على نشوء حكاية في مكان ولدى شعب وبلغة ما، ونشوء حكاية أيضاً مشابهة في مكان آخر، ولدى شعب مختلف، وبلغة مختلفة، ومرجع ذلك إلى تلبية الحكاية لحاجة إنسانية وتعبيرها عن فكرة عامة مشتركة، ومن تلك التفسيرات أيضاً انتقال الحكاية من مكان إلى مكان، ومن شعب إلى شعب، ومن لغة إلى لغة، عبر علاقات الجوار والحرب والتجارة، ومنها أيضاً عودة الحكايات المتشابهة إلى حكاية واحدة ثم انتشارها عبر العصور في أماكن متباعدة وتناقلها بين شعوب وثقافات ولغات. ومن الصعب الجزم بواحد من تلك التفسيرات، أو تأكيده، فكلها واردة، وقد يصح تفسير ما بالنسبة إلى بعض الحكايات، وقد يصح تفسير آخر بالنسبة إلى حكايات أخرى، والمشكلة قائمة في الحكاية نفسها، إذ إنها تروى دائماً شفاهاً، ونادراً ما توثق كتابة، وهي تنتقل من جيل إلى جيل، من غير عناية بنسبتها إلى راويها، فليس لها إسناد، ولا يعرف راويها الأول، وإذا كانت بعض الحكايات تدور في بيئات متميزة كحكايات الصيادين والأسماك السحرية والكنوز، فهذا لا يعني بالضرورة أنها من نتاج بيئة بحرية، وإن كان هذا هو الأقرب إلى المنطق والعقل، ولكن لا بد من ذكر قوة إبداعية خلاقة، وهي الخيال، وفي بعض الحالات يبدو الخيال أقوى تأثيراً ولذلك ليس غريباً أن تكون بعض حكايات البحر والصيادين من إبداع بيئة بعيدة عن البحر نفسه، ولذلك، يصعب الجزم بمكان نشوء هذه الحكاية أو تلك، مثلما يصعب معرفة الراوي الأول أو المبدع، كما تصعب معرفة اللغة الأولى التي ظهرت فيها هذه الحكاية أو تلك.

ومما تجدر الإشارة إليه هو العناصر

الجزئية الشائعة في الحكايات الشعبية في العالم كله، وهي عناصر كثيرة مكرورة، منها على سبيل المثال الأبواب الأربعون التي يسمح بفتحها كلها إلا باباً واحداً لا يسمح بفتحه، ومنها الولد الضائع، يغيب عن أبويه، ويلاقي العنت والأهوال، ثم يرجع إليهما وقد خبر الحياة وعرفها، وأصبح أقوى وأذكى، ومنها أيضاً الوحش الرابض على عين ماء، لا يطلق الماء منه إلا بعد فدية ينالها، ثم يكون الخلاص على يد غريب يقتله ويظفر بابنة الملك، وهي، وغيرها كثير، عناصر شائعة في الحكايات الشعبية، وتنتقل من حكاية إلى حكاية، وكأنها حجر أساس فيها، وهي على ما يبدو نتاج خبرة إنسانية مشتركة لعلها ترجع في التاريخ إلى جذور بعيدة.

وربما كانت بعض تلك العناصر مستوحاة من القصص الديني كحكاية الأبواب الأربعين التي قد تكون مستوحاة من شجر الجنة الذي أبيح لآدم التناول من أي شجرة شاء ما عدا شجرة واحدة. وكحكاية الولد الغائب التي قد تكون مستوحاة من قصة يوسف الصديق عليه السلام وقد غاب عن أبويه ولقي العنت ثم التقاهما وهو أعز مكانة. وربما كانت مستوحاة من الأساطير أو التاريخ، كحكاية الوحش الرابض على عين ماء، التي تشبه أسطورة أوديب وقتله الوحش على أبواب ثيبة. ولعل ذلك كله يفسر انتشار الحكايات في العالم وتشابهها، فلعلها ترجع إلى ثقافة واحدة، انتشرت وتنوعت، وتم استيحاؤها والتحوير فيها بما يلبي حاجة الشعوب. وإلى جانب ذلك كله ثمة حكايات شعبية عربية كثيرة يتشابه بعضها مع بعضه الآخر، وهي منتشرة في معظم الأقطار العربية، وهي من غير شك ذات أصل واحد، ومنشأ واحد، وبعدها عريق موغل في القدم، ولكن روايتها طرأ عليها تعديل هنا وتغيير هناك، بسبب التداول والانتقال من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان.

ومن تلك الحكايات حكاية الراعي والأفعى، وكانت معروفة لدى العرب قبل الإسلام، وقد ذكرها النابغة الذبياني في شعره حيث قال[٧] :

وإني لألقى من ذوي الضغن منهم
وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها
وما انفكت الأمثال في الناس سائره

ثم يورد في شعره حكايتها وتتلخص في حية كانت تعيش في واد وكان الناس يخشون النزول فيه، ثم نزل في الوادي أحد أخوين، فرعى إبله، وذات يوم لدغته فمات، فنزل أخوه في الوادي ليقتلها، فعرضت عليه أن تعطيه دية أخيه ديناراً كل يوم، فوافق، وظل على هذه الحال زمناً، إلى أن ذكر ذات يوم أخاه، فأخذ فأساً، فضرب جحرها، فخربه، فقطعت عنه الدينار، فخاف شرها وندم على ما فعل، ثم عرض عليها أن يعودا إلى ما كانا عليه، فقالت: كيف ذلك وهذا أثر فأسك؟ والحكاية نفسها معروفة اليوم بصورة لا تختلف عنها إلا قليلاً، فهي تروي أن راعياً كان يعزف على نايه، فخرجت له أفعى، ورمت له بدينار تعبيراً عن إعجابها بعزفه، وصار هذا شأنه وشأنها، يأتيها كل يوم، يعزف لها،

فترمي إليه بدينار، حتى كان يوم مرض فيه، فأخبر ولده بأمر الأفعى، ثم طلب منه أن يفعل فعله، فأخذ الولد يعزف لها كل يوم، وأخذت ترمي له بالدينار، حتى كان يوم طمع فيه الولد، فتبعها إلى جحرها، حتى إذا بلغته، ضربها بفأس، فقطع ذيلها، ولدغته، فمات، وشفي الرجل من مرضه، ورجع إلى الأفعى، وأخذ يعزف لها، فلما خرجت إليه، عرض عليها أن يعودا إلى ما كانا عليه، فاعتذرت مؤكدة له أنه لن ينسى ولده، وأنها لن تنسى ذيلها"[٨]. وواضح أن الحكاية الأخيرة ليست إلا رواية جديدة للحكاية الأولى، مما يؤكد أنهما تنتميان إلى أصل واحد، ولا تختلفان إلا في ميل الحكاية الأخيرة إلى الإيجاز والتبسيط. ولعل هذا يدل على عراقة الحكاية الشعبية، وامتدادها بعيداً في أعماق التاريخ واستمرارها إلى اليوم.

إن قيمة الدراسة المقارنة بين الحكايات الشعبية لا تكمن في معرفة الأصل، أو معرفة المبدع الأول والمقترض منه، إنما تكمن في اكتشاف أوجه الشبه في الحكايات المتماثلة، وما تعبر عنه من قضايا وموضوعات إنسانية مشتركة، وما تستعين به من عناصر وجزئيات متشابهة، تدل على وحدة التجربة الإنسانية، وهي وحدة تتجاوز التشابه في الموضوع، إلى التشابه في عناصر التعبير عن الموضوع. إن مثل تلك الدراسات المقارنة يمكنها أن تدل على امتلاك شعوب العالم لغة تعبيرية واحدة، هي لغة الأحلام، ولغة اللاشعور الجمعي، وقوامها عناصر تعبيرية تتشابه في بعض الحالات وتتكرر في بعض الحالات الأخرى.

إن حكاية عقلة الإصبع، مثلاً، هي تعبير عن رغبة دفينة كامنة في أعماق الإنسان تتمثل في حاجته إلى الأطفال، ورغبته في الحصول عليهم، تحت أي ظرف، وضمن أي شرط، ومثل تلك الحاجة إنسانية، ولقد جاء التعبير عنها متشابهاً، بل واحداً. إن ذلك كله يؤكد وحدة الإنسان، في مشاعره وحاجاته وعواطفه، بل في تعبيره الفني، وما أحوج البشرية إلى تحقيق التعارف بين شعوبها، والوقوف على أوجه التشابه واللقاء، قبل الوقوف على أوجه الاختلاف والافتراق، ولعل في الحكاية الشعبية ما يمثل الجذر الإنساني الواحد، الذي يغذي روح الإنسان، ويمده بنسغ ثقافي ومعرفي واحد.

الحواشي:

٢. فاليري، جيزيل، قصص الأخوين جريم، تر. حنين حاصباني، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٢، حكاية الأصيبع ص٧.

٣. عدد من المؤلفين، جبل الدر، تر. ميخائيل عيد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩- ص٧٩

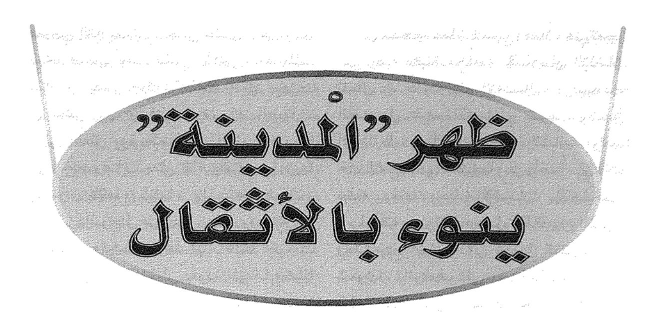
٤. المصدر السابق، ص١٢٣

٥. كراب، الكزاندر هجرتي، علم الفلكور، تر. رشدي صالح، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧، ص٥٥١.

٦. كورشيجا، ندى، حكايا شعبية يوغسلافية، تر. موفق شقير، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥، ص٢٥.

٧. الصعيدي، عبد المتعال، مختارات الشعر الجاهلي أو دواوين الشعراء الستة الجاهليين، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط. رابعة، ١٩٦٨، ص٢٥٦-٢٥٧.

٨. سائر الحكايات الشعبية العربية مما سمعه صاحب البحث ودونه في كتابه: حكايات شعبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩■



ظهر "المدينة" ينوء بالأثقال

استطلاع : وضاح محي الدين*

سوق «المدينة» في حلب ، يختزل المدينة حين يدعو نفسه باسمها مجرداً ، وهو على حق في ذلك فحلب والتجارة صنوان متلازمان ، والتجارة وسوق المدينة لم يفترقا منذ أن كانت حلب تبيع وتشتري لخمسة آلاف سنة مضت.

حين صعدت إلى سطح أحد خانات المدينة، نظرت إلى سقفها رأيت عالماً مختلفاً عما تحته، أنقاض ترابية وأحجار، مخلفات صناعية أبنية طفيلية، عشرات من أقراص الدش، مئات الهوائيات التلفزيونية التي أنهى دورها التقني. كان الوقت ربيعاً، والحشائش الخضراء تزهو بالحياة وجذورها تغوص في سقف المدينة بحثا عن الغذاء والماء فتفكك أحجاره. ومن بعيد ظهر البرج الذي يعلو خان النحاسين حيث كان التجار يجلسون فيه منذ قرون ليرقبوا غروب الشمس فوق ظهر المدينة المقبب.

ورحت أسأل عدداً من تجار السوق وبعضاً من مثقفي حلب: هل تعرفون حالة سطح المدينة؟ وماذا ترون في شأنه؟ هل يمكن استثماره في أمر ما؟

أجاب المهندس المعمار والتاجر في خان الحرير عدنان التايح: آنا ابن السوق، وأعرف تماماً الحالة المتردية للسطح، فالمخلفات تثقله، والأعشاب والأشجار تشققه.

والأمر خطير، فمن الضروري تنظيف السطح مما تراكم عليه من مخلفات. ويجب أن تجد الجهات المعنية حلاً سريعاً، فقد يحدث حريق لا سمح الله في المخلفات المتراكمة، ولا أحد يدري كيف سيطفأ.

أما عن استثماره فهو أمر ممكن لسهولة الصعود إلى السطح من أدراج الخانات وإذا ما تم إصلاح السطح وترميمه أمكن استخدامه

* ماجستير في التاريخ.

ممراً للسياح منه يطلون على المدينة الأثرية المجاورة. وتستطيع الجهات الأثرية أن تحصل مبلغاً مقابل مثل هذه الجولة.

أما التاجر عبد الكريم حموي في سوق الزرب فأجاب: يا أخي السطح مهم، ونحن نخاف من يوم يحدث فيه حريق فلا يستطيع أحد إطفاءه. وكثيراً ما يسأل السياح عن طريقة للصعود إلى السطح للفرجة ونحن نخجل من أن ندلهم لئلا يرون المشاهد التي لا تسر. كل من يعمل مخالفة يرمي أنقاضها على السطح، لا أحد يستطيع السير عليه إلا الكلاب الضالة.

وقال التاجر أحمد بوادقجي في سوق العطارين: مثلما يهتمون بالمجاري ويحفرون الشوارع من أجل تجديدها، ويصرون على أصحاب المحلات لكي يحسنوا منظر آبواب الدكاكين عليهم أن يتأكدوا من صلاحية الأسقف وإلا كنا نبني من طرف ونخرب من طرف. اصعد إلى القلعة وانظر إلى سقف المدينة، إنه منظر سيء.

وانتقلت إلى الدكتور عبد الرزاق خشروم من كلية الآداب جامعة حلب الذي تحمس لفكرة جعل سطح المدينة مسارا سياحياً. أما الروائي فيصل خرتش فقد أضاف اقتراحاً آخر بإنارة سطح المدينة ليلاً وقال أن ذلك يعطيه مظهراً جديداً رائعاً. وقد استغرب الأديب وليد إخلاصي أن تصل حال سقف المدينة إلى هذه الدرجة من التردي وعبر عن أمله في أن تسارع الجهات المعنية إلى تدارك الخلل الحاصل.

لم أتوجه بالسؤال إلى أي من الجهات حول موضوع سطح المدينة لأنني أعلم أنه قيد البحث والدراسة، ولكن إلى متى يستمر البحث والدراسة دون فعل أو تنفيذ؟! ■



المخالفات في المدينة القديمة

جشع أم حاجة؟

ألقى المهندس المعماري الاستشاري خلدون فنصة بحثاً تناول فيه موضوع مخالفات الأبنية في المدينة القديمة بتاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٤ وذلك في الندوة التي نظمتها نقابة المهندسين في مدينة حلب.

وقد حدّد الباحث الوضع الراهن للمدينة القديمة ومتطلباته بقوله: إن المدينة اليوم ما زالت تضج بالنشاط وتمارس كل فعالياتها ووظائفها كمدينة حية، ويفترض بها أن تستمر في تقديم الشروط الصحية والنفسية والجمالية، وإعطاء الأمان والراحة إلى كل من يسكنها أو يتعامل معها من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية باعتبارها منطقة سكنية ومركزاً تجارياً له جاذبيته المتجددة دون الإخلال بالتوازن بين وظائفها المختلفة. واستنتج أن ذلك يفرض معادلة صعبة على المخططين والأهالي هي: كيف يتم المحافظة على المدينة باعتبار قيمتها

الأثرية دون أن نجعلها جامدة متوقفة عن النمو.

طرح الباحث بدءاً سؤالا: لماذا يخالف الناس ؟ وتوصل إلى أن ذلك يعود إلى سبب اقتصادي هو رغبة بعض مالكي العقارات السكنية في تحويلها إلى وظيفة تجارية أو صناعية، وإلى سبب اجتماعي ناتج عن نمو العوائل وحاجتها إلى تقسيم العقارات السكنية لتحقيق الاستقلال أو بناء غرف جديدة لمزيد من السكان. وأشار إلى الآثار الضارة للمخالفات والتي تسبب تغيير النسيج الاجتماعي للأحياء القديمة وزيادة الضغط على شبكات الخدمات من مجارٍ وطرق وغيرها وانتشار التلوث البيئي وكذلك ازدياد الأخطار الإنشائية لأن هذه المخالفات تتم بدون إشراف هندسي سليم وتتسم بالسرعة والتهور.

واقترح الباحث أن تتم معالجة المخالفات على مستويات متعددة متزامنة، وهي زيادة المراقبة على عمليات البناء إلى جانب توجيه السكان وتوعيتهم وتسهيل الإجراءات اللازمة للتراخيص كما دعا إلى تطوير الدور الهندسي لمديرية المدينة القديمة وقيامها بتصنيف المباني حسب أهميتها المعمارية والتاريخية والأثرية والرفع الأثري لها للعودة إليه في حالات التعديل والمخالفات كذلك اقترح أن تقوم المديرية بوضع خطط مدروسة مرنة تسمح للسكان بتطوير مساكنهم بشكل يناسب احتياجاتهم ويحافظ على الطابع التقليدي.

كما نبه إلى ضرورة أن تسعى مديرية المدينة القديمة إلى تقوية الأساس القانوني والتنفيذي لمحاسبة من يقوم بتغيير الصفة الاستثمارية للعقارات السكنية بدون رخصة مسبقة.

وتناول الباحث بشيء من الاستفاضة مواد قانون الآثار التي تدخل المدينة القديمة بموجبها تحت مسمى الآثار الثابتة وكذلك المواد التي تبين محددات التعامل مع الآثار بشكل عام والعقوبات الجزائية لمخالفيها، وقام بعرض نظام البناء الحالي في المدينة القديمة من حيث إيجابياته وسلبياته وبين ضرورة إصدار نظام جديد لضابطة البناء يعتمد على المخطط التطويري للمدينة المصدق عليه بتاريخ ٢٠٠١/١/١٦ آخذاً بعين الاعتبار خصوصية مدينة حلب والمعايير الدولية في التعامل مع الأوابد الأثرية والمناطق الأثرية الحضرية مما سيسمح بتطور المدينة بشكل منظم ومنضبط.

كما دعا إلى تسهيل إجراءات الترخيص لأعمال البناء وربطها بجهة مديرية المدينة القديمة مع التأكيد على دور مديرية الآثار ضمن اللجان الفنية صاحبة القرار في إجازة التراخيص■

التحرير

حول تنظيم الشوارع والطرق

«في ذكر منكرات الشوارع التي يجب منعها»

.. من المنكرات المعتادة فيها وضع الاسطوانات وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة وغرس الأشجار وإخراج الرواشن "الشرفات" والأجنحة ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق. فكل ذلك منكرات إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة. وإن لم يؤدّ إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق فلا يمنع منه. نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت فإن ذلك تشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه. وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب. وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة. والمرعي هو الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات.. ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع ، إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه.

وكذلك ذبح القصاب في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ من دكانه مذبحاً فإن في ذلك تضييقاً بالطريق وإضرار بالناس بسبب ترشيش النجاسة وبسبب استقذار الطباع للقاذورات. وكذلك طرح القمامة على جواد "جادات" الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق والتعثر على ذلك من المنكرات. وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطرق ، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن "لسعة الطريق".

فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ولكن ليس يختص به شخص معين فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط■

من كتاب

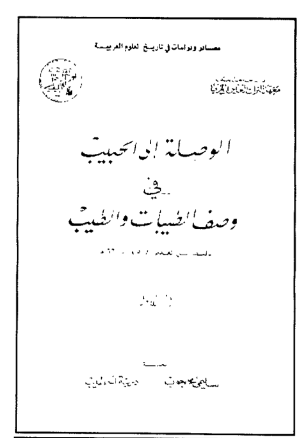
«إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي

«عن المستطرف الجديد لهادي العلوي»

الوصلة إلى الحبيب
في وصف الطيّبات والطيب

تأليف: كمال الدين بن العديم٠
تحقيق: سليمى محجوب ودرية الخطيب
منشورات جامعة حلب
معهد التراث العلمي العربي عام "١٩٨٨"
جزءان "١٠٧٦" صفحة من القطع الكبير

رنده قاسمو*



المؤلف : كمال الدين بن العديم العقيلي الحلبي المؤرخ والمحدث والفقيه والشاعر والخطاط، مؤلف كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب. ولد في حلب عام ٥٨٨ هجرية "١١٩٢" وشهد دخول هولاكو إليها وتوفي عام ٦٦٠ هجري "١٢٦١" في القاهرة حيث دفن.

* إجازة في الحقوق.

الكتاب:

يتألف من جزأين: الأول "٤١٣ص " يبدأ بعرض لحياة ابن العديم ثم يتطرق بشكل مستفيض إلى تاريخ الطعام عند العرب منذ الجاهلية حتى العصر المملوكي، باحثاً في كل ما يتصل بالطعام من أنواع وعادات وآداب اجتماعية، مستمداً ذلك من التراث الأدبي والتاريخي، مظهراً التطور الذي جرى في سلوكيات الطعام وأنواعه عند العرب نتيجة احتكاكهم بالأمم في المناطق التي افتتحوها. وقد أفرد الكتاب فصلاً كاملاً عن الأغذية والأعشاب وفن المداواة بها.

أما الجزء الثاني "٦٦١ص" فيبدأ بمقدمة ذكر فيها مخطوطات الكتاب الموزعة في مكتبات العالم ثم يورد النص المحقق للكتاب الذي يتألف من عشرة أبواب.

يبحث الباب الأول في الطيب وأنواعه وطرق صنعه، أما البابان الثاني والثالث فيتحدثان عن الأشربة والمياه التي تستخرج بالعصر أو النقع، فيما يتحدث الباب الرابع عن كيفية استخراج الدهن من إلية الخروف، ثم يتعرض الباب الخامس إلى طبخ الدجاج على أكثر من ستين طريقة، أما الباب السادس فيتعرض إلى الأطعمة الناشفة وشرائح اللحم وإلى الخضار والأرز والفواكه المطبوخة باللحم في أكثر من مئة وخمسين نوعاً، وفي الباب السابع يذكر مئة نوع مختلف من الحلويات والمخبوزات، وفي الباب الثامن يتطرق إلى المخللات والملوحات والصلص وأنواع طبخ الخضار بالزيت وأصناف الطبخ بالبيض "العجج". وإذ ينتهي ابن العديم من هذه الطائفة الواسعة من الأطعمة والأشربة يخصص البابين التاسع والعاشر إلى ما يتصل بموضوع الطعام مثل تحضير الماء المعطر والصابون المطيب وتقطير الأزهار المختلفة ثم ينتهي كتابه بفصل يذكر فيه كيفية تحضيرالأشنان وهي ما يطيب به الفم بعد الطعام.

وقد زودت المحققتان الكتاب بملاحق وجداول مفيدة تحتوي ترجمات وفهارس، من أهمها جدول بالأوزان والمكاييل وتعاريف بالمواد والأدوات والأعشاب المستخدمة في تحضير أطباقه مرتبة حسب الحروف الأبجدية. وهي تدل على المجهود الكبير الذي بذلته المحققتان الفاضلتان، وتمكن القارىء من فهم مضمون الكتاب الذي يورد أسماء لم يعد بعضها متداولاً على الألسن.

منهج الكتاب ودلالاته:

بين ابن العديم في مقدمة كتابه الغاية من اهتمامه بالطيبات والطيب فقال: لما كان معظم اللذات الدنيوية والأخروية في تناول شهي المآكل والمشارب، وكان تطييب البدن والثياب مما يقرب على الأحباب والحبايب. واقتضى ذلك سلوك طريق تطيبها للناشق والآكل والشارب، وفي تناول الطيبات تقوية على العبادة للعبد، وهي تستخرج من القلب خالصة الحمد، فلذلك كررت المنة بها في كتاب الله العزيز، وأخرج ذكرها مخرج المدح والتمييز، فلهذا جمعت هذا الكتاب وسميته كتاب الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب ولم

ينقل ابن العديم كتابه عن مصادر أخرى بل كتبه بعد تجربته بنفسه حيث يقول: ولم أضع فيه شيئاً إلا بعد أن ركبته مراراً، وتناولته مدراراً، واستخلصته لنفسي، وباشرته بذوقي ولمسي، وقد بدأت فيه بالطيب، لشرف قدره وطيب عرفه ونشره وانتشار ذكره ثم سقت الفصول بعده على ما تراه من الترتيب.

يعبراقتران الطيب بالطعام والصابون والأشنان عن نظرة راقية لنشاط انساني أساسي يصبح الطعام بموجبها عبادة ومتعة وسبيلاً إلى التقرب من الآخرين. كماأن الملاحظات العملية والإرشادية التي يقدمها ابن العديم لمن يريد تطبيق ما ورد في كتابه تدلل على روح عملية وعلمية واضحة.

إن اهتمام رجل بوزن ابن العديم الاجتماعي والثقافي بوضع كتاب في الطبخ يعبر علن رقي حضاري ونظرة متوازنة إلى الحياة تعطي كل شيء حقه. ولا ترى أن الطبخ نشاط مقصور على النساء.

من الملاحظ أن ابن العديم يورد في كتابه أطباقاً تنتمي إلى رقعة جغرافية واسعة تمتد من الهند إلى المغرب الأقصى، بما فيها أطباق أخذها عن الفرنجة الصليبيين، فيعبر بذلك عن انفتاح المجتمع الحلبي وتفاعله مع عادات الشعوب المجاورة والبعيدة مستفيداً من موقع حلب المميز كمركز عالمي للتجارة بين الشرق والغرب.

وقد انعكس تنوع مصادر المطبخ الحلبي في تعدد المواد الداخلة في أطباقه، وخاصة التوابل المتنوعة التي اختفى ذكر معظمها من قاموس المطبخ الحلبي المعاصر.

بين الأمس واليوم:

تظهر دراسة خواص الأعشاب والتوابل المضافة للأطباق أن لها خواص علاجية ووقائية. بحيث يصبح الطعام غذاء وشفاء في آن معاً. كما يلاحظ ندرة استخدام الملح وكثرة استخدام السكر وخاصة في أطباق الدجاج، ولا يرد ذكر السمن في الكتاب إلا قليلاً في حين أن دهن الإلية كان يستخدم فيما يستخدم فيه السمن حالياً، أما البندورة"الطماطم" فلم يرد لها ذكر مطلقاً إذ إنها وافد جديد نسبياً على المطبخ الحلبي، قدم إلى المدينة في عام ١٢٨٦ هجري " ١٨٦٩ م"، أي بعد ستة قرون من تأليف الكتاب.

كيف يستفاد من الكتاب؟:

لقد مضى على نشر هذا الكتاب ستة عشر عاماً ولم يلق ما يستحقه من اهتمام الباحثين، فلم يدرس أحد المعلومات التي كشف عنها أو يستثمرها. مما يطرح مشكلة تعاملنا مع التراث، هل نعتبره تحفة قديمة نكتفي بحفظها خلف الزجاج للفرجة والتباهي؟ فنبتعد عنه فعلاً فيما ندعي الحرص عليه قولاً، أم أن علينا البحث في أعماقه؟ فندرسه ونحلله لنستخرج عناصره الصالحة فنعيدها إلى الحياة ونضع ما تجاوزه الزمن منها جانباً.

وأقدم فيما يلي محاولة لتنفيذ طبق من السنبوسك على طريقة ابن العديم، كما ورد في كتاب الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب الجزء ٢، الصفحة ص٥٥٣:

صفة عمل سنبوسك

يؤخذ لحم الأفخاذ والتقاوير، يدق على قرمية بساطور، ويصلق إلى أن ينضج، ثم يصفى عنه الماء، ويدق في الهاون إلى أن ينعم، ثم يجعل في دست، ويقلب عليه دهن إلية وكزبرة يابسة ودارصيني ومصطكا وفلفل، ويحمص، فإذا تحمص يجعل عليه بقدونس مخروط جزءان ونعنع جزء وسذاب نصف جزء. ويغلى غلية، ثم يقلب عليه ماء ليمون وخل، ويغلى إلى أن ينقص الخل وماء الليمون، يزاد في هذا الحشو سماق وقلب جوز وفستق وبعد ذلك يحشى في رقاق السنبوسك على العادة.

شرح الكلمات:

قرمية: لوح من الخشب - يصلق: يسلق - دارصيني: قرفة -سذاب: نبات طبي واسمه الدارج سدابيه، يمكن الحصول عليه من سوق العطارين بحلب. دست: وعاء الطبخ.

المقادير :

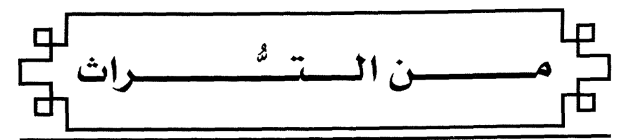
٢ كغ لحم غنم طري مفروم
عجينة السمبوسك، يمكن تحضيرها أو الحصول عليها جاهزة
نصف باقة بقدونس مفروم
ربع باقة نعنع مفروم أو ملعقة طعام نعنع يابس
ملعقة صغيرة : سذاب يابس
عصير ليمونتين + ملعقة صغيرة خل عنب
ملعقة ونصف دهن إلية.
ملح حسب الرغبة
قليل من المصطكا، قرفة، فلفل، كزبرة يابسة، سماق
جوز وفستق مبشور حسب الرغبة

طريقة العمل:

يسلق اللحم ثم يصفى من الماء ويدار بماكينة فرم اللحم، ثم يقلب في طنجرة ويضاف إليه دهن الإلية والملح "حسب الرغبة" وملعقة كزبرة يابسة وقرفة وفلفل، ومصطكا حسب الرغبة ويحمص ثم يضاف إليه البقدونس والنعنع والسذاب، ويقلب حتى يتغير لون البقدونس، ثم يضاف إليه ماء الليمون والخل ويقلب، ويضاف ملعقة سماق وقليل من جوز وفستق حسب الرغبة ثم يحشى في رقائق السمبوسك ويقلى بالزيت "زيت السيرج".

نتائج:

يلاحظ ان الطريقة المعتمدة حالياً في صنع السنبوسك تختلف قليلاً عن طريقة ابن العديم، مما يدعو إلى دراسة هذا الكتاب على مستويات غذائية وطبية وتراثية ومقارنة ما جاء فيه بما توصل إليه المطبخ الحلبي المعاصر، فقد يعيد ذلك إلى الحياة أطباق طعام قديمة،أو يقدم حقائق مفيدة على مستويات معرفية عديدة■



مـــن أُرتـــج عليـه

جاء في المعاجم العربية: رتج – رتجاً: استغلق عليه الكلام، وكذلك معنى " أُرتجَ عليه "، وهو أمر محرج يقع فيه بعض الخطباء، ولا تنقذه من موقفه الصعب سوى الفطنة.

ويحكى في التراث أن أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أُرتجَ عليه، فقال: أيها الناس إن أول كل مركب صعب وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا إن شاء الله.

ولما قدم يزيد بن أبي سفيان الشام واليا عليها لأبي بكر، خطب الناس فأُرتجَ عليه، فعاد إلى حمد الله ثم أُرتِج عليه، فعاد إلى الحمد، ثم أُرتجَ عليه، فقال: يا أهل الشام، عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرا، وبعد عيّ بياناً، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل، ثم نزل.

وصعد أبو العنب منبراً من منابر الطائف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فأُرتِجَ عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟!

فقالوا: لا، قال: فما ينفعكم ما أريد أن أقوله لكم، ثم نزل.

فلما كان في الجمعة الثانية صعد المنبر وقال: أما بعد فأُرتجَ عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟

قالوا: نعم، فقال: فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم، ثم نزل.

فلما كانت الجمعة الثالثة، قال: أما بعد، فأُرتِجَ عليه، قال: أتدرون ما أريد قوله؟

قالوا: بعضنا يدري وبعضنا لا يدري، قال: فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري، ثم نزل.

وفي الموضوع نفسه قيل لعبد الملك بن مروان: عجّل عليك المشيب يا أمير المؤمنين.

فقال: كيف لا يعجّل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين■

ثمانية أشياء

سأل بعض الناس الامام الشافعي عن ثمانية أشياء، فقالوا له: مارأيك في واجب وأوجب، وعجيب وأعجب، وصعب وأصعب، وقريب وأقرب. فرد عليهم بقوله: من واجب الناس أن يتوبوا ولكن ترك الذنوب أوجب، والدهر في صرفه عجيب وغفلة الناس عنه أعجب، والصبر في النائبات صعب ولكن فوات الثواب أصعب، وكل ماترتجي قريب والموت من دون ذلك أقرب■

قصـــة مثـــل

تزوج رجل بامرأتين إحداهما اسمها "حانا" والثانية اسمها" مانا" وكانت حانا صغيرة في السن عمرها لا يتجاوز العشرين بخلاف مانا التي زاد عمرها على الخمسين، و لعب الشيب برأسها.

فكانت حانا تنظر الى لحيته كلما دخل الى حجرتها وتنزع منها كل شعرة بيضاء وتقول: يصعب عليّ عندما أرى الشعر الشائب يشوه اللحية الجميلة وأنت مازلت شابا.

وعندما كان الرجل يذهب الى حجرة مانا تمسك بلحيته هي الأخرى وتنزع منها الشعر الأسود وهي تقول:

يكدرني أن أرى شعرا اسود بلحيتك وأنت رجل كبير السن جليل القدر.

وبقي الرجل على هذا المنوال الى ان نظر في المرآة يوما فرأى لحيته وقد نقصت نقصا عظيما فأمسك بها وقال:

بين حانا ومانا ضاعت لحانا

وأصبحت عبارته تلك مثلاً يضرب في من يضيع أمره بين متناقضين ■

عـــلامَ الـهــمُّ؟

مر ابراهيم بن أدهم على رجل ينطق وجهه بالهم والحزن فقال له: ياهذا إني أسألك عن ثلاثة فأجبني: فقال له الرجل: نعم. فقال له إبراهيم: أيجري في هذا الكون شي لايريده الله ؟ فقال:لا. قال: أينقص من أجَلِك لحظة كتبها الله لك في الحياة ؟ قال:لا. قال: أينقص رزقك شي قدّره الله؟قال:لا. قال إبراهيم: فعلام الهم؟

❖ ❖ ❖

لا تستغني

في تحفة العروس قالوا: أربع لاتستغني عن أربع: أنثى عن ذكر، وأرض عن مطر، وأذن عن خبر، وعين عن نظر.

❖ ❖ ❖

القاضي العارف

شوهد مؤذن يؤذن وهو يتلو من ورقة في يده، قيل له: أما تحفظ الأذان؟ فقال: اسألوا القاضي.

فأتوا القاضي، فقالوا: السلام عليكم. فأخرج القاضي دفتراً وتصفّحه وقال: وعليكم السلام.

❖ ❖ ❖

أيام الراحة.. الكثيرة

قال الخليل بن احمد: أيامي أربعة: يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني فأتعلم منه فذلك يوم غنيمتي، ويوم أخرج فألقى من انا اعلم منه فاعلّمه، فذلك يوم اجري. ويوم اخرج فالقى من هو مثلي فأذاكره فذلك يوم درسي. ويوم اخرج فالقى من هو دوني وهو يرى أنه فوقي فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي.

❖ ❖ ❖

جحا مريض

مرض جحا مرضا خاف منه ولما سئل عمن يرثه قال: لاوارث لي. قيل له: وأمك. أجاب: طلقها ابي من زمان■

ورد حديثاً إلى مكتبة العاديات(*)

من إبلا إلى إدلب

❖ "٤٢٤ صفحة، قطع متوسط"

فايز قوصرة

حلب - على نفقة المؤلف - ٢٠٠٤م

يؤرخ الكتاب لمنطقة ادلب منذ عصر ما قبل التاريخ ويركز على مرحلة التاريخ المعاصر معتمداً على مجموعة كبيرة من المعلومات الآثارية والوثائق ومنها ما ينشر للمرة الأولى.





مئة أوائل

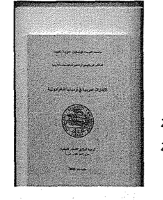
❖ "ستة أجزاء في ثلاثة مجلدات، ٢٩٨٠ صفحة قطع متوسط"

عامر رشيد مبيض

حلب - دار القلم - ٢٠٠٤م

كتاب، بل موسوعة زاخرة بالمعلومات والصور والوثائق، يُظهر المؤلف فيها تاريخ حلب المعاصر من خلال سيَر ما يزيد على مئة من أعلامها، فيقدم بذلك لمدينته خدمة جليلة تستحق التقدير والتشجيع.

❖❖



الممالك العربية في أرمينية البقرادونية

"٢٢٤ صفحة قطع متوسط"

تأليف الدكتور آرام دير غيفونتيان

ترجمة الدكتور الكسندر كشيشيان-حلب - ٢٠٠٣م

يؤرخ الكتاب لمرحلة مهمة من العلاقات بين العرب والممالك الأرمنية في هضبة الأناضول اعتماداً على مصادر عربية وأخرى آرمنية فيقدم رؤية متكاملة تساعد على فهم تداخل العلاقات العربية الأرمنية عبر التاريخ.





ديوان محمد جميل العقاد

"٥٤٤ صفحة قطع متوسط"

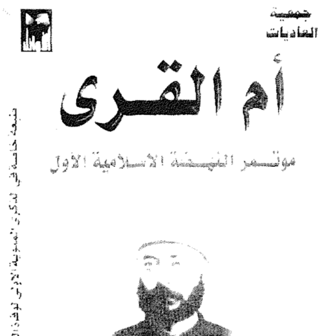
جمع وتحقيق ودراسة محمد عدنان كاتبي

حلب - دار فصّلت - ٢٠٠٣م

يؤرخ الإمام الأسبق للجامع الأموي الكبير بحلب بشعره لمرحلة غنية بالأحداث من حياة مدينة حلب في القرن الماضي.

❖ يمكن شراء هذه الكتب من ديوان الجمعية.

من مطبوعات جمعية العاديات



أم القرى

" ٢٣٠ صفحة قطع متوسط "

تأليف :

عبد الرحمن الكواكبي

دراسة وتحقيق:

د. محمد جمال طحّان

دمشق - دار الأوائل "

حلب -جمعية العاديات

٢٠٠٢م

كتب عبد الرحمن الكواكبي " أم القرى " في حلب. وعنوانه الكامل " أم القرى : وهو ضبط مفاوضات ومقررات النهضة الإسلامية المنعقدة في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨م" وظهرت أولى مقالاته في " المؤيد " سنة " ١٣١٧ هـ= ١٨٩٩م". .

تخيّل الكواكبي في " أم القرى " أنّ مؤتمراً عُقد في مكّة للتداول في أحوال المسلمين وأسباب تأخّرهم.

يلاحظ الكواكبي في مقدمته الخلل أو الضعف الذي اعترى المسلمين ، ثم يحاول أن يعثر على أسبابه ، وأن يضع له حلولاً في هذا الكتاب.

اكتشاف لغز الصفحة الأخيرة من كتاب أم القـــرى

د. محمد جمال طحان

ختم الكواكبي (أم القرى) بصفحة تحت عنوان: (بيان يكشفه الزمان)(*) فيه حروف عربية مصفوفة بطريقة غامضة وموقعة باسم (صالح ج) يلي ذلك صفحة بعنوان (الجدول الأفقي) كتب تحتها: «حيث أن بعض البوستات مأذونة رسمياً بفتح المكاتب التي يشتبه منها، فالحاجة ملحة لاستعمال كتابة جفرية مأمونة، صار وضع هذا الجدول تسهيلاً للمخابرة السرية بجفرة لا يمكن كشف سرها بدون معرفة كلمة المفتاح المتفق عليها بين كل متخابرين».ثم يضع طريقة الكتابة، وطريقة الحل.

وبالرغم من الكتابات الكثيرة عن عبد الرحمن الكواكبي، والأبحاث التي تناولت إنتاجه بالدراسة والنقد، فإن الصفحة الأخيرة من «أم القرى» بقيت من دون قراءة. بسبب عدم معرفة كلمة المفتاح التي ماتت مع الكواكبي.

ولقد تصدى لقراءة هذه الصفحة عضوان في جمعية العاديات، هما د. أحمد أديب الشعار والمهندس تميم قاسمو وتوصلا إلى إيجاد الكلمة التي يمكن بواسطتها قراءة النص (اللغز).

وقد سألت المهندس تميم عن السبب الذي دعاه إلى محاولة فك لغز هذه الصفحة فقال:

" لقد أملت من ذلك أن آصل إلى أشياء كان الكواكبي لسبب ما محرجاً من التصريح بها في زمانه، خاصة وأن العنوان الذي صدر به الصفحة كان « بيان يكشفه الزمان».

وعن الأسس التي اعتمدت في البحث قال: لم يبخل الكواكبي على من يريد كشف سر الصفحة بإعطائه «أول الخيط» كما يقال. فقد وضع جدولاً يساعد في الحل وذكر أن مبدأ التشفير أو «التعمية» كما كان العرب القدماء يسمونه هو وجود كلمة سر يتفق عليها المتخاطبان وتكون عادة كلمة من أربعة أو ثلاثة أحرف وباستخدام الجدول والكلمة يمكن تعمية نص من طرف المرسل أو فك تعميته من طرف المستقبل على السواء. في الواقع يصعب

* كتاب أم القرى، للكواكبي، تحقيق د. محمد جمال طحان، دار الأوائل، دمشق، ص٢١٨ - ٢٢١



شرح الأمر بالتفصيل لأنه يحتاج إلى بحث موسع وأمثلة. وباختصار فقد اعتمدنا على دراسة الجدول الذي وضعه الكواكبي فهو يظهر أن الصورة المعماة لحرف الألف من النص الأصلي هي حرف كلمة السر ذاتها (المبدأ رقم ١) وعلى حقيقة أن حرف «الألف» هو أكثر الأحرف تكرارا في أي نص عربي له طول مناسب، كأن يتألف من ٥٠٠ حرف بحيث يشكل عينة إحصائية (المبدأ رقم ٢) وهو أمر تنبه إليه العالم العربي «الكندي» منذ أكثر من ألف عام.

افترضنا أن كلمة السر مؤلفة من أربعة أحرف وقمنا بصف أحرف النص المعمى في مجموعات من أربعة أحرف على شكل رتل رباعي فحصلنا على ٧٥ صفا من الأحرف.ثم قمنا بدراسة تكرار الأحرف في كل رتل وصولاً إلى أكثر حرفٍ وروداً فيه، إن تطبيق المبدأين رقم (١ و٢) ينتج عنه أن أكثر حرف تكرارا في كل رتل هو حرف الألف من النص الأصلي وهو حرف من كلمة السر في نفس الوقت.

وقد وجدنا أن حرف القاف كان أكثر الحروف وروداً في الرتل الأول من النص المعمى ومعنى ذلك أن أصله حرف الألف (المبدأ رقم ٢) وبما أن الصورة المعماة لحرف الألف في النص الأصلي هي ذات الحرف من كلمة السر (المبدأ رقم ١) استنتجنا أن الحرف الأول من كلمة السر هو القاف وهكذا تكرر الأمر بالنسبة للرتل الثاني من صف الأحرف المعماة حيث كان أكثر الحروف تكرارا هو الدال والثالث الذي تقارب فيه تكرار حرفي الراء والسين والرتل الرابع الذي كان أكثر الحروف تكرارا فيه هو حرف الياء مما جعل كلمة السر تحتمل أن تكون كلمة ((قدري)) أو((قدسي))

وباستخدام كلمة قدري تحولت الأحرف التي لا معنى لها في النص المعمى إلى كلمات عربية تشكل جملا مفهومة مما أكد لنا أن كلمة السر هي ((قدري)).

لقد كانت عملية يدوية صعبة وطويلة، لكن مصاعب لم تكن بالحسبان واجهتنا، وسببها مصففو الأحرف في المطبعة آنذاك، إذ بدا أن بعض الأحرف مفردة أو متتالية قد سقطت أثناء الصف، مما أوقف قراءة النص بعد عدة أسطر. فعُدْنا في أول الطريق من جديد. واكتشفنا الحاجة إلى سند علمي حديث لإكمال العمل إلى نهايته، لقد كنا بحاجة إلى مبرمج كومبيوتر من نوع خاص.

❖ **وهل وجدتماه ؟**

لم نكن بحاجة للبحث عنه فالدكتور الشعار مبرمج ماهر، وقد أطلعني خلال أيام على برنامج وضعه بموجب المبادئ التي شرحتها آنفاً، فأصبح من السهل افتراض نقص واحد أو أكثر من الأحرف ومتابعة القراءة.

❖ **قلت إن كلمة السر هي ((قدري)) فهل توصلتم إلى قراءة البيان بأكمله ؟**

فتلا المهندس تميم على الفورالسطر الأول من البيان بعد فك تعميته قائلاً:

"إني ظفرت بنسخة من المذاكرات التي جرت...

وسكت فسألته وماذا يقول البيان بعد ذلك ؟

قال: هذا أحتفظ به لبحثٍ آمل أن ينشر بالاشتراك مع الدكتور الشعار ومن شاء فليحاول قراءة ما تبقى من النص بعد أن تم كشف كلمة السر■



البرنامج الثقافي للنصف الأول ٢٠٠٤

الرقم	التاريخ	المو ضوع	المحاضرون	المكان
١	الأربعاء ١/٧	ترميم المقر		
٢	الأربعاء ١/١٤	ترميم المقر		
٣	الأربعاء ١/١٩	كيف نفهم التراث	محمود حريتاني	نقابة المهندسين
٤	الأربعاء ١/٢١	العلاقة بين الدين والمجتمع في التاريخ السوري القديم	بدري حجل	جمعية العاديات
٥	الأربعاء ١/٢٨	نشاط جمعية العاديات في مرآة الصحافة عام ٢٠٠٣	د. محمد جمال طحان	جمعية العاديات
٦	الأربعاء ٢/١١	المرآة في نصوص إيمار "مسكنة"	حميدو حمادة	جمعية العاديات
٧	الجمعة ٢/١٣	الحب في عيون الأطباء والأدباء	د مصطفى ماهر عطري د سمير انطاكي د بكري شيخ أمين يدير الندوة ويشارك فيها د محمد جمال طحان	جمعية الشهباء
٨	الأربعاء ٢/١٨	استلهام التراث لنهوض جديد	عطية مسوح	جمعية العاديات
٩	الأربعاء ٢/٢٥	ثلاثية الحضارة في آمريكا الوسطى	جورج ادلبي بيكي ادلبي	حمعية العاديات
١٠	الأربعاء ٣/٣	ساعة في كبادوكيا	ملاتيوس جغنون	حمعية العاديات
١١	الجمعة ٣/٥	حفل فني "تحيةإلى بكري كردي"	فرقة آورنينا	جمعية الشهباء
١٢	الثلاثاء ٣/٩	المدن العربية الإسلامية التاريخية حضارة وانتماء	محمد خير الدين رفاعي	نقابة المهندسين
١٣	الأربعاء ٣/١٠	مقتنيات مدفن حي الجديدة	وضاح محي الدين	جمعية العاديات
١٤	-الحمعة ٣/١٢	قناع المتنبي في الشعر العربي الحديث	د عبد الله آبو هيف	-جمعية الشهباء-
١٥	السبت ٣/١٣	حوار مع الآثار	د. عبد السلام العجيلي	جمعية العاديات
١٦	الأربعاء ٣/١٧	ابراهيم باشا في حلب	فايز قوصرة	حمعية العاديات
١٧	السبت ٣/٢٠	تحربة علي بيعوفيتش "الاسلام والقومية والدولة المنشودة"	د محمد الأرناؤوط	بالتعاون مع مديرية الثقافة
١٨	الأربعاء ٣/٢٤	الأم تغني لأطفالها إيقاعات للكبار والصغار	ندى الرفاعي	حمعية العاديات
١٩	الأربعاء ٣/٣١	العمارة الطينية "الجنة المفقودة"	د. صخر علبي آزاد علي – ابراهيم العلوش-	جمعية العاديات

البرنامج الثقافي للنصف الأول ٢٠٠٤

الرقم	التاريخ	الموضوع	المحاضرون	المكان
٢٠	الأربعاء ٤/٧	الجلال والجمال في التراث العربي	د. سعد الدين كليب	جمعية العاديات
٢١	الثلاثاء٤/١٣	البدايات الأولى للعمارة في بلاد الشام	حميدو حمّادة	بالتعاون مع نقابة المنهدسين
٢٢	الأربعاء ٤/١٤	بين السهروردي والحلاج	رضوان السح	جمعية العاديات
٢٣	الجمعة٤/١٦	ثلاثون عاماً في الآمم المتحدة ذكريات وتاريخ	نجم الدين الرفاعي	المكتبة الوطنية
٢٤	الأربعاء ٤/٢١	قلعة مصياف تاريخيا وآثاريا	إسماعيل نوفل	جمعية العاديات
٢٥	السبت ٢٤ /٤	المستجدات في قلعة سمعان	جان بيير سوديني حان لوك بيسكوب	جمعية العاديات
٢٦	الأربعاء ٤/٢٨	قراءة في أساطير الحب السومرية	جهاد جديد	جمعية العاديات
٢٧	الجمعة ٥/١	صور كونية	فايز فوق العادة	جمعية الشهباء
٢٨	الأربعاء ٥/٥	ضاد العرب "طرائف وهالات تراثية"	د عمر دقاق	حمعية العاديات
٢٩	الأربعاء ٥/١٢	معاداة السامية: معاداة الإسلام	د. أحمد هبو	جمعية العاديات
٣٠	الأربعاء٥/١٩	قرية آرامو في القرون الوسطى	هوري بارسوميان	جمعية العاديات
٣١	الأربعاء ٥/٢٦	خان أسعد باشا بدمشق تاريخ وترميم	عبير عرقاوي	جمعية العاديات
٣٢	الأربعاء ٦/٢	روائع الفن الإسلامي	د ميخائيل أسعد	جمعية العاديات
٣٣	الأربعاء ٦/٩	العلوم السرية عند الفراعنة " هرم خوفو "	آمال صعلوكة	جمعية العاديات
٣٤	الحمعة ٦/١١	تاريخ طب الجلد عند العرب	حنا بشور	جمعية الشهباء
٣٥	الأربعاء ٦/١٦	سرديات التصوف نصوص الكرامة نموذجا	وفيق سليطين	جمعية العاديات
٣٦	الأربعاء ٦/٢٣	الجهود الأثرية اليابانية خلال ربع قرن	يايوتي يامازاكي	جمعية العاديات
٣٧	الأربعاء ٦/٣٠	حلب في ابداع أديب النحوي	د. نضال الصالح	جمعية العاديات

برنامج الرحلات داخل القطر العربي السوري

في النصف الأول من عام ٢٠٠٤

الرقم	النشاط	التاريخ	ملاحظات
١	الرصافة – سد الفرات – قلعة جعبر	٩ / ٤	يوم واحد
٢	اللاذقية - قلعة المرقب - طرطوس	٢٣ / ٤	يوم واحد
٣	قلعة سمعان-عين دارة -كيمار	٧/ ٥	يوم واحد
٤	الباب – منبج –قلعة نجم – جرابلس	٢١/ ٥	يوم واحد
٥	حماه – قصر وردان	٤/ ٦	يوم واحد
٦	دمشق - القنيطرة	١٨ - ١٩ / ٦	مبيت

الزيارات داخل مدينة حلب

لعام ٢٠٠٤

الرقم	المكان	التاريخ	مكان الاجتماع	الساعة
١	المتحف	١٢/ ٣	أمام المتحف	٩
٢	مشهد الحسين- مشهد الدكّة	١٩/ ٣	أمام المشهد	٩
٣	جامع الأطروش-جامع الطواشي-جامع الطونبغا-خان الشونة	٢/ ٤	أمام القلعة	٩
٤	القلعة-حمام يلبغا	١٦/ ٤	أمام القلعة	٩
٥	الجديدة والكنائس وجامع شرف	٣٠ /٤	ساحة فرحات	٩
٦	باب النصر . جامع الدباغة . مصبنة الزنابيلي-جامع العثمانية	١٤/ ٥	أمام باب النصر	٩
٧	باب قنسرين-جامع الكريمية-المدرسة الأسدية-البيمارستان الأرغوني	٢٨/ ٥	أمام باب قنسرين	٩
٨	خان الوزير-جامع الفستق-خان خاير بك-جامع الحيات-بيت المتنبي	١١/ ٦	أمام خان لوزير	٩
٩	باب الحديد-جامع بانقوسا-بيت مامو-جامع الحدادين	٢٥/ ٦	أمام باب االحديد	٩

من أعلام جمعية العاديات

كامل الغزّي



هو كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي، ولد سنة ١٨٥٣م في مدينة حلب.

والده الشيخ حسين البالي ولد في مدينة غزة، في أسرة اشتهرت بالعلم والفضل والوجاهة في ميادين الزراعة والتجارة، درس في الأزهر وسافر إلى طرابلس الشام واشتهر بفضله فيها، ثم دعي للتدريس في مدرسة حلب، فعالج علوم الشريعة والحديث والمنطق واللغة والأدب العربي فأحدث نهضة فكرية وأدبية. واشتهر بالغزي، توفي في الخامسة والثلاثين من عمره وسن ابنه كامل لا يتجاوز تسعة أشهر.

ونشأ كامل في كنف زوج أمه الذي أحسن رعايته، ولما بلغ سن الدراسة دخل الكتاب وما كاد يتم العاشرة حتى حفظ القرآن الكريم، ودخل بعد ذلك "المدرسة القرناصية" فتابع فيها دروسه الابتدائية والثانوية، وفيها حفظ أكثر من عشرين ألف بيت منها ألفية ابن مالك والشاطبية وعقود الجمان للسيوطي. ثم انتقل بعد ذلك إلى العلوم العالية فدرس التفسير والحديث النبوي والفقه على شيوخ وأعلام بلده.

اتصل بأصدقاء أبيه ومعارفه، وبلغ ذكره والي حلب آنذاك "محمد رشدي باشا الشرواني" فأعجب بذكائه ومعرفته وقربه إليه، ولما نُقل الوالي حاكماً للحجاز اصطحبه معه وجعله إماماً لتلك البلاد، فرأى الديار المقدسة وعرف بلاداً بعيدة واسعة فتفتح عقله وتنبه ذهنه، لكن مقامه هناك لم يطل لأكثر من ثمانية أشهر، لأن الوفاة أدركت ذلك الوالي الشرواني. ولما رجع إلى حلب استأنف دراسته ودخل "المدرسة العثمانية" وظل فيها حتى سنة ١٨٧٥م، انقطع خلالها إلى طلب العلوم العقلية والنقلية، ثم تقلب في وظائف الدولة، فأصبح ترجماناً لمطبعة الولاية، ثم عضواً في محكمة التجارة، ثم عضواً في المجلس البلدي بحلب، وتولى رئاسة لجنة الآثار ورئاسة تحرير مجلتها، وكما تولى تحرير جريدة الفرات الرسمية والأسبوعية بحلب نحو عشرين عاماً.

ملّ الغزي الوظائف، فاستقال لتعاطي بعض الأعمال الخاصة وانصرف إلى التأليف، فأنشأ كتاباً ضخماً سماّه "نهر الذهب في تاريخ حلب" أنفق في سبيل جمعه وتأليفه سنوات طويلة من عمره. وقد جمع هذا المؤلف ألوان البحث عن تاريخ حلب في "صنائعها ومدارسها ومذاهبها وأديانها وعاداتها وحياتها الاجتماعية في مختلف أحيائها القديمة والحديثة" رسمها الغزي بريشته ووقف عليها بنفسه. وقال في مقدمته: "وبعد، فإني منذ زمن بعيد أعاني جمع هذا الكتاب، وأصرف على تأليفه من نقد عمري وجوهر مالي ما يستكثر مثله من أمثالي. وقد تتبعت من أجله العدد الكثير من الكتب التاريخية وغيرها، وتصفحت زهاء مئة مجلد من السجلات المحفوظة في المحكمة الشرعية، وتكبدت عناء زائداً في الإطلاع على دفاتر الدوائر الرسمية، وعلى ما هو مدخر في المكتبات الخيرية والأهلية من المجاميع والرقاع الخصوصية التي سطرها ذووها في بعض شؤون تاريخية ذات أهمية عظيمة في وقتها، فكنت لا أصل إلى ما يهمني أمره من هذه المواد إلا بعد عناء شديد ونفقة باهظة. وكنت في أثناء استقصائي أخبار الآثار أضطر في بعضها إلى تحمل مشاق الأسفار لأتمكن من الاطلاع على حقيقة حالها، وأكتب عنها كتابة تحقيق لا كتابة تقليد وتلفيق".

كما تلفت الغزي إلى الشعر العربية القديم، فجمع أشعار قومه من بلاد الشام وتناولهم بالدراسة، كما جمع أشعار القدماء، واجتلب المخطوطات النادرة،

فقرأ شروح المتنبي ودواوين العباسيين، وانتهى إلى فهم عميق للشعر العربي واللغة العربية، لذلك اختاره المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً فيه، ثم رئيساً لفرعه بحلب سنة ١٩٢١م، وقد جعل هذا الفرع في قلب الأسواق الداخلية للمدينة، وجمع فيه مكتبة غنية، فكان الشيخ الغزي يجتمع إلى إخوانه وأبنائه الطلاب يحلل ويشرح لهم ما جاء في هذه الكتب، لذا كان فرع المجمع نواة لتخريج شباب كثيرين بلغوا مبلغاً عظيماً من العلم والجاه.

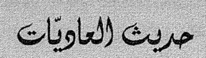
كما أحس الشيخ الغزي حين قرأ التاريخ الإسلامي وذكر السنين الهجرية فيه بأيامها وشهورها، بحاجة إلى جداول تستهل موازنة الشهور الغربية بالعربية والسنين الهجرية بالميلادية، فألف "الروزنامة الدهرية" والتي استلبت منه وقتاً طويلاً في حساب الرياضيات ورسم الأرقام. اختارته "جمعية العاديات" بحلب عام ١٩٣٠م رئيساً لها، وظل على ذلك حتى آخر أيامه. وكان يكتب مقالات عن حلب وآثارها تنشرها مجلة العاديات معتزة ببحوثه وآرائه.

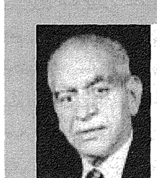
نظم الغزي الشعر، وكان يساير روح العصر في شعره، كما اشتهر عنه شعر العبث بالناس أو السخرية الجميلة، وسجل في شعره الكثير من أغراضه الخاصة والعامة. وله قصيدة عامرة جعلها في مائة وعشرين بيتاً نظمها بمناسبة ولادة ابنه "حسين فيصل"، وشرح هذه القصيدة وعلق عليها وجعل فيها كل الآراء التي يريد لابنه أن يتخذها وأن يتعلمها، وجعل هذا الشرح في رسالة بعنوان "القول الصريح في الأدب الصحيح" وهي لا تقف عند النصائح الجامدة وإنما تضم معلومات شتى عن الفرق والمذاهب والقدرية والسلفية والقضاء والقدر، وما أصاب الأمة الإسلامية من ذلك كله على مدى التاريخ، كما تضمنت آراء سياسية واجتماعية شديدة الجرأة في أيامه دفعت السلطة إلى الغضب من مؤلفها، واضطرته إلى الهرب إلى أن هدأ الحال. كما كتب رسائل عدة في الإصلاح، ومقالات كثيرة نشرها في صحف حلب وبيروت والقسطنطينية ودمشق حول موضوعات مختلفة.

في صباح الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٣٣، توفي الشيخ كامل الغزي ودفن في حلب، وأقيمت لتأبينه حفلة عظيمة عدد فيها الخطباء مزاياه. قال فيه أديب حلب سامي الكيالي: "شيخ تمثلت فيه طبيعة العلماء، وذوق الأدباء، ونزعة المجددين، ووداعة الظرفاء، وجمال الشيخوخة في فتوتها الباسمة".

من آثاره:

- "نهر الذهب في تاريخ حلب"، طبع منه ثلاثة مجلدات من أصل أربعة.
- "جلاء الظلمة في حقوق أهل الذمة" مخطوط.
- "روضة الغنّاء في حقوق النساء"، مخطوط■





عبد السلام العجيلي

العاديّات بين نظرتين

في تشرين الثاني من عام ١٩٦٤ أنهت بعثة للتنقيب تابعة للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو، يرأسها البروفيسور موريس فان لون، أنهت هذه البعثة موسم عملها في تل مريبط على شاطئ الفرات، في محافظة الرقة، باكتشاف رائع كان له دوي تردد صداه في الأوساط العلمية في كثير من بلاد العالم.

ذلك الاكتشاف كان العثور على أول منزل سكنه الانسان له صفة المنازل المكتملة البناء. ففي أعماق تل مريبط عثر فان لون على مساكن ذات جدران قائمة مكسوة بما يشبه الكلس، ولها أرضيات ممهدة وسقوف مستوية تعلوها. عثر عليها تحت سبعة عشر طابقاً يمثل كل طابق عهدا حضارياً. أقدم تلك العهود هو العهد الذي بنيت فيه هذه المنازل المكتملة التي قدر عمرها بتسعة آلاف وخمسمئة سنة، أي بعشرة قرون من الزمن.

قلت إن هذا الاكتشاف الرائع كان له دويّه في أوساط العلم والفكر في بلدان كثيرة إلا أني لا أذكر أن أحدا في بلدنا سورية، وفي غيرها من البلدان العربية قد أتى على ذكره في وقته أو أن وسيلة من وسائل الإعلام العربية قد اهتمت به. مع أن الاكتشاف كان في أرض عربية وفي منطقة تهافت على التنقيب فيها بعثات عالمية كثيرة، نظراً إلى أنها كانت مهيأة لتغرق في مياه بحيرة ستتشكل وراء السد الذي سيبنى على نهر الفرات. لماذا هذا التجاهل أو الاستهانة باكتشاف له أهميته التاريخية والأثرية والعلمية الكبيرة، وهو قد برز للعيان أمامنا وفوق أرضنا؟

أول مـا يـرد علـى الخـاطـر جـوابـا على التسـاؤل هـو أن السبب يعـود إلى تخلفنا حضارياً، الـذي نجم عن تخلفنا في ميادين العلم والثقافة. ففي زمن يحج فيه المتزودون بأبسط المعلومات التاريخية إلى المناطق الأثرية المتباعدة في مختلف أنحاء العالم لمشاهدة آثار القرون البائدة، تزدحم أرضنا بكنوز عالية القيمة من هـذه الآثـار فلا نبدي بها كبير اهتمام ونمـر إلى جانبها غـير آبهـين، وأحيـانـا مستهزئين بها ومخربين لها. أترى التخلف وحده هو السبب في موقف المواطن العربي من الآثار القديمة، الآركيولوجية، التي أصبحنا نطلق عليها اسم العاديات؟

للتخلف الذي لا ننكر اتصاف طبقات كـبيرة مـن شعوبنا بـه أثـر لا يشـك بـه في هـذا الموقـف. إلا أن السبب فيه ليس التخلف وحده، بل أقول إنه ليس السبب الأساسي فيه. فحين كنا متقدمين وكان غيرنا هم المتخلفون ما اختلفت نظرتنا إلى الآثـار القديمة كثيراً عن نظرتنا إليها اليوم.

مبعث ذلك يعود إلى العقلية العربية في اعـتبـارهـا الحـضـارة والـفـن، ويعـود إلى أسـلـوب تـقـديـرهـا لهـاتـين القيمتين الإنسانيتين. لقد بينت شخصياً في أكثر مـن محـاضـرة ومـقـال ودراسـة أن عقلية العربي في كل العصور تعطي الأولوية للحياة وللحركة وللقيم المعنوية، مفضلة إياها على افتقاد الحياة وعلى الجمود وعلى القيم المادية. فما الآثـار القديمة، من أهرامات وقلاع مهجورة وأسوار جبارة إلا رمـم لا حياة فيها، كـان لها قيمتها حين كانت مفيدة للإنسان الذي بناها. أما حين فارقها ذلك الإنسان فإن قيمتها أصبحت، في نظر العربي، صفراً.

وأفضل مثال على ما أقول هو كلمة عمر بـن عبد العـزيـز الـتي رد بها على استئذان والي حمص في أن يبني للمدينة سـوراً شـاهـقـاً يحصنها بـه مـن غـارات الأعـداء، كـان جـواب عمر لواليه هذه الكلمة البليغة: حصّن مدينتك بالعدل!

وأنـا أردد دومـاً إن طلبـاً مثل طلب والـي حمـص لـو ورد إلى فـرعـون مصري أو إلى إمـبراطـور روماني لكان الجواب أمـراً بإقامة أبنية شاهقة وضخمة يموت في إنجازها آلاف العبيد والمسخرين تحت السياط، ثم لا تلبث إذا فقد العدل أن تظل شاهد بطش وجـبروت أكـثر منها أداة نفـع وسـد احـتيـاج. وإتـلاف النفس البشرية لغايات تنتفي منها فائدة الانسان الحي أمر لم تستسغه العقلية العربية في أي زمن كان.

على أنـي لا أقـول بـأن العناية بالآثار القديمة والاهتمام بها يجب أن يطردا من تفكيرنا ومن ممارساتنا، وبأن إهمالها

أمر محمود لا يلام أحدنا عليه. لا بد من إغناء عقليتنا وتوسيع آفاقها بإدراكنا أن للآثار القديمة قيمتها السامية في أكثر من جانب من جوانب حياتنا. إنها تزيدنا علما ومعرفة، وتطلعنا على تدرج البشرية في مراحل تحضرها، وتمتعنا بألوان من الجمال في أوابدها التي تفنن المبدعون العباقرة في إنشائها وصياغتها.

وفي العصر الحاضر دخل عنصر جديد في تقييم الآثار القديمة، وهو العنصر الاقتصادي، إن بلدانا كثيرة من بلدان العالم مثل اسبانيا وايطاليا واليونان، صارت تعتمد في موازناتها على ما تجلبه السياحة إلى آثارها وأوابدها من موارد اقتصادية إلى خزائنها. ونحن في بلادنا نملك من الآثار والأوابد ما يؤهلنا إلى أن نكون في طليعة المستفيدين من هذه الموارد، إذا أحسنا العناية بها واستثمارها.

لعل هذا الذي أوردته قد جال في أفكار الرواد الذين قاموا بإنشاء جمعية العاديات في حلب في عقد زمني متقدم من القرن الفائت، كما استمر معتبرا في أفكار الذين تتابعوا من رؤساء هذه الجمعية وأعضائها في العقود المتتالية التي وصلت بنا إلى اليوم الحاضر.

لقد كانت حلب من بين مدن قطرنا الكبيرة، بنشوء جمعية العاديات فيها، السباقة في اهتمامها بالآثار القديمة سواء في أوساطها الرسمية أو أوساط المثقفين من أبنائها. ثم إن جمعية العاديات في حلب لم تشأ في يوم ما أن تكون أنانية أو محتكرة، فامتد اهتمامها إلى مدن أخرى في قطرنا داعية إلى إنشاء فروع لها في هذه المدن الأخرى، ناقلة إلى الفروع المستحدثة حماسها وتجربتها ومعونتها.

في روايتي " أجملهن " وهي آخر رواية صدرت لي، يقول بطلها سعيد لصديقته النمساوية، وهما يتجولان في ضواحي فيينا: أنت تستكثرين ثمانية قرون مرت على تشييد كنيسة. تعالي إلى بلادي لأريك معابد لها من العمر ثلاثون قرنا أو أربعون.

سعيد في الرواية هو محام من حلب موطناً وعملاً، والأحداث فيها تجري في منتصف الخمسينيات من القرن الفائت. أترى سعيد، الأستاذ سعيد، كان عضواً في جمعية العاديات في حلب ذلك الزمن، ما دام يتحدث عن المعابد الأثرية القديمة في بلاده بهذه اللهجة الفخورة؟

إنها فكرة لم تخطر على البال وأنا اكتب تلك الرواية، فلعلي أدسها في تضاعيفها في طبعتها الثانية، وهي طبعة يتهيأ اليوم الناشر لإصدارها في وقت مقبل و قريب.■


العاديَّات
فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر
تصدرها جمعية العاديات
العدد (صفر)- ربيع ٢٠٠٤